الممالك الإسلامية

في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى

الدكتور زاهر رياض



اهداءات ٢٠٠١

أد. محمـــــد ديــــــاب

جراح بالمستشفى الملكي المصري

دكتور زاهر رياض
معهد الدراسات الإفريقية
جامعة القاهرة

الممالك الإسلامية فى غرب إفريقيا

وأثرها فى

تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى

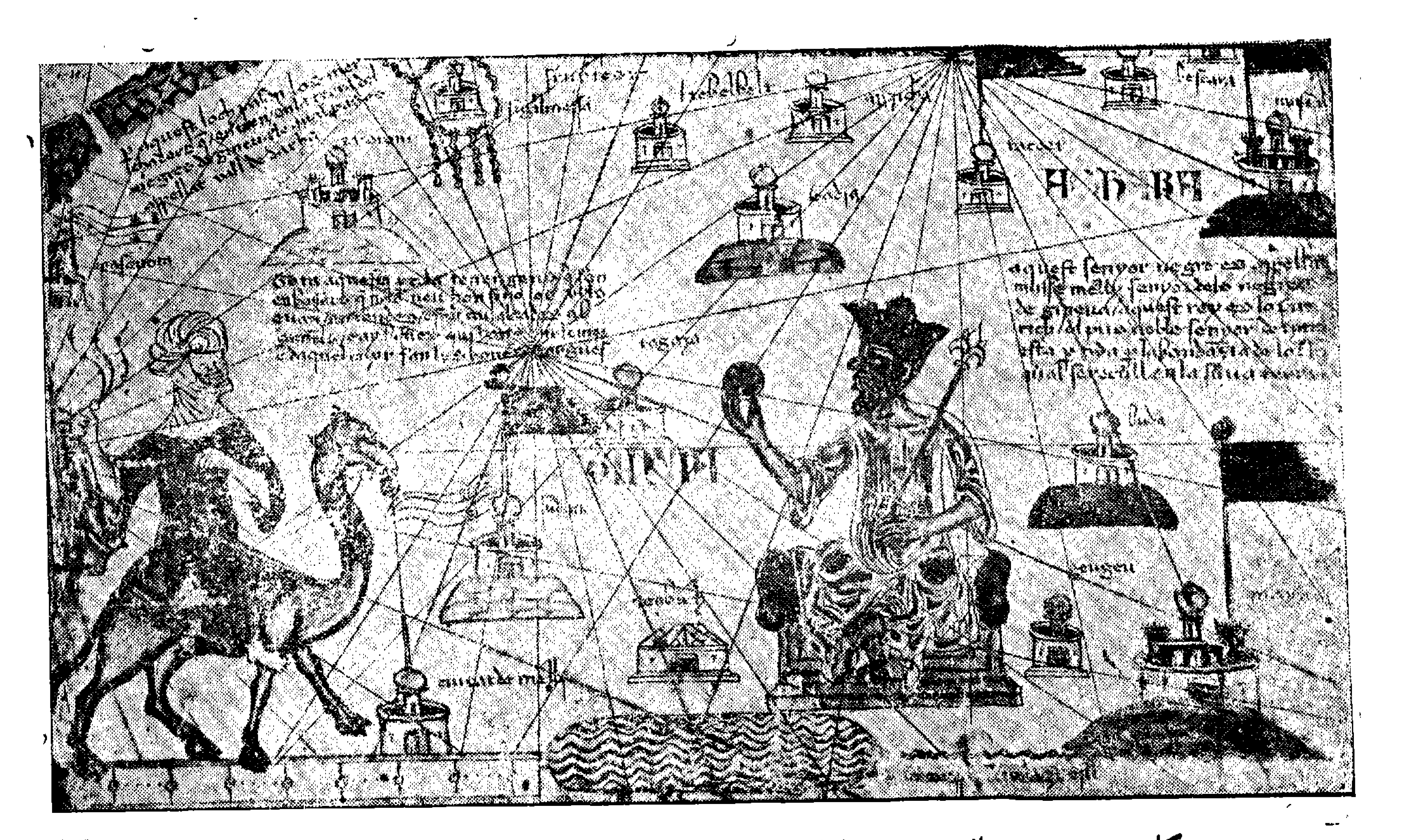
١٩٦٨

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

هذه ترجمة كتاب

E. W. Bovill, The Golden Trade
of the Moors.
Oxford 1961

المطبعة الفنية الحديثة
٢ شارع الأصبغ الزيتون ت ٨٦٤٨٧٩



شكل ١ . موسى مالى — ملك الزنوج فى غينيا — كما ظهرت فى أطلس كاتالان سنة ١٣٧٥

مقدمة المؤلف

كتبت هذا الكتاب استجابة لطلب طبعة جديدة لكتابى (قوافل الصحراء القديمة) وهو يغطى نفس الحقل، ولكنه يعطى مزيداً من نفس القصة ولكن لا بنفس الطريقة . وهناك عدة أسباب دعت إلى ذلك .

أولها : إنى وجدت أن تلخيص ما كتبته منذ ربع قرن مضيع له وغير ذى فائدة فهناك كثير يجب كتابته أفضل مما كتب ، وشىء ليس بالقليل لم يكن يجب كتابته. وفى نفس الوقت جمعت مادة جديدة يجب أن يكتب كثير منها على الأقل لا ظهر خطأ ما كنت قد كتبته قبل ذلك .

ولكن ما هو مطلوب أكثر من ذلك، أن مرور السنين قد أحدث تغييرات تبدو أنها تستدعى معالجة مختلفة للموضوع، كما تستدعى دخولا جديداً للقصة. فالهدف من كتابى الأول كان — كما ذكرت المقدمة — أن أظهر كيف أن الطرق التجارية عبر الصحراء قد عقدت روابط من الدم والثقافة بين الشعوب التى فى شمال الصحراء وتلك التى فى جنوبها . وإن أكسب قدراً من الابراز للجزء الذى لعبه السودان الغربى فى تاريخ الحضارة، وأن التأكيد انصب على تأثير شعوب الشمال على شعوب الداخل . وتأثير البيض والسمر على الزنوج، وقد قدِّر الكتاب فى كانو التى تنظر إلى الشمال عبر متاهات الصحراء الكبيرة وإلى المدن التى نشأت فى المغرب والتى ارتبط بها السودان الغربى بعلاقات قاومت الزمن . ونتيجة لذلك كان الكتاب موجها أكثر ما يكون إلى هؤلاء المهتمين بغرب إفريقيا .

ومنذ هذا الوقت زادت معرفتى بالمغرب من مراكش حتى لبسيس وباديها، فرحلاتى المتواضعة وقراءاتى علمتنى كثيراً ، وخاصة أن الصحراء

تسيطر على تاريخ الشمال بأكثر مما سيطرت على تاريخ الجنوب. ولكن هذا الاتجاه لم يتبينه مؤرخو المغرب، وكذلك هؤلاء الذين يشخصون بأبصارهم إلى عظمة الاثار القديمة التى تغطى صفحة كبيرة من هذه الأرض .

ولذا بدت لى الحاجة إلى كتاب يظهر كيف أن الصحراء قد أثرت القرطاجنيين وأخافت الرومان . وكيف أن طرق الصحراء الكبيرة فى الأزمان الحديثة ربطت مدن الشمال بالأسواق الكبيرة ومراكز العلم فى الجنوب ولم تتأثر فقط بمجريات الحوادث فى المغرب أو حتى ما وراءه ، بل سيطرت عليها فى بعض الأحيان . وكيف أن البربر والعرب يهوداً ومسيحين ـ عبر القرون ـ لم يتوقفوا عن حمل الثروة والصناعة السودانية . فهذا الكتاب يرمى إلى إرضاء هذه الرغبة .

فتاريخ شمال إفريقيا قد شغل كثيرين من الدارسين الدءوبين وأتخذ منه بعضهم شغلة حياته، فالولوج إلى حقل تبينت منه كثيرين من السابقين قد عولج فى يسر ولكنه ليس فى يسر كثير إلى حد أنى لم أجرؤ أن أسأل عن نهايته .

وبالرغم من أن هذا الكتاب — بخلاف كتابى السابق — موجه إلى المهتمين بشمال إفريقيا، فقد وضعت فى ذهنى ـ عند كتابته ـ دائماً رغبة الطلبة الذين يدرسون تاريخ غرب إفريقيا، والذين أدين لهم بالدعوة إلى طبعة جديدة لكتابى الأول، فذهب المغرب وكذلك جلود مراكش لها أصلها فى السودان وهو الأرض التى يقود إليها كل خيط فى قصتى .

وقد سجلت — فى المصادر والهوامش — مصادر مادتى، ولكن من الواجب أن اعترف بالفضل لهؤلاء الذين — من وقت لاخر — اقترحوا بعض تصويبات أو تصحيحات أو إضافات إلى كتابى الأول، وتراكمت ديونى خلال السنين كى تطفو فى السنين الأخيرة ، بالاستجابة الكريمة لهؤلاء الذين طلبت مساعدتهم ومعاونتهم فى كتابة الكتاب الحالى ومن بين هؤلاء الذين

ادين لهم المرحوم أرنت، والدكتور كابوت بريجز والسيدة أولون بروجان . والسيد كرون . والسيد دانيل والأستاذ هنرى لابوديت . والسير جوردون ليتم، والسيدة ماكدوجال. والمرحوم رايموند مونى. والسير ريتشموند بالمر . والسيد سكلتون وجماعته فى غرفة الخرائط بالمتحف البريطانى، والأستاذ تايلور وكذلك ابنتى مدام جيمس بلاكت اورد. وأخيراً زوجتى التى أضافت إلى حاسة ابنتى النقادة هبة تحملها وصبرها الذى يفوق حد الشكر أو المكافأة .

(١)

مرضعة الأسود العجفاء

إذا اشتكى الفلاح البريطانى — وهو يقاوم رطوبة المحصول — أن الصيف قد جاء مختلفاً عما كان ، فزارعو المناطق المدارية بالمثل يصرون على أن ندرة المطر تسبب نقص محصولهم شيئا فشيئا . فالأول يحن إلى الشمس التى باركت شبابه، والثانى إلى المطر الذى أعطى والده ثروته . فإذا كان المناخ هو أهم ما يعنى الزراع أكثر من مباشرى أى نشاط آخر، فالاعتقاد فى تغير المناخ ظاهرة غالبة بين الفلاحين . وهذا شىء هام بالنسبة لقاطنى المدن أيضا لأن أجازتهم السنوية مرتبطة به أيضا . والاعتقاد فى عدم استقرار المناخ عميق الجذور، ويحمل الناس على الاعتقاد دائما أن أى تغير فيه إنما يسير إلى أسوأ . والسجلات المترولوجية تكذب هذا الاعتقاد ، ولكن الأرقام لا تريح الإنسان ولا تخلصه من تشاؤمه .

وربما لا يوجد مكان فى العالم أغنى ما يكون بالعلامات الخارجية التى تؤكد تغير المناخ أكثر من شمال إفريقيا . ويبدو الآن أن ليس هناك من شك ولو يسير فى أن الاحوال تسير من سىء إلى أسوأ . ففى كل مكان يقع شرقى مراكش (وأغلبها حسن الرى) ترتفع الشكوى من قلة المطر . فمن الجزائر حتى النيل ، تنتشر على سطح الأرض خرائب المدن المهجورة ، والآبار الجافة ، وكذلك مجارى الأنهار الجافة . وفى الداخل ـ حيث الأرض التى أطلق عليها هيرودوت اسم (منطقة الحيوانات الوحشية) ـ انعدمت الحيوانات الكبيرة وهو دليل لا يقبل الشك يؤيد نقصان نزول المطر نقصا خطيراً .

والمدرج الهائل فى تسدروس Thysdrus (الجم الحالية) الذى بناه الرومان ليسع ستين ألف متفرج، لا يكاد يكفى منزلا لستمائة من بين العرب الذى يعيشون

هناك . والذين تجمعوا فى الكهوف المحفورة عند أقدامه ، والذين يعيشون الآن عيش الكفاف فىالسهول الجافة المهجورة وهو يشير فقط إلىما ضمجيد. وأقل من ذلك أثراً فىالنفس، خرائب تاموجادى Thamugadi (تمجاد)، فالمرتفعات المعشوشبة التى يعيشون فوقها لا يسكنها الآن إلا البدو .

ويبحث الإنسان الآن عبثا عن أى أثر للماء الذى كان يجرى بصفة دائمة خلال الشوارع . فالزائر الذى يقصد لبسيس ماجنا Lepcis Magna قد يعجب إذا ما رأى هذا العدد الكبير من الخرائب ، فمن أين كان سكانها وقد بلغوا ستين ألفا أو يزيدون يحصلون على الماء . وكيف كانت تمتلأ الخزانات الكبيرة والحمامات العامة . إذا لم يكن ماء المطر من الكثرة بحيث يبلغ سبعة أو ثمان بوصات فى السنة . وهى كل ما تحصل عليه هذه المدينة الآن. وأمثلة أخرى لا تحصى من قلة السكان كلها تعود إلى قلة كمية المـاء . ولكنها تكفى لتصور نوع الدليل الذى يقنع الزائر . وليس أقل من ذلك أثراً قيعان الأنهار الجافة ـ وبعضها عظيم العمق ـ التى تنتشر فى الريف، كثيراً ما تشير إلى مدى الانتعاش الذى استمر ولا شك عصراً طويلا .

وإذا أريد مزيد من التأكيد عن تغير المناخ منذ العصور القديمة ، فإننا نجده ملموسا فى المتحف الذى جمع أبدع قطع الموزاييك التى عثر عليها المنقبون من بين البقايا الرومانية. فهى تظهر كيف عـاش الناس آنئذ . وكيف كانت منازلهم ومزارعهم وملاعب حقولهم . وكيف زرعوا الأرض . وأكثر من ذلكالحياةالوحشية لريفهم . فالصورة العامة الماضية هىأن الأرض كانتمختلفة تماما عما نرى اليوم، فهى أقرب ما تكون إلى كينيا منها إلى بلاد البربر. أقرب إلى ما ينتظره الإنسان من مزرعة قمح روما ممـا هى حقيقة اليوم . وأكثر التغير أثراً هو أنعدام الحياة الحيوانية للمنطقة فبينما كانت فى العصر الرومانى تضم مختلف أنواع الحيوانات وفى أعداد كبيرة، لا نراها الآن إلا فى منطقة

إفريقية مدارية لم تمسها المدنية ، وربما كانت أبعث قطع الموزاييك للسرور قطعة فى باردو Bardo (المتحف العلوى) فى تونس ، وهى تمثل أورفبوس يموج مع مجموعة من الحيوانات تضم بينها التيتل، والتاريخ يروى نفس القصه. فالأفيال وقطعانها الكبيرة التى كانت تملأ المنطقة أيام القرطاجنين عاصرت أيضاً الرومان، وقد كرر هيرودوت نفس الوصف للارض الداخلية حيث كانت القردة بين حيواناتها الوحشية .

والنتيجة الطبيعية التى ننتهى إليها من هذه المجموعة الكبيرة من الأدلة تشير كلها إلى تغير المناخ، ولكن الأحوال الحالية قد سادت منذ أيام الرومان والصحراء تزحف على الأرض التى تقع وراء الشاطئ الشمالى لافريقيا . وأى دليل آخر يمكن أن يوجد أكثر من إقليم طرابلس Tripolitania البناء القديم لمدينة لبسيس ماجنا وسبرطه Soparta اللتين وجدتا مقبورتين تحت عمق هائل من الرمل المتراكم، بل هناك تفسير آخر — لا عن الخرائب المقبورة فى عمق— ولكن أيضاً عن المدن العديدة التى تقع الان فى متاهات جافة . وكذلك مجارى الأنهار الجافة والنباتات المفقودة . والدليل كله قائم ضد التغير المناخى . أو ربما كان المطر الحالى هو نفس الـكمية التى كانت تسقط منذ نصف مليون سنة .

وعندما أراد الرومان —لأسباب اقتصادية وسياسية وحربية — أن يؤسسوا لهم مواطن أينما شاءوا ، أو يوسعوا رقعة موطن قد استقروا فيه أكثر من حدوده، لم يسمحوا لندرة المطر أن تقف فى طريقهم . فإذا لم يكن الماء فى متناول أيديهم . أو إنعدمت نسبة النقاوة العالية التى يطلبونها ، فإنهم كانوا يحملونه من بعيد. فسرته Cirta (قسطنطينة الحالية) جلبت ماءها من بعد عشرين ميلا . وقيصريه Caesarea (شرشل الحالية) من بعد تسعة عشر ، وقرطاجه من على بعد تسعين ميلا تقريباً فالقنوات المعلقة الهائلة التى اخترقت السهول

الواسعة وسلاسل الجبال العالية ظلت دليلا لا ينقض على عبقرية المهندسين الرومان ، الذين تمت تحت أشرافهم مجموعة الخزانات التى مونت المدن بمياه الينابيع ولكن هذه الينابيع لم تكن دائما موجودة كما هو الحال فى طرابلس حيث كانت مشكله الماء — كما هى اليوم — مسألة دقيقة أكثر مما هى فى الغرب . حيث جرب الايطاليون حين أسسوا مواطنهم الجديدة فى سنة ١٩٣٠ وسيلة جديدة وهى جمع المطر من مناطق مجاورة وتخزينها فى خزانات ، وكانت هذه المناطق المجاورة تختلف بين سطوح الصخور وسقوف المنازل[1] .

وكانت هناك وسيلة أخرى هى بناء السدود فى عرض النهر حيث يتجمع وراءها ما ينزل خلال فصل المطر القصير فتخزن أو تجلب إلى الخزانات . وقد استمرت هذه الوسيلة مع تحسين كبير . فقد أقام الإغريق فى أقصى الشرق نفس الشىء أن لم يكن أفضل مما فعل الرومان فى ظروف أكثر قسوة . فقد استبدلوا ، بطريقة الخزانات الصخريه ، سلسلة من المدن والقرى التى تحيطها الحقول وأراضى الكروم التى تمتد على طول الطريق من سيرين إلى الإسكندرية .

وكان تهديد الصحراء للارض الزراعية فى هذه الانحاء الجافه — فى سرتس الصغرى — مستمرا . وأوقف زحف الرمال عند الخليج فقطالما كانت الأرض تزرع ، أما حين توقفت الزراعة بسبب الانحطاط وتخريب السدود والخزانات فقد زحفت الصحراء حتى أصبحت على نحو ما نراه الآن فى لبسيس وسبرطة .

---

(١) قدر مايطلبه المزارع العربى فى منطقة البحر المتوسط بخمس وخمسين جالوناً للرأس الواحد (١ ½ حالون فى اليوم) وهو خمس مايطلبه الزارع الوطى فى المناطق المدارية وفى طرابلس حيث معدل المطر ٨ بوصات يمكن الحصول على هذه الكمية من الماء من المنطقة المجاورة من مساحة ١٥٠ قدم مربع . أى من سقف منزل مساحته ½ ١٢ × ½ ١٢ قدماً .

وقد أحيت القنوات المعلقة والسدود والخزانات التى أقامها المهندسون الرومان المدن الميتة التى تثير دهشتنا اليوم . فكل هذه الأعمال التى تخربت لا تعود إلى القصور فى نزول المطر أو قلة الينابيع . إنها فى بعض الأوقات ترجع إلى الحركات الأرضية . ولكن أكثر من ذلك إلى يد الإنسان فلمدى ألفى ميل أستعمل الناس الآثار الرومانية كمصدر لاحجار البناء سواء للمنازل أو المساجد ، فمسجد القيروان والجامع الكبير يحوى قرابة ثلاثمائة عمود أخذت كلها مما حولهما من المبانى الرومانية والبيزنطية التى لا أثر لها الأن . وفى القرن السادس عشر أخذ ثمانية وأربعون عمودا من لبسيس لبناء مسجد تجوبرا الذى يقع شرقى طرابلس بأميال قليلة . وفى غدامس الصحراوية لم يبق من كل المخلفات الرومانية سوى بعض الأعمدة الدورية والكورنثية فى المسجدين الرئيسيين، هذا إلى أن التخريب الشامل الذى عمد إليه الفاتحون لعب دوراً خطيراً فى المبانى التى تركها الرومان ، وهؤلاء المخربون هم قبائل بنى هلال . إذ كان قدوم بنى هلال من مصر فى القرن الحادى عشر حادثا سيئا على كل البلاد التى تمتد على طول الشاطىء الشمالى . إذ لم يكونوا يعرفون سوى الخيمة. أما الأبنية الدائمة فلم يعرفوها، فكان أن نهبت هذه القبائل بطريقة منظمة كل المدن وخربت كل بناء فى طريقهم . فالمدن الكبرى والصغرى والقرى والقنوات والسدود والخزانات والكبارى، تهدمت أمام هذا القطيع الوحشى الذى كان أكثر من غزا هذه الأجزاء وحشية . والأرض التى كانت تعتمد على الزراعة انتهت زراعتها وتحولت إلى صحراء، حتى المساحات الكبيرة التى كانت تحتلها الغابات خربها الفاتحون وقطعانهم، وهكذا تغلبوا على مشكلة الماء .

وعلى عكس العرب الذين فتحوا البلاد فى القرنين السابع والثامن لم يعط بنو هلال البلاد شيئا فوقعت الأرض فريسة التدهور الذى لم تنتعش منه قط .

ويمكن أن نشرح بسهولة مسألة مجارى المياه الجافة فمعظمها حفر فى العصر الرابع قبل أن يبزغ التاريخ بوقت طويل فتمتعت البلاد بعصر غزير المطر ولذا مازال بعضها يجرى لمدة قصيرة خلال فصل المطر .

ومن المؤكد أن أختلاف المناخ ليس مسؤولا عن إنعدام الحياة فى الإقليم . فالحيوانات التى صورت بوضوح على الموزاييك الرومانى إذا عاشت اليوم فلن تقاسى إلا قليلا من الحياة فى معظم الإقليم ما لم تتعارض مصلحتها مع مصلحة الإنسان ، ولـكن ليست كل هذه الحيوانات موجودة حاليا أو كانت موجودة كما يظن الإنسان ، فالتيتل الذى رسم على موزاييك قصر بادو فى تونس هو نفس تيتل مراكش الذى كان يعيش بها حتى الحرب العالمية الثانية. وضمت أطلس الوسطى أسودا حتى سنة ١٩٢٢، كما عاشت الضباع فى مراكش وإذا كان النعام قد أختفى منذ وقت قريب فقط .

ولا شك أن وجود الفيل يعود إلى العصر المسيحى . وقد كان الإغريق يصطادونه بعد أن عرفوا فوائده خلال غزوات الاسكندر على الشرق، وقد علموها للقرطاجنيين ليلحقوا بالقطار . وهو نفس الحيوان الذى يكثر فى وسط إفريقيا فى الوقت الحاضر بعد أن غدا أصغر حجماً من جراء العزلة والبيئة، وهؤلاء الذين يعرفون الفيل جيداً فى إفريقيا المدارية حيث يعيش هناك فى ظروف مختلفة تدعو إلى الدهشة ، لن يجدوا صعوبة فى أن يقبلوا تأكيد علماء الطبيعة المتكرر بأن هناك أجزاءً من شمال إفريقيا يستطيع فيها الفيل أن يحيى اليـــوم . وربما كانت آخر مواطنها أطلس العليا .

والإنسان كالحيوان — قرين زيادة مصادره الحالية، فالجوع يؤدى إلى الاقطاع القبلى ثم إلى الحرب ثم إلى الحركات الجوعية للشعوب، كما حدث

أكثر من مرة فى تاريخ كل من أوربا وآسيا ولكن الضحايا الأولى للحرمان البشرى — قبل أن يدفع الجوع بالإنسان إلى شن الحرب على جيرانه — هى حيوانات الحقل. فإنها تصاد للحمها ولصيانة المحصولات التى تخربها، وأعظم ما يهدد حيوانات الغاب فى إفريقيا المدارية اليوم هو زيادة السكان التى يصحبها انتشار الزراعة والإلحاح فى طلب حيوانات المراعى . إذ لم يعد هناك مكان للانسان والغاب معا وعلى الأخير أن يختفى .

ففى خلال الخمس والعشرين سنة (١٩٢٩ — ١٩٥٤) صادت حكومة أوغندا أكثر من ست وعشرين ألف فيل وما زالت جادة فى اصطياد عدة مئات كل عام بسبب التخريب الذى تحدثه للمحصولات وللزراعة التى امتدت إلى مرابع الفيلة التى ترفض الحيوانات تركها . وكذلك جماعات الحمر الوحشية التى كانت لجيل واحد فقط تمرح فى سهول كينيا . قد نقص عددها إلى حد خطير، لأنه لم يعد هناك مراع كثيرة لها، إلى جانب حيوانات الزراعة . وكذلك الآجام التى أثارت دهشة من قدمها من البيض تسير فى نفس الإتجاه . ولابد أن يحدث ذلك فى شمال إفريقيا إذا زاد السكان — الذين كانوا يعتمدون أساساً على الرعى إلى حد أن ابتلعتهم الموجات المتوالية للغزاة والزيادة الطبيعية التى نتجت من إقامة حكومات منظمـة ، فلابد للحيوانات أن ترحل .

ولكن هناك سبباً رئيسياً لخراب الحياة الوحشية وهو الإلحاح فى طلب الرومان لهذه الحيوانات من أجل ملاهيهم . فالغرائز الإنسانية لا تحس حين تتلذذ بمنظر ما يجرى على المسرح خلال التمثيل . فالرومان خلال حكم دوميتيان Domitian لم يقنعوا بذبح اثنى عشر أو ما يقرب من ذلك من حيوانات الحلقة . بل منحهم القنصل والامبراطور ضحايا أخرى، ففى إحدى المناسبات أطلق قيصر فى الحلقة اربعمائة أسداً ليصارعها المصارعون. وفعل ذلك بومبى مع ستمائة .

وفى الستة والعشرين استعراضا التى أقامها أوغسطس ذبح ٣٥٠٠ حيوانا واحتفل تيطس Titus بارتقائه العرش بافتتاح الكولزيوم وبتقديم تسعة آلاف حيوان للمصارعين ليقتلوها أولتقتلهم ، وفى مناسبة دون ذلك بعد عدة سنوات قتل تراجان ٢٢٤٦ حيوانا فى يوم واحد .

هذه كانت مشاهد ظلت ذكراها خالدة بسبب ضخامة ما قتل،ولا شك أن هذه الحيوانات المقتولة لم تكن إلا نسبة ضئيلة من مجموع ماضحى به خلال قرن ونصف، هى المدة التى يغطيها التسجيل دون الإشارة إلى ما قتل منها قبل أو بعد هذه الفترة . وبعض هذه الحيوانات حمل من آسيا وبعضها من مصر ، ولكن معظمها جاء ولا شك ومن الولايات البربرية . وإذا عرفنا صعوبة الحصول على الحيوانات الخطرة دون الفتك بها وقليل فقط من هذه الحيوانات فرت بحياتها من الأيدى المدربة، أمكننا إذن أن ندرك أن تكاليف الألعاب الرومانية فى إفريقيا لابد أنها وصلت أرقاما خيالية .

ولابد أن الفيلة لم تكن لها قيمة كبيرة فى ألعاب الحلقة . لان بومبى حين قتل بعضا منها فى السيرك بواسطة جايتولى Gaetuli الذى استحضر خصيصا من افريقيا أخاف منظرها النظارة الرومانيين ، ولكن الفيلة لم تحاول الهرب من مصيرها . واشتد أهل روما فى طلب العاج بل كانت أكلة خرطوم الفيل — كما يذكر بلينى Pliny — من ألذ الأطباق عند الرومانيين .

ولا يترك لنا سترابو شكا فى أن التضارب بين مصالح الفلاحين والألعاب من ناحية، ثم الإلحاح فى طلب الحيوانات من أجل الحلقة من ناحية أخرى هما اللذان أديا إلى نقص الحياة الحيوانية إلى حد العدم .

فجميع المنطقة الممتده من عمود هرقل إلى قرطاجنة (كما كتب) كانت تعج بالحيوانات الوحشية بدرجة ليست دون درجة الداخل . ولم يكن مستحيلا فى أن اسم البدو أو الجوالين كان يطلق على بعض هؤلاء الناس

الذين لم يستطيعوا أن يكرسوا أنفسهم قديما للرعى على حساب الحيوانات الوحشية ، وفى الوقت الحاضر حين تدرب الجميع على الصيد وأصر الرومان على إحضارهم من أجل مشاهد قتال الوحوش أصبحوا سادة الوحوش وحيوانات الرعى .

وحينئذ نستطيع أن تقول أنه فى نهاية القرن الأول قبل الميلاد نقصت الألعاب إلى حد أن أصبحت الزراعة ممكنة وهى أمر لم يكن متاحا قبل ذلك ، ولكن التضحية بها ظل بعد ذلك لمدة طويلة .

والذى يدعو إلى الدهشة ليس أن كثيراً من الحيوانات المرسومة على الموزاميك لم يعد موجوداً وأصبح نادراً إلى حد أن أصبح بقاؤها موضع الشك، بل لم يعد ظاهراً لمدة طويلة قبل نهاية الإحتلال الرومانى . ومثلها المدن الميتة ومجارى الأنهار الجافة والحياة الحيوانية التى انعدمت لم تكن كلها نتيجة التغير المناخى .

ومن الخطأ أن نفترض أنه لم يكن هناك تغير فى الأحوال المناخية فانعدام الغابات قد يعود إلى بعض التعديل المحلى فى نزول المطر. كما كان هناك تغير طفيف لأسباب لا نعلمها .

يظن الأثريون أنه من الممكن أن تكون طرابلس (تريبوليتانا) أيام الرومان أكثر رطوبة مما هى الآن . فلنأخذ لنا مثالا آخر من مكان آخر خارج حقل دراستنا . فتسجيلات المطر التى سجلها بطليموس الجغرافى فى القرن الثانى الميلادى تبين أن مصر، رغم أن عدد الأيام المطيرة كانت هى نفسها فى الوقت الحاضر، فإنها كانت أفضل توزيعا، ولكن ما حدث لها من تغيير كان كبيراً، فالمطر كان أكثر غزارة . وبعض الكبارى الرومانية لم تمتد فوق الأنهار كما أن بعض الأنهار الضحلة لم تكن تعبر سيراً على الأقدام، وإذا قرأنا الوصف الذى كتبه مؤلفو الرومان للبلاد فانه من المستحيل أن

ندرك كيف أنها كانت مطابقة للأحوال المناخية الحالية ولكميات المطر . ولما كان الرومان يعتمدون تماما على قمح شمال إفريقيا (بل على قمح مصر أكثر ما يكون) فلابد أنه كان إقليما مخيفا بسبب مساحته الواسعة الجافة وكثرة حيواناته الوحشية. وقد جاء ذكرها كثيراً فى أدابهم . كما وصفها هوراس .

وقد أشارت الوثائق التاريخية كثيراً إلى كميات المطر . فعندما كان قيصر معسكراً بالقرب من هادرمنتوم Hadrumentum (سوس) كانت ندرة المطر مصدر قلق له كما كانت لبلزاريوس Belissrius بعد ذلك بستة قرون، كما أحب الإفريقيون هدريان Hedrian لأن المطر نزل للمرة الأولى يوم وصوله إلى إفريقيا بعد جفاف استمر خمس سنوات .

والتاريخ المناخى للصحراء أكثر أهمية لموضوعنا مما هو للرجل البربرى ، ولكن ليس لدينا ما نقوله عنه لأنه ليس فى طبيعة الصحراء الواسعة التى يصل الجزء الأكبر منها إلى أقصى ما يكون الجفاف أن تمدنا بالبرهان التاريخى عن مدى ثروة المغرب كما أطلق عليها العرب . فأحوال الصحراء تمنع من الإستقرار الدائم مما يجعل من الصعوبة إمكان وجود مخلفات من البناء، فالفقر فى وجود التاريخ المدون يعادل فقر التربة . ومن حسن الحظ أن ليس أحد منهما بعقيم تماماً .

وقد انتثرت فوق الصحراء بقايا كثيرة عن مواطن الاستقرار السكانى . كما انتثرت الهياكل الجافة للمجموعات النهرية وهذه البقايا تظهر بوضوح أن الصحراء مثل بلاد المغرب تمتعت يوماً بمعدل جيد من المطر ، ولكن فقط فى عصر بعيد جداً لا يعنى باحث التاريخ . كما أن الصحراء غنية بالرسوم على الصخر التى تبين — كتلك التى رسمها الرومان على الموزاييك — أن الإقليم كان غنياً بالحياة الحيوانية بالمقارنة إلى وسط إفريقيا فى الوقت

الحاضر ومنها الفيل وفرس النهر والتياتل المختلفة والحصان والماعز والعنز والماشية، فهذه الرسوم أيضا تصور عربات تجرها الخيول كما وصفها هيرودوت وربما كانت معاصرة للتاريخ المسجل للشمال . وهذا — مع العلاقة الوثيقة بين الحيوانات المقيمة اليوم وبين الحيوانات المصورة فى هذه الرسوم — يعطينا فكرة أن الصحراء ربما كانت أقل جفافاً أيام القرطاجنيين واحتلال الرومان للمغرب عما هى الآن .

فالحيوانات المقيمة فى الصحراء الحالية (وتضم أيضاً إقليم الساحل) كثيرة ومختلفة ، وأشهرها الأسد والزراف والأغنام البرية والقردة والغزلان بأنواعها الثلاثة ثم التيتل الذى هو أكثر الجميع انتشاراً فى كل أجزاءها . وكل هذه الحيوانات تعيش فى ظروف تحتم عليها تحمل العطش لعدة أشهر ، وغالبا ما تمتد المدة إلى عام وبعضها لا يشرب من المولد حتى الموت ، ولذا لا يدهشنا إذا عرفنا أن الحيوانات التى تستأنسها قبائل الصحراء وهى الغنم والماعز والحمير تظل فى حالة جيدة مع الإستغناء عن الماء بتاتاً ويستطيع الجمل تحمل نفس الحالة إذا لم يحمل أحمالا .

وقد يتأقلم الحيوان فى حالة وجود حالات غير ملائمة، ولكن التغير يحدث تدريجيا من سلالة إلى أخرى خلال مدة طويلة ، ولذا يبدو واضحا تأقلم بعض الحيوانات مثل جمال البجه الذين يقطنون سواحل البحر الأحمر فى مصر بالرغم من برد الوجه البحرى حتى سنة ١٨١٥ .

وقد تنزل الأمطار من حين لآخر فى الصحراء فى بعض أجزائها مثل إيرى وفزان . وتبستى تعانى من قسوة العواصف ، ولكن معظم أجزاء الصحراء جاف . وهناك بعض المستنقعات فى بعض مناطق ملائمة مثل مرتفعات انيدى Enned وأحجار Hoggar . حيث مازالت التماسيح موجودة فى هذه المستنقعات وغيرها، بل وفى بعض مجارى الأنهار التى تفيض

بالماء ولو نادراً توجد سمكة القطة . ولكنها مثل سمكة الخياشيم تستطيع استنشاق الهواء وتقاوم الإختناق لبضعة أشهر بل لسنة فى بعض الأوقات . فوجودها فى الصحراء ليس غريبا .

ورغم أن الحياة الحيوانية الوحشية فى الصحراء غنية بالرغم من بقائها منذ أوقات أكثر ملائمة ، فوجودها ليس دليلا على تغير المناخ فى الزمن التاريخى . وفى حالة عدم وجود دليل آخر يجب أن ندرك أن تأقلمها للأحوال الحاضرة حدث قبل فجر التاريخ .

وتوزيع الإنسان على وجه الأرض يظهر جليا بأنه أكثر تأقلما من الحيوانات البرية . وبالرغم من ذلك إذا حدث أن نضبت الحياة له ، لأسباب سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو جغرافية أو مناخية — فهو يفضل أن ينزع نفسه وينتقل إلى مكان جديد، فالحياة فى الصحراء تجعل مثل هذه المطالب غير العادية للتحمل البشرى — سواء كان التغير إلى خير أو شر — تنعكس سريعا على طريقة حياته بحيث لا يمكن تجنبها . ويحسن بنا إذن أن نضع فى اعتبارنا بعد ذلك أنه مهما كانت معرفتنا عن تاريخ قبائل الصحراء يسيرة ، فلابد أنها تعطينا دليلا على تغير المناخ .

فخارج المنطقة القطبية توجد أجزاء قليلة من العالم أقل تشجيعا للاحتلال البشرى عن الصحراء، ولكنها كانت مسكونة منذ أيام هيرودوت فصاعداً إلى أقصى ما تستطيع قدرتها ، وتتحكم فى سكانها الحياة القاسية التى تفرضها الصحراء، فالقبائل رعوية بدوية لأن المحافظة على حياة التنقل تجعل الموارد الصحراوية قليلة الماء كما تجعل الرعى يؤازر الحياة البشرية، فالهامش بين الشبع والجوع ضيق حساس إلى حد أن الحياة تصبح دائما قلقة ، والمستقبل غير أمين ، فهى تربى جنسا متماسكا قوياً مستعداً دائماً للدفاع حتى النفس الأخير عن آباره ومراعيه أو — إذا فشل فى ذلك — يقاتل فى عزم

يعادل عزم جيرانه . من أجل ضمان الحياة، أو على الأقل لجعلها محتملة يجب أن يحتفظوا بمواردهم الطبيعية الطفيفة بكل الوسائل الممكنة فهم ينقضون على القوافل التي تمر بمنطقتهم، ويقومون بهجرات موسمية إلى مناطق أكثر ملاءمة تحيط بالصحراء . وبدو الصحراء الغربية والسورية يتنقلون موسميا إلى وادى النيل والفرات مثلما فعل أولاد يعقوب . وكذلك تفعل القبائل البدوية التى تعيش فى شمال الصحراء حين تقضى أحر أشهر السنة ترعى قطعانها على هضبة أطلس العالية أو فى إقليم التل فى الجزائر وتونس ، وشبيه بذلك فى الجنوب، فالطوارق يسوقون قطعانهم إلى إقليم السفانا فى السودان الغربى أو إلى نيجيريا وسهول النيجر الأوسط الواسعة . فمثل هذه الهجرات الموسمية تقليدية ويقبلها نصف البدو وكذلك الشعوب المستقرة التى ينتقل إليها هؤلاء المهاجرون . وإذا ما انتهى الفصل الحـار عاد البدو بسلام إلى الصحراء .

وفى بعض الأحيان تعجز المراعى الصحراوية ، كما تجف الآبار وكهوف الماء ، وإذا حدث ذلك ينشأ خطر طرد الصحراء لسكانها فتمتد الهجرات الموسمية وراء حدودها التقليدية . سواء فى المساحة أو الزمن . وهذا طبعاً يتعارض مع مصالح القبائل المجاورة ، ويأتى الإضطراب عادة فى أعقابه فتنقلب الهجرات الموسمية إلى غارات، والغارات إلى إحتلال دائم على رأسه ملوك رعاة يحكمون الزراع . وشجاعة البدو وشدة مراسهم وسرعة تحركهم تجعلهم جيرانا خطرين . وسكان الأجزاء نصف الصحراوية التى تحف بهم لا يمـكنهم المقاومة حتى وإن استندوا إلى حكومة مركزية قوية، وقد يعجزون عن صـدهم بالطرق العادية للدفاع ، فمصريو الأسرة الثانية عشر اضطروا إلى بناء حائط امتد من هليوبوليس إلى القلزم لوقف هجمات البدو، كما بنى الأشوريون حائطا عبر الفرات لصد الميديين . وكذلك بنى الفرس حائطا لصد الهون . وسور الصين العظيم لم يكن إلا للدفاع ضد المغول .

وكل واحد من هذه الأعمال العظيمة أقيم لوضع حد لخطر غارات سكان الصحراء الدائم .

وقد أخرجت مناطق وسط آسيا (الاستبس) جماعات الرعاة البدو التى هزت فتوحاتهم العالم . ففقر الصحراء الشديد وضع حدا لسكانها إلى حد أنها لم توقف خلال العصر التاريخى غارات الفاتحين ، بالقياس إلى الآراميين والآفار والهون والعرب والترك . وهم الذين دفعتهم أراضى آسيا إلى القيام بها . فكثيراً ماقضوا على سلام جيرانهم، وثمة حادثة هامة فى تاريخ المغرب هى فتح المرابطين له. فمعظمهم من مواليد الصحراء وكان طوارق صنهاجه مغيرين تقليدين على تمبكتو ومنطقة النيجر الأوسط ، كما كان بنو هلال وبنو سليم المكيون والمدنيون ، وبالمثل أغار تييوتبستى على وادى النيل، وهكذا تعرضت كل الأجزاء المحيطة بالصحراء دائما لغزوات البدو .

ولا نستطيع أن نتبين دائما أن سبب هذه الغزوات هو الحاجة الاقتصادية أو الغريزة الموروثة أو مجرد الحب فى الغزو (كان المرابطون استثناء) ولكن العامل المتحكم هو المطر فى العادة ، فإذا حدث أن أتى موسم قل فيه نزول المطر إلى حد لايكفى للبدو وقطعانهم، تصبح العادة وراثية فى القبائل . وإذا توقفت المصادر الصحراوية عن أن تفى بمطالب الحياة بسبب النقص المتكرر فى المطر أو الزيادة المطردة فى عدد القطيع لم يعد أمامهم سوى الغزو . وحينئذ أصبحت القاعدة فى أنه فى حالة تغير المناخ منذ أيام الرومان أن أصبح تاريخ شمال إفريقيا واحداً من أكبر مسببات الاضطراب السياسى المتزايد وكذلك المزيد من سفك الدماء .

والسيطرة على قبائل الصحراء كانت دائما مشكلة شكلت عبئا مستمراً على موارد الرومان والتاريخ المسجل لمناطق جنوب السودان يغطى أكثر من ألف سنة ولكنه لايعطينا أى دليل على أن غزو الطوارق للمناطق الغنية فى غرب

السودان قد زاد على مدى الزمن بسبب العوامل الطبيعية ، فبالرغم من اتجاه الإنسان الطبيعى وقطعانه للتكاثر . فإن الصحراء لم تعد أقل قدرة على أن تفى بحاجة قبائلها فى الوقت الذى حطم فيه الأوربيون اقتصادها . فهذا هو البرهان الختامى على إنه لم يكن هناك تغير مادى نحو السوء .

وبالرغم من هذا فإننا نقرأ فى أدب الرحالة العرب أن زيادة الجفاف كانت أقوى من أن تتجاهله فكثرة الواحات للمسافر فى الصحراء قبل التقدم فى الصحراء المحيطة ، والاختفاء الكلى لأخرى تحت ظروف الضغط غير المتوقف، وجفاف الآبار، والتدهور المستمر فى طرق القوافل القديمة تبدو كلها دليلا على الجفاف المستمر الناتج من التغير المناخى . فما سجله هؤلاء الرحالة لا يغطى أكثر من قرن، وهى تنكر كثيراً من فضلهم فى اعتبار مثل هذا الاتجاه التدريجى تغيراً مناخياً . ولكن اتفاق إشاراتهم مع الاحتلال الأوربى لشمال غرب إفريقيا تجعلهم دلائل ذات قيمة على ما كان له من أثر اقتصادى وسياسى على الصحراء .

فمع مجىء حكومة مركزية قوية إلى الممالك التى تقع شمالى وجنوبى الصحراء أصبح الانتقال من الصحراء إلى المرتفعات الحسنة الرى ومناطق السفانا فى المغرب والسودان الغربى أكثر صعوبة، إذ قوبل المغيرون بمقاومة لم يألفوها من قبل . وأصبح تموين الصحراء لروادها أقل سهولة وأغلق إلى حد صمام الأمان على حياة الصحراء، وكانت النتيجة أن ازداد القلق السياسى. وأغار الأقوياء على الضعفاء من أجل الاستيلاء على آبارهم ومواطن الماء والمراعى والقطعان. وأصبحت الحياة مخاطرة لزراع الواحات الذين لم يشعروا بالأمان مطلقا على حياتهم وحاصلاتهم من جراء الجوع والمغيرين — وهبط إنتاج الواحات كما هبطت موارد الصحراء وتقهقرت بشكل واضح فكانت سببا فى ازدياد أسباب القلق العام . وأثر سحق غارات تجار

الرقيق فى السودان الغربى على الواحات ، ومازال هذا الأثر كبيرا، فعلى نحو جميع البدو الرعاة ، احترفت قبائل الواحات بعض الزراعة وأوكلتها إلى رقيقهم. وكان للعرب رقيقهم من الحاراتين. وللطوارق رقيقهم من البوزو أو البلا ، وكان الإثنان من زنوج السودان . وعلى طول الطريق من النيل حتى المحيط الأطلنطى أصبحت غارات قبائل الغابات البدائية التى تسكن أقصى الجنوب، عادة تحدث فى وقت الجفاف التقليدى هجوم الشعوب الإسلامية التى تسكن إقاليم السفانا حيث يبيعون ما فاض من رقيقهم إلى الصحراء . وإذا ما أقيم الحكمان الإنجليزى والفرنسى بين الصحراء وساحل غانه توقفت غارات الرقيق ولم يعد العرب والطوارق بقادرين على شراء رقيقهم لزراعة واحاتهم. ولما لم يكونوا متعودين على الزراعة بأنفسهم، انكمشت الأرض الزراعية وزحفت عليها الصحراء، وبذلك أصبحت الحياة أكثر صعوبة، والواحات كالآبار تجف وتموت وتتوقف الزراعة فيها، فكانت النتيجة أن فقدها الإنسان. وافتتاح طرق التجارة من السودان إلى البحر . وشق الطرق عبر الغابات ، وبناء السكك الحديدية ، نقل التجارة البرية القديمة المعتمدة على الحمل من البطء وارتفاع التكاليف والخطورة إلى السرعة والرخص والأمان ، واستيراد الملح من أوروبا قتل تجارة الصحراء التى كانت أثمن منها . والقضاء على تجارة الرقيق حرم طرق القوافل من أثمن موادها .وتوقفت المحافظة على آبار الطرق إذ لم تعد هناك قوافل تستعملها . وفى وجه ازدياد عدم الأمان العام جفت الآبار ومواطن الماء الأخرى ولم يهتم أحد بإيجاد بديل لها. وكانت هذه علامات الانحلال التى أثرت على المسافرين فى الصحراء فدفعت بهم إلى أن يشهدوا عواقب تغير المناخ . وأصبح الإنسان مسئولا عن هذا التقهقر الذى شهدوه ، ويعود الفضل إلى الفرنسين فى أن أصبح الإنسان — بعد ما بدا من صراع ميؤوس منه ضد الطبيعة — قادرا بل ناجحا فى التحكم فيه .

فى الصحراء كما فى المغرب وكذلك فى السودان ، تظهر هناك دورات مناخية، فترات من زيادة الجفاف تتبعها أخرى من زيادة الرطوبة وربما كان هناك فقد واضح للرطوبة . ولكنه أمر يسير لايميزه المؤرخون . والمؤلفون القدامى كلهم يصورون صورة سوداء لما كانت عليه الصحراء فى أيامهم (ليبيا كانت مليئة بالحيوانات الوحشية) فقد ذكر هيرودوت أن (وراء منطقة الحيوانات الوحشية توجد منطقة من الرمال نادرة الماء بل هى صحراء تامة) ومما ذكره بليني (بعد ذلك بخمسمائة سنة) — (أنها صحراء تركت للرمل والثعابين) وفى عصر من العصور لم تكن الرحلة إلى الصحراء إلا مخاطرة . فالى ما قبل عصر هيرودوت كان من المحتمل أن يفنى جيش كامل ، وهكذا كان مصير حملة قمبيز التى أرسلت لهدم معبد أمون فى سيوه الحالية إذ هبت عليها ريح قوية مميتة من الجنوب حاملة معها أعمدة متوالية من الرمل الناعم غطت الجنود تماما وأدت إلى إختفائهم وعلى هذه الصورة — استناداً إلى الأموتيين — فنى الجيش الفارسى .

(٢)

الياقـــوت والذهب

كتب هيرودوت أن الجارامانتس كانت لهم عربات تجرها أربعة جياد، وبها يصطادون التروجلوديت السود الذين هم - من بين شعوب الأرض التي وصلت قصصهم إلى أذاننا - اسرعهم قدما . ولغتهم تشبه نعيق الوطاويط وليس هناك من شك مطلقا حول حقيقة الجارامانتس الذين هم شعب فزان، وعاش الاعتقاد أن التروجلوديت هم التيبو الذى يعيشون فى تيستى مدة طويلة وكلامهم ينطبق عليه وصف هيرودوت .

ولكن قصة هذه العربات ذات الأربعة خيول التى كانت تستعمل فى قلب الصحراء تبدو حتى الوقت الحاضر غير محتملة. ومع ذلك فرسوم العربات ذات الحصانين والثلاثة، المرسومة على الصخور التى اكتشفت فى بعض الأوقات وأخيراً فى وادى زجرا فى قلب إقليم جارامانتس — غير واضح ، ولـكن لا تخطئه العين لعربة ذات أربعة خيول[1] وهذا إلى جانب رسوم الآلهة ذات الرءوس الحيوانية التى وصفها هيرودوت وعبارته التى تدعو إلى الدهشة من أن الرحلة إلى جارامانتس استغرقت ثلاثين يوماً من إقليم لوتوفاجى Lotophagi كما أطلق على الإقليم الساحلى الذى يقع بين سرتس الصغرى وسرتس الكبرى ، كل هذا يبين بوضوح أن كثيراً من المعلومات عن داخل الصحراء كانت معروفة فى تلك الأيام، بل كان هناك اتصال بين شعوب الساحل والداخل ولكن فى هذه

---

(١) إن الاكتشافات الحديثة لـكثير من رسوم العربات ذات الخيول فى أقصى الغرب من الصحراء يدل على أن هذه العربات كانت فى وقت من الأوقات كثيرة الاستعمال فى الصحراء (مونى . مجلة المعهد الفرنسى لإفريقيا السوداء . العـدد التاسع لسنة ١٩٤٧ ص ٣٤١ ـ ٥٧)

الأيام لم يكن الجمل قد عرف بعد فكيف سافروا فى الصحراء ؟ وكيف كان هذا السفر ممكنا ؟ ربما كان هناك قليل من الشك فى أن نجـــد الإجابة فى استعمال الثور .

كان استعمال الثور شائعا جنوبى الصحراء فى غرب السودان . ومازال يستعمل فى الصحراء فى إقليمي فزان وايرى . فقد وجدت رسوم متكررة للإنسان راكبا الثور أو لهذا الثور يجر العربات،فمنذ قرن تقريبا عثرناختيجال Nachtigal فى تبستى على رسوم الماشية عليها سروج، وفى السنين الأخيرة عثر على جملة رسوم مماثلة فى إقليم أحجار Hoggar . وكلها تعود إلى تاريخ مبكر. وعند التيبو قصص تقول أنهم كانوا يستعملون الثور قبـــل أن يصل إليهم الجمل .

لم تعد الثيران تستعمل خارج الواحات الكبرى . فليس من السهل أن نقرر قدرتها على السفر بدون الماء بالمقارنة إلى الجمل ويخبرنا ف . رود (الأنلورد رنل Rennell) أن الثيران المحملة تستطيع السير فى راحة بالماء فقط مرحلة ثلاثة أيام، كما يقول أيضا إنه يبدو أننا لا نستطيع تصديق أن الماشية غير المحملة تستطيع السفر بدون الماء أربعة أو خمسة أيام . والتحريات الحالية للكاتب تقوده إلى أن يصدق أن الماشية تستطيع أن تفعل أكثر من ذلك . فقد أخبره أحد الرعاة فى شمال تنجانيقا أنه فى قمة الفصل الحار لم يكن يسقى ماشيته أكثر من مرة كل خمسة أيام ، ولم يكن يبدو عليها مايدل على أنها تقاسى صعوبة ما . وفى خلال الحرب الأخيرة لم يجد الضابط البيطرى الذى كان يسوق الماشية بانتظام من الصومال إلى ممباسا من أجل ذبحها أيه صعوبة فى منع ماشيته من الشرب خلال ثمانية أيام متوالية . وهى لم تكن تحمل أثقالا . ولكن كان مطلوبا منها أن تسير مسافة أكبر دون الاحتياج إلى الماء وإذا كانت الحرارة نهاراً أقل مما كانت فى الصحراء لم تـــكن

هناك الليالى الباردة التى تشجع على العمل . ويبدو أنه من المعقول أن نظن أن الحيوان قادر على تحمل العطش لثمانيـة أيام فى الإقليم الساحلى الحار فى شرقى إفريقيا وربما يستطيع التعود على أن يفعل ذلك فى الصحراء . وربما كان تمرسه على أن يفعل ذلك وهو محمل موضع الشك . وماشية الصومال التى تعودت لسلالات عديدة نقل الأثقال فى طرق التجارة الصحراوية قد تستطيع ذلك .

والجمل فى العادة لا يتحمل العطش أكثر من عشرة أيام فليس هناك إذن من فرق فى هذه الحالة بين الجمل والثور فقدرة كليهما على الحمل واحدة . وفى السودان الغربى يستطيع الثور أن يسير عشرين ميلا فى اليوم وهى أقل قليلا من قدرة الجمل . ولو أن الثور يسير أبطأ . فهو لذلك يستغرق وقتاً أطول لينتقل من بئر إلى بئر مما يضع حداً لقدرته على السفر وطبعاً لم تكن تربية جمل الركوب — حتى مجىء المهر — من أجل سرعته حتى اكتسبت القبائل العربية الحركة المدهشة .

وليس هناك من سبب لنظن أن حركة النقل فى الصحراء أصبحت ممكنة بوصول الجمل . فاذا كانت الآبار وفجوات الماء أكثر قليلا مما هى الآن فإن السفر بالثور على طرق القوافل الكثيرة كان أكثر صعوبة مما هى بالجمل .

وربما استعمل الحمار مع الثور لأن الأول — كما رأينا — يملك قدرة فائقة على السفر بدون الماء . كما يستطيع أن يحمل نصف حمولة الثور وأن يقطع عدة أميال فى اليوم الواحد وقد استعمل فراعنة الأسرة العشرين الحمار لحمل الذهب من مناجم الصحراء الشرقية فسكان جبال أحجار Hoggar الذين لم يعرفوا الجمل من نوعى الاسبتان أو الجوحالة Iseletan or Djohala مازالوا يستعملون الحمار .

وفى أيام هيرودوت لم يكن طابع الحياة العام فى الصحراء يختلف كثيراً عما

هو فى الوقت الحاضر . فمن أجل الحياة كانت القبائل تخضع لنفس الحاجة إلى استعمال نفس المصادر الصحراوية العجفاء إلى أقصى طاقة ممكنة، كما كانت الهجرات الموسمية من الصحراء إلى التلال والهضاب الشمالية طابع الحياة العادى فى الصحراء . ولم يكن هناك بالطبع (حاجز صحى) يمنع البدو عن القبائل المستقرة . فالاتصال بين الصحراء والمدن كان مستمراً . وهذا الاتصال بالطبع يعنى التجارة وربما كانت مواد التجارة لا تزيد عن البلح والحبوب . ولكن يحتمل أنها شملت أشياء أخرى . ولابد أن تبادل الأفكار صحب تبادل التجارة ولكن أكثر من ذلك تبادل المعلومات الجغرافيـة . فمن الشمال جاءت قصص البحر الواسع والقوم الغرباء والسفن التى كانت تبحر منها، ومن الجنوب أتت أخبار الواحات النامية فى قلب الصحراء، وأكثر من ذلك أخبار الأرض الخصبة المزدحمة بالسكان التى تقع وراء الصحراء فلم يكن هناك إذن من شىء غريب فى معرفة هيرودوت بجارامانتس .

وعلى مدى عصور التاريخ كانت التجارة أهم دافع للكشف الجغرافى، فحتى الوقت الحاضر يندر الكشف لأجل الكشف ، ولكن الرغبة فى البحث عن مصدر المنتجات الثمينة والغريبة والبحث عن مصادر الثروة والإلتفاف وراء الوسيط من أجل خفض ثمن الشراء شىء طبيعى فى الإنسان . فالإنسـان لا يستطيع أن يفترض أن سكان شمال إفريقيا كانوا أكثر حرية من غيرهم فى التلهف على الناس إلى حد أن اتصالهم بالبدو لم يوقظ الرغبة فى البحث عن الواحات المزدهرة فحسب، بل أيقظ أيضا الرغبة فى الوصول إلى السهول الخصبة التى تقع فى أقصى الجنوب .

وقد سمع هيرودوت عن مثل هذه المحاولة من بعض أهالى سيرين . سمع عن خمسة من الشبـان الوحشيين الذين كانوا أبنـاء لزعيم من ناسامونيا Nesamonian من سيرتس الكبرى ، خرجوا لكشف أجزاء من صحراء

ليبيا بغرض التوغل فيها أكثر ممن سبقوهم . فحملوا معهم كميات كبيرة من الماء والمؤونة وقطعوا الصحراء في إتجاه غربي . وبعد أن ساروا أياما كثيرة في الرمال وصلوا سهلا به أشجار محملة بالفاكهة . وبينما هم يجمعونها فوجئوا ببعض الزنوج القصار يتكلمون بلغة لايدركونها وقبضوا عليهم . وحملوهم مسافات كبيرة عبر مستنقعات واسعة حتى وصلوا مدينة يتكلم سكانها نفس لغة هؤلاء الذين أسروهم . وكان في المدينة نهر يفيض بالماء تسبح فيه التماسيح يجرى من الغرب إلى الشرق . وأخيراً عاد هؤلاء المخاطرون الشبان آمنين إلى مدينتهم، وظن هيرودوت كما ظن الملك الأمونى Amonian أن النهر الذى اكتشفوه هو النيل . ولكن يحتمل أن يكون النيجر .

وكان الفينيقيون أيضاً تجاراً مخاطرين وكانوا محترفين إلى حد أنهم لم يدهشهم شيء عن داخل إفريقيا ولكنهم كانوا بحريين إلى حد أنهم يخاطرون هناك بأنفسهم. (وكانوا كالبحارة البرتغاليين الأولين في الهند الذين شبههم أهلها بالأسماك لأنهم يهلكون إذا تركوا البحر) وكان هذا أقل صدقا عن أقربائهم القرطاجنيين الذين أسسوا أولا سيادتهم على المهاجر الفينيقية في شمال إفريقيا، ثم تقدموا وطوروها إلى مستعمرات للوطن الأم . حتى إذا كان القرن الخامس قبل الميلاد أصبحت قرطاجنة أماً تدين بانتعاشها إلى خصوبة ظهيرها وإلى حد كبير إلى الأرض التي يملكونها ملكا مباشراً .

وإلى الشرق والغرب على طول الساحل — وخلف عمود هرقل أسست قرطاجنة لها مستعمرات كان أغلبها فينيقيا . ولكن حيث قنع الفينيقيون بمستعمرات صغيرة مع قدر صغير من الإدارة، خرج منهم مبعوثون يؤمنون بمصالحهم التجارية ، وكانت المستعمرات القرطاجنية مواطن دائمة لكثير من مواطنيهم ، وكل منها تتاجر لحسابها معتمدة على نفسها إلى حد كبير . وخلال الألف سنة التي احتلوا فيها المنطقة الساحلية كانت المصالح القرطاجنية

فى أغلب الأحوال تجارية بحتة ، وامتدت حتى شملت كل الجزء الغربى من البحر المتوسط الذى تسودته قرطاجنة وكذلك ما خلف البوغاز . ولابد أن وجودهم اعتمد إلى حد كبير على إفريقيا . على فواكه أرضها من أجل حياتهم . وإلى حد أقل على المنتجات الخفيفة الحمل لتجارتهم . وعلى ذلك كانت علاقتهم بشعوب منطقتهم وثيقة على عكس أسلافهم الفينيقيين . فربطتهم بهم مصالحهم المشتركة وإلى حد دائم النمو علاقات المصاهرة ، فكان نمو المستعمرات واعتماد كل منها على ما يحيط بها من الأرض تشجعه العزلة. وإلى انحدارهم من صلب الفينيقيين يعود فضل احتفاظ القرطاجنيين بالصفة البحرية . واحتلالهم للشاطىء لم يكن متصلا من الوجهة الجغرافية إذ لم يكونوا يريدون من الأرض أكثر مما كان ضرورياً لتجارتهم ووجودهم ، ولذا كانت مستعمراتهم لا تزيد عن كونها نقطاً متفرقة تفصلها عن بعضها مسافات قاحلة من الشاطىء لم يكن لهم بها حاجة أو منفعة.

وقرطاجنة نفسها كانت مدينة أكبر من أن تكون مجرد مركز يكفى احتياجهم. لأنها كانت تعتمد إلى حد كبير من أجل مؤونتها والدفاع عن نفسها على ما يسمى حالياً بتونس ودانت لها كثير من القبائل البربرية بالسيادة وبالرغم من أن حدود الحكم القرطاجنى فيما وراء المدينة لم يكن معروفا إلا أنه لابد أن يكون متسعا ، لأن الإفريقيين كونوا جزءاً كبيراً من الجيوش الضخمة التى ملكتها قرطاجنة ، وكثرة من تخلى عنهم هاملكار فى سراكوز من فرقه الإفريقية ليذبحهم أو يسترقهم الإغريق تعطينا فكرة عن وفرة الفرسان النوميديين فى جيش هانيبال . فالحاجة السياسية والإقتصادية هى التى أرغمت القرطاجنيين على توسيع ما حول امبراطوريتهم فى إفريقيا ، فشاطئها الطويل الغنى فى الموانى جعلها قاعدة ممتازة ، استطاعوا منها أن يؤسسوا لهم تجارة بحرية واسعة ويحافظوا عليها . فقرطاجنة نفسها

مثل المهاجر البونية الأخرى — جمعت بين ميزة ميناء الدرجة الأولى وميزة الموقع الذى يحسن الدفاع عنه، ولكنها أضافت إلى ذلك أيضا المركز المتوسط الذى يتحكم فى المضايق والبحر المتوسط الذى هو أعظم طريق تجارى فى العالم . فهذا الجمع لهذه الظروف جعلها العاصمة الممتازة لمثل هذه الإمبراطورية .

فموقع قرطاجنة الاستراتيجى البالغ القوة، وكذلك موقع مدينة قادز المدينة الثانية فى الإمبراطورية خلف المضيق مكن القرطاجنيين — الذين لم يكونوا متسامحين بالمرة مع الدخلاء — من أن يمنعوا أى تدخل من الغرباء فى تجارتهم. فقد استبعد الرومان بمقتضى معاهدة من كل الأراضى التى أسس فيها القرطاجنيون مراكزهم التجارية . وكذلك أهل صقلية وسردينيا وجنوب أسبانيا أغلقت فى وجوههم . فلم تكن أية سفينة رومانية ترغم على اللجوء إلى أية ميناء بونية تمكث أكثر مما تضطرها ظروف الإصلاح أو المناخ، وكان اجتياز المضايق ممنوعا لئلا يعلم الغرباء أن القرطاجنين كانوا يحصلون على الصفيح أو الصلب من كورنول Cornwall أو بريتانى Brittany ويروى سترابو كيف أن قائد إحدى سفن قادز كان يتجه إلى بحر المانش، حين وجد نفسه متبوعا بإحدى السفن الرومانية فدخل بسفينته إلى الأرض وحشر السفينة وما تحمله من بضاعة، ولكن بعد أن جر السفينة الرومانية معه . وكان شاطىء شمال إفريقيا غرب سيرانيكا مغلقا كذلك أمام الأجانب . فقد أرغم الإغريق فى القرن السادس على أن يتخلوا عن مهجر أقاموه على الشاطىء فيما بين سيرتس الكبرى والصغرى . وبعد قرن منعوا بمقتضى معاهدة من أن يتجهوا إلى غرب مذبح فيلايني Altars of the Philaeni فهذا الطرد الجاف لكل من الإغريق والرومان من كل المنطقة غربى سرتس الكبرى ينعكس على ندرة المعلومات التى أعطاها المؤلفون القدماء عن تجارة القرطاجنيين الإفريقية وما ينتج عن ذلك من جهلنا لطبيعتها وامتدادها .

وقد صنعت قرطاجنة مصنوعات رخيصة للتصدير، ولكن تجارتها وكذلك مستعمراتها التابعة لها كانت من نوع الوساطة أى حمل البضاعة من دولة أجنبية إلى أخرى. وتبادل المواد الخام لدولة ما بمواد مصنوعة لدولة أخرى. فالقرطاجنيون لم يكونوا معتمدين على إفريقيا نفسها من أجل تموين تجارتهم. حقا كانت القبائل البربرية الساحلية بدائية وبلادهم فقيرة إلى حد أن لا تجعل المغرب مشتركا فى التجارة البونية الواسعة، فالصوف والجلود والخشب والصبغة والعاج وريش النعام كانت أهم المنتجات المحلية التى وجدت طريقها إلى الموانى الأجنبية وإن كانت على غير نطاق هام. فلكمياتها المعتدلة لم تستطع التجارة الإفريقية الخالصة أن تكفى لتكون تجارة القرطاجنين الواسعة العظيمة الانتشار.

نجح القرطاجنيون إلى حد بعيد فى إخفاء سر تجارتهم، حتى أننا لا ندعى الدخول إلى دخائل ظروفها. فكل ما نعرفه على وجه التأكيد، إنهم حصلوا على الياقوت من جاراما نتس، وأن هذا الياقوت كان يعرف فى أوروربا بأنه حجر القرطاجنيين، وبالرغم من أن بلينى كتب كثيراً عن الياقوت الإفريقى ويؤكد أهمية قرطاجنة كمورد هام له، فهو أو أى كاتب آخر لم يشر إلى مدى أهمية هذه التجارة بل من الواضح أنه بعد سقوط قرطاجنة وجد الرومان هذه التجارة تستحق منهم متابعة الجهد.

وعلى ذلك أصبح — على مدى التاريخ — أسهل مدخل يقود من البحر المتوسط إلى الجنوب يقع فى منتصف الطريق بين سيرتس الكبرى وسيرتس الصغرى فقد أطلق القدماء على هذا الساحل القفر الممتد شرقا وغربا من مدينة طرابلس الحالية اسم إمبوريا Emporia بالرغم من أنه كان لهيرودوت أرض لوتوفاجى Lotophagi فعلى طوله فى فترات قصيرة كانت هناك ثلاث مراكز تجارية قرطاجنية هامة هى سبرته sabrethe وإيا Oea

(طرابلس) ولبسيس، وهذه الأخيرة كانت أقرب المراكز إلى الموارد الطبيعية لهذا الجزء من الساحل وظهيرها المباشر يبرر ذلك، ولما لم يكن هناك من أسباب سياسية أو حربية خاصة لمثل هذا الإزدحام فى هذه النقطة، فالنتيجة تجرنا إلى الإعتقاد انها تؤدى إلى المدخل الجاهز الذى تهيئه للولوج إلى الداخل، فاذا صبحت القصة التى يرويها اثنايوس Atheoaus عن قرطاجنى يدعى ماجو Mago من أنه عبر الصحراء ثلاث مرات فلابد أن هذا هو الطريق الذى اتبعه .

وكانت طرابلس تحمل اسم بوابة الصحراء وظلت تعتبر كذلك حتى القرن التاسع عشر حين اختارتها مجموعة من المستكشفين العظام خاصة ليون، دنهام، أودنى وكلابرتون والفيربارث كقاعدة بدأوا منها رحلاتهم نحو قلب القارة، وإلى طرابلس أيضا — قادما من بحيرة تشاد مخترقا طريق جارامنتس سار الجنرال لكلير Leclerc على رأس فرقته عام ١٩٤٣، وشيء آخر يشير إلى أهمية هذا الساحل للقرطاجنيين هو أنهم حددوا مذبح فيلايني حداً غربيا أخيراً للأملاك الإغريقية وكانت جيدة جداً إلى حد أن فكر الإغريق فى استعمال طريق جارامانتس إلى فزان.

وإذا لم يكن الياقوت وحده — وماذا غيره أعطى طريق جارامانتس أهميته ؟ فأى تجربة أخرى قد ساعدت على إقامة إمبوريا Emporia ؟ لأجل أن نجيب على ذلك يجب أن ننظر إلى الاستعمالات التى من أجلها استعمل الطريق فى الأيام الأخيرة . عندما رفع الحجاب عن سرية التجارة . فحتى القرن الأخير كان هناك الرقيق والذهب والعاج وريش النعام بمثابة دم الحياة لتجارة البحر المتوسط مع فزان، وفى أيام قرطاجنة كان هناك كثير من الفيلة والنعام فى شمال إفريقيا ولم يكن هناك من حاجة للسفر إلى الجنوب للحصول على العاج والريش وهذه هى نفس الإجابة بشأن الذهب والرقيق .

وقد استخدم القرطاجنيون عدداً هائلا من الرقيق لا سيما فى زراعة المزارع التى ملكوها فى ظهير العاصمة، ونجح الزراع الماهرون فى جعل زراعاتهم ناجحة . وتاجروا أيضا فى الرقيق وكان لسكان البليار سوق خاصة ثمينة ، لأن أهل الجزر كانوا يبيعون كل ثلاث رجال بامرأة تروق للقرطاجنين . وهؤلاء الذين خدموا فى الجيش القرطاجنى تعودوا أن يستثمروا أجرهم فى النساء والخمر . وإلى أى حد استخدم القرطاجنيون الرقيق الأسود مازال موضع شك ، فالمقابر البونية حوت كثيراً من الجماجم لأجناس سوداء وكان هناك بعض الإفريقيين من ذوى البشرة السوداء الغامقة ربما الزنوج بين أفراد الجيش القرطاجنى الذى غزا صقلية فى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد . ويخبرنا فونتينوس Fontinus أنهم استعرضوا أمام الإغريق من أجل إذلال القرطاجنيين. ومن ناحية أخرى ، فإنه لما كانت عادة القرطاجنيين استعباد أسرى الحرب كضحايا القرصنتهم، أصبح هناك مصدران مثمرين إلى حد أنهم لم يعودوا يعتمدون على عمل الرقيق الإفريقى — ولذا ترددوا كثيراً من استعباد البربر حين أرادوا لانهم كانوا أغبياء لا يعملون ما يطلب منهم فى الزراعة . ودليل الدم الزنجى ظاهر . ويبدو أنه من المحتمل أن يكونوا قد استوردوا الرقيق من فزان . كما كان هناك مصدر آخر لأن الجاراما نتس لم يحاولوا اصطياد التروجلوديت السود إلا من أجل استرقاقهم ، فتجارة الرقيق مع فزان ربما كانت مهمة هى الأخرى للقرطاجنين ولكن ليس هناك من أساس للتخمين فى ذلك، ففى القصة المضطربة التى لا تستند على وثائق لشمال إفريقيا كان يوجد خيط من الذهب يسير عبر الصحراء بين ممالك الشمال وممالك الجنوب . فمن وادى النيل فى الشرق إلى المحيط الاطلنطى فى الغرب كانت هناك حركة تجرى فى الذهب مع داخل أفريقيا خلال جميع عصور التاريخ المدون : رقيق وذهب . وذهب ورقيق كانت بمثابة دم الحياة لتجارة المغرب مع السودان.

وكان الذهب يفيض إلى الشمال عن طريقين طريق جاراماتنس من فزان إلى طرابلس ، وطريق تغازة Taghaza من النيجر إلى سجلماسة فى مراكش . الأول فى الشرق والآخر فى الغرب، وكان الفيضان ثابتين وكانت هناك مناسبات أمسك فيها العالم بشعاعات رقيقة من الذهب فى كميات نمت بوضوح عن الثروة الخرافية المخبؤة فى الداخل . ففى القرن الرابع عشر قدم منساموسى من داخل الصحراء ليثير دهشة مصر والعالم العربى بما حملة معه من الذهب، وبعد ذلك بقرنين ونصف أثرى مغاربة مراكش بالذهب من جراء غزوهم لممالك النيجر الأوسط إلى حدان تصارعت القوى المسيحية مع الاتراك من أجل سيادتهم على هذا الجزء ، فالمكان الذى كان يرد منه الذهب مشـكلة حاول المسلمون والمسيحيون حلها دون توقف . كما كان مشكلة بعثت الروح فى أعظم حركة كشفية فى العالم . ولكن حرص المشتغلون فى هذه التجارة على أخفائه إلى حد أن الأمر لم ينكشف إلا فى العصور الحديثة جدا .

وفى أمام هيرودوت كان هناك اثيوبيون يعيشون على مجرى النيل من بعيد، وكانوا أغنياء كما يذكر لنا إلى حد أنهم كانوا يربطون أسراهم فى قيود من ذهب، وقد حمل إغريق العصر الهوميرى سفنهم حمولة كاملة من ذهب مصر. وإلى أقصى الغرب أيضاً كانت هناك تجارة فى الذهب مع الإفريقيين على الشاطىء الاطلنطى . ولم يذكر هيرودوت ولا أى مؤرخ آخر شيئاً عن تجارة الذهب بين هذين القطبين الشرقى والغربى . فتجارة الذهب عبر الصحراء لم تكن قد ولدت بعد وإذا كان القرطاجنيون لم يذكروا لأحد شيئاً عنها فليس هناك من شىء مؤكد عنها .

ويحدثنا ثوكيديس Thucydides أن القرطاجنيين كانو أغنياء فى الذهب، وقد تأكد هذا إلى حد ما بكمية مقدار الذهب الذى وجد فى المقابر البونية . إذ أدهش بلينى أن الغرامة التى فرضها الرومان على قرطاجنة دفعت بالفضة

بدلا من الذهب لا بسبب ندرة الذهب فى قرطاجنة ولكن فى العالم . وقد احتفل بأنتصار سيبيو باستعراض بديع للذهب الذى كان كله بونيا . ولكن ليس هناك من دليل على أن القرطاجنيين تاجروا فى الذهب فى البحر المتوسط. فالقول بأن أساس الظن بأن تجارة الذهب كانت السبب للاهمية التى ربطتهم بالطريق الجارامانتى خاطىء إلى حد كبير. وبالرغم من ذلك ظن ستيفان جزل Stephane Gzell أنه يمكن أن تكون . وعلى كل حال من الصعب أن تقبل أراءه فى أن الذهب الذى حمله القرطاجنيون من فزان أتوا به من حقوله البعيدة عند أعالى النيجر فقد كان هناك — كما سنرى فى الفصول القادمة مصادر أخرى محتملة له ومنها فزان .

وقد يكون الذهب والرقيق إذن تفسيرا محتملا لاهتمام البونيين بطريق جاراما نتس ولكن أسس إدخال الذهب أضعف ولا تزال أضعف إذا أخذنا فى حسابنا أن ثروة القرطاجنيين فى الذهب لا تظهر أكثر مما تحمل لهم حملة من غرب أفريقيا حيث يظن أنهم جصلوا عليه بأية كمية وبأية وسيلة فى هذا الشأن . وفى رواية عن شعوب الساحل الغربى الإفريقى يذكر لنا هيرودوت أنه على بعيد من الساحل — كما يذكر القرطاجنيون — (تقع جزيرة تسمى سيرونس Cyraunis بها بحيرة تخرج منها شابات القرية تبر الذهب بأن يغرسن فى طينها ريش الطيور مغموسان بالقطران ولا أدرى ما إذا كان ذلك صحيحاً أم لا ولكنى أكتب ما يقال) .

ويروى القرطاجنيون أيضا أنه توجد منطقة فى ليبيا ، وشعب وراء عمود هرقل اعتادوا أن يزوروه، وما أن يصلوا إليها حتى يفكوا أحمالهم. ويرتبوها بطريقة خاصة على طول الساحل، ويتركوها ويعودوا إلى سفنهم حيث يرفعون دخاناً كثيراً وحين يرى الأهالى الدخان ينزلون إلى الشاطىء ، ويضعون مقابل ما ترك الأولون ذهبا يعتقدون أنه يعادل ما تركوه من بضائع . ثم ينسحبون

بعيداً . ثم يعود القرطاجنيون وينظرون، فإذا رأوا أن ماترك من الذهب يكفى ثمنا لبضاعتهم أخذوه وانصرفوا فى طريقهم، ولكن إذا لم يكن كافيا يعودون إلى سفنهم مرة أخرى وينتظرون صابرين ، فيقترب أهل الجزيرة ويضيفون إلى ما تركوه من الذهب مقداراً آخر حتى يرضى القرطاجنيون . ولا يظلم أحدهما الآخر لأنهم لايمسون الذهب حتى يرتفع إلى مقدار يعادل تجارتهم ، كما أن الأهالى لايحملون البضاعة حتى يروا الذهب قد أخذ .

وهنا يجدر أن نسأل كيف يكون الحال إذا كان القرطاجنيون حريصين على سر تجارتهم فى الشرق . فكيف يسمحون بأن يعرف ما كانوا يعملونه فى الغرب ؟ والجواب على ذلك أن الظروف السياسية والجغرافية جعلت السرية غير ممكنة . ففى زمن هيرودوت ربما يكون القرطاجنيون قد أحتلوا قادز ولكنهم لم يتسودوا أقصى جنوب شبه الجزيرة الايبيرية تماما وعلى ذلك لم يكن بأمكانهم أن يتحكموا فى المضايق ، وحين استطاعوا ذلك لم يكونوا قادرين على أن يخفوا عن أوروبا ما كان يجرى فى نقطة تقترب فيها أفريقيا من أوروبا إلى هذا الحد حيث لم تكن الحركة تجرى فى سلام بعد بين القارتين. وكما يذكر لنا سترابو بأن شعب أسبانيا الفقير كان يعمل فى صيد السمك فى قواربهم الصغيرة حول ساحل موروسيا Maurusia على نهر ليكسوس Lixus فبقية إمبراطوريتهم الإفريقية إذن تطل على بحر لا يتحكمون فيه . وهناك — كما يقول سترابو — أعتادوا أن يلقوا إلى البحر بأى غريب مر بسفينة على بلادهم يقصد سردينيا أو البوغاز .

والآن هانحن نصل إلى حقيقة تاريخية صلبة ولكن ترجمتها لسوء الحظ سوف تعود بنا رأساً إلى البحار الخطرة التى يجرى فيها الاتصال والتقابل . فحين هزم الرومانيون قرطاجنة دمروا أهم سجل تاريخى ، وهو كتابة بونية كانت فى معبد خرونوس Chronos تخلد ذكرى الحملة القرطاجنية المشهورة

على غرب إفريقيا تحت قيادة هانو Hanno ، ولحسن الحظ كان الإغريق والرومان قد نقلوها فعاشت ولكن بصورة شديدة الاضطراب . ومسألة الكشف عما سمى بمخاطر هانو عن طريق حقائق جغرافية جامدة، قد استنفذت جهود دارسين دؤوبين كثيرين . وإن لم يصل اثنان منهم إلى نتيجة واحدة ثابتة ، وبالجملة فإن الرحلة لم تؤثر شيئاً . ولحسن الحظ فى متناقضات لاتنتهى فانه يكفى ملخص مقبول مبسط للقصة .

ولسنا فى احتياج لأن نشغل أنفسنا بتاريخ غير معروف وإن كان من المحتمل أن يكون فى القرن الخامس قبل الميلاد. فقد أرسلت دولة قرطاجنة حملة لتؤسس لها مستعمرات على الشاطىء الافريقى خلف اعمدة هرقل ، ويقال أنها كانت مكونة من ستين سفينة تحمل مالا يقل عن ثلاثين ألف رجل وامرأة . (أغلب الظن أن أحد الرقمين خطأ وربما الاثنان) أما لماذا أوكل أمر هذه الحملة إلى أحد حاكمى الدولة فهذا أقل أجزاء القصة غرابة ، وبعد رحلة دامت يومين خلف المضيق . أسسوا أول مستعمرة هى تيمياتيريوم Thymiaterium التى قابلت المهدية عند مصب وادى سيبو وبعيداً إلى الغرب أتوا إلى منطقة غابية تسمى سولويسيس Soloesis وهى إما أن تكون رأس كانتين Cantin أو رأس غير Gbir ، وبنوا عليها معبداً لبوزيدون Poseidon واستمروا أيضاً فى رحلتهم تجاه الساحل وأسسوا خمس مستعمرات أخرى واكتشفوا نهر ليكسوس Lixus حيث تصادقوا مع أهل الإقليم من الرعاة (Lixitae) .

وإذا ما حصلوا على مترجمين من الليكسيين (أهل ليكسوس) ، تابع القرطاجنيون رحلتهم جنوبا موازين للشاطىء الصحراوى ، حتى وصلوا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة اطلقوا عليها اسم سيرن Cerne ، حيث أسسوا مستعمرة أخرى ، ويظن أن سيرن هذه هى هيرن Herne وقد تكون أرجوين.

ووصلوا بعد ذلك إلى نهر، أطلقوا عليه اسم كريتس Chretes كان يعج بالتماسيح وأفراس النهر ويظن أنه السنغال وعادوا بعد ذلك إلى سيرن، وتابعوا الرحلة جنوباً بجانب الشاطئ أيضاً ووجدوا شعباً لم يفهم لغته مترجمو ليكسوس، واجتازوا خليجاً ربما يكون مصب نهر جمبيا، ثم رأساً ربما يكون عند شاطئ سيراليونى، وأخيراً وصلوا أرضاً مغطاة بألسنة اللهب تخرج منها تيارات نارية تصب فى البحر، وفوق الرءوس كانت تدور نار أخرى أشد من الأولى حتى خيل لهم إنها تمس السحاب فأطلقوا عليها اسم مركب الآلهة، وربما تكون هذه هى جبال كامرون التى رأوها خلال ثورانها وكان حظهم حسناً إن كانوا بعيدين نخافوا أن يقربوها .

ولثلاثة أيام أبحروا خلال مسالك بين النار حتى وصلوا خليجاً أطلقوا عليه اسم القرن الجنوبى . وربما كان نهر الجابون . وهناك اكتشفوا جزيرة ملأى بالمتوحشين أغلبهم من النساء . ولهم جلود غزيرة الشعر وأطلق عليهم المترجمون اسم الجوريلا ولم تنجح جهود القرطاجنيين فى القبض على بعض الرجال ولكنهم قبضوا على ثلاث نساء ظللن يخمشن آسريهم ويعضضنهم حتى اضطر أفراد الحملة إلى قتلهن ، ولكنهم احتفظوا بجلودهن إلى أن وصلوا بها إلى قرطاجنة فعلقوها فى معبد تانيت Tanit ، وسواء كان هؤلاء الضحايا من الأقزام أو القرود فانهم كانوا موضع مناقشة ، وإن لم تكن هذه المسألة بهامة، ومهما تساهلنا فصدقنا القصة فإنه من المحتمل أن يكونوا أقزاما ، وهى نتيجة يؤيدها بلينى وكانت قلة المؤن هى التى حالت دون استمرار الرحلة وعاد هانو إلى قرطاجنة .

ويظن معظم الناقدين أن الحصول على الذهب كان هدف هانو من الاستمرار فى رحلته فيما وراء المستعمرات التى تقع على ساحل موريتانيا . وهو مجرد ظن نبع من قول هيرودوت أن القرطاجنيين كانوا يتاجرون هناك

فى الذهب وربما كان ذلك صحيحا ، ويبدو التعارض أساسا حول مسألة ماذا إذا كان نهر كريتس Chretes الذى عاد منه هانو إلى سيرن Cerne هو السنغال أو أى نهر آخر يقع شماله . فاذا كان الذهب هو الهدف كما يحتمل كثيراً — فأغلب الظن أن يكون نهر كريتس هو السنغال الذى يأتى رأسا من أغنى مناطق الذهب فى غرب إفريقيا . حيث كانت التجارة الصامتة فى الذهب أمراً تقليديا حتى العصور الحديثة ،والتى منها أرسل الذهب شمالا عبر الصحراء خلال قرون كثيرة . وأدى السنغال حقيقة إلى منطقة وانجارا نصف الأسطورية والتى كان اكتشافها أهم الأهداف التى أصر عليها المستكشفون المسلمون والمسيحيون ، ولكن قصة وانجارا العجيبة يجب أن تنتظر . فان عدم قدرة مترجمى لكسوس على فهم اللغات المحلية حتى بعد أن اجتازوا كريتس يشير إلى السنغال أيضا . فى قرون متأخرة جذبت تجارة الذهب أنظار تجار هذا النهر الطبيعى من الشمال وربما فعلت ذلك فى وقت هانو، وعانى مترجمو لكسوس بعض المعاناة فى التحدث مع مثل هؤلاء التجار أو مع الأهالى الذين سيطروا على أساس لغتهم ، ولكن إلى الجنوب والشرق من السنغال تقع منطقة أقل اختناقا وهى كما نعرف جيداً لم يكن لها أى اتصال بالشمال . وحيث لم يستطع رجال من المغرب مثل الليكسيين أن يجعلوا أنفسهم مفهومين .

ورجال البحر البرتغاليون الذين أرسلهم الأمير هنرى الملاح والذين كانوا أول من استكشف هذه الأنحاء من الأوربيين لم يكن غرضهم الحقيقى — كما أدعوا — نشر الإنجيل بل أن يكتشفوا مصادر الذهب الذى كان يستورد إلى مراكش براً عن طريق تغازة وهو أكثر طرق الصحراء تطرفا نحو الغرب.وحاول الأمير هنرى أن يتجنب الصحراء — ونحن نعرف من سترابو أن المغاربة كانوا يملكون ذهبا . وإنهم حصلوا عليه بواسطة المسالك

البرية . ولذا كان الهدف الحقيقى من رحلة هانو يتفق مع أهداف الأمير هنرى . ومن ناحية أخرى ربما كان هدف الرحلة أن يدوروا حول القارة كما فعل الفينيقيون أيام الملك نخاو Necho (٦٠٩ — ٥٨٨ ق. م) وهى بلا شك شجعت مستكشفين آخرين .

والاهتمام والمعارضة اللذان أثارتهما رحلة هانو وسرمدى اختراق القرطاجنين لإفريقيا من ساحل سيرتس،قاد بعض العقول الباحثة إلى أن تشتم الأثر البونى على طول ساحل غانة . وهناك إتجاه إلى أن يرجعوا إليها شيئاً من الثقافة المحلية التى لم تكن كلها وطنية، أو تعود بأثرها إلى التأثير الأوروبى الحديث . مثل برونز بنين المشهور ، وتماثيل إيفى الصخرية . وبعض صناعات اليوروبا . ومازالت ثقافة كثير من قبائل غرب إفريقيا تقدم حقلا عذريا للبحث، ومن الحكمة أن ننتظر قبل أن نرسم النتيجة . فإذا ماكتب رجل ثقة مشهور مثل جوتيير Ef. Gautier (أن نيجيريا هى هى لأنها كانت — كما يقال — مستعمرة من مستعمرات البحر المتوسط . التى هى كما فى علمنا قرطاجنة) .

وقد يسمح لنا أن نرفع حواجبنا دهشة . فمن غير المحتمل أن جنسا غير خلاق كالقرطاجنين حرفته الرئيسية الاتجار فى المواد الرخيصة التى هى تقليد لمصنوعات إغريقية ومصرية أصيلة يستطيع أن يؤثر فى فنون وحرف غرب إفريقيا إذا كانت لديه الفرصة التى أتاحتها لهم الإقامة المستديمة . فليس لدينا من دليل أن مثل هذه الفرصة قد اتيحت لهم .

ونحن ندين لجوتيير باقتراح آخر لا بد أن له هدفاً فيه . فقد حاول أن يحقق سر خرز الساحل الغربى الثمين والنادر الوجود الآن بأنه العقيده القرطاجنية، فهناك اختلاف فى الرأى حول حقيقة هذا الخرز . بسبب أنه كان يقلد كثيراً خلال عصور كثيرة بواسطة صناع الزجاج من البنادقة . ويبدو

أنه صنع من الخلقدونى وهو اسم مشتق من الكلمة الإغريقية لقرطاجنة . ففى الأيام القديمة كما رأينا . عرف الياقوت باسم الحجر القرطاجنى . ومن هنا جاءت حجة جوتيير . أن خرز أجرى Aggrey كان خلقدونيا . وأن خلقدونى هى الحجر القرطاجنى . وأن الحجر القرطاجنى هو الياقوت الذى كان يؤتى به من جارامانتس وأن حجر أجرى هو نفس الشىء . والحجة ليست صعبة الرفض ونقطة ضعفها أن الظروف كلها تقف ضدها .

وبالرغم من أن حجر أجرى — كما يظن جوتيير — يرتبط الأن بساحل غانة فهو واضح من كثرة ما عثر عليه فى مقابر الصحراء كثيرة الإنتشار فى وقت من الأوقات فى شمال إفريقيا . وظن جوتيير — متتبعاً الحجة التى أشرنا إليها — أن هذا الخرز كان يصنع ويوزع بواسطة القرطاجنيين يبدو فوق الاحتمال . لماذا لم يكن الجارامانتس هم الذين يصنعونه ؟ فلشعب قادر على أن يصنع مركبة ذات أربعة خيول يبدو أن عمل الخرز من خلقدون لعبة أطفال، وربما كان هناك أخرون بجانب القرطاجنيين اشتروا حجر الخلقدون من الجارامانتس ليصنعوه خرزاً[1] إذ كانت هناك صناعة خرز قديمة فى بيدا Bida فى نيجيريا والتى حصلت على الصخور من كانو . ولكن استناداً إلى الأساطير المتداولة ، فإن الحجر تأصل فى مصر أو فى جبال أطلس واحد

---

(١) بالرغم من أن خلقدونى لم تكن قد دونت فى فزان فإنه وجد فى كل الجزائر وصحراء ليبيا (خطاب من المستر وايزمان أمين قسم التاريخ الطبيعى فى المتحف البريطانى إلى المؤلف) فمن المحتمل إذن أن الجارامانتس كانوا قادرين على أن يحصلوا عليه من أرضهم (بليى (جـ ٥) وأكثر من ذلك — كما رأينا — يشير إلى جبل كرى فى بلدهم حيث كانت تستخرج أحجار ثمينة .

الاحتمالين ممكن[١] والاخر غير محتمل بتاتا وربمـا كان المصدر هو فزان أرض الجارامانتس .

ولكن ذات يوم تحول الياقوت بعد ذلك إلى أن يصبح خرز أجرى . كما أصبح برهان جونيير صحيحاً ، فإذا حدث هذا فاننا نـكون أقرب كثيراً لأن نعرف لمـاذا تجمع القرطاجنيون قريباً جـداً من رأس طريق جارامانتس .

---

(١) والمواد الخام التى تحصل عليها حالياً من كانو بواسطة صناع الخرز فى بيدا وجدا أنها قطع من الكارنيلان المصنوع . ويحتمل أنه اتى بها من كامباى (خطاب من المستر أركل إلى المؤلف) .

(٣)

الرومان وجار امانتس

إمتزج ارتفاع شأن روما عند قضائها على قرطاجنة بالفشل والاضطراب، فالأخطاء التي صحبت انتصارهم كانت غير متوقعة، فإن ما أزعجهم هو اضطرارهم إلى إدارة بلاد تسكنها قبائل بربرية محبة للحرب . ولذا كان احتياجهم إلى الإختلال الحربي لإفريقيا أمراً لا مفر منه . لأن هذه الوسيلة كانت الوحيدة التي يؤمنون بها أنفسهم من نهضة جديدة لقرطاجنة، تغذيها وتقويها القبائل المجاورة فالخبرات الطويلة التي اكتسبها الرومان من إدارة البلاد المفتوحة ، علمتهم أن خطأ واحداً قد يقود إلى أخر. وأن تأسيس حد لابد أن يعقبه حد أخر أبعد منه من أجل حماية الأول ، ولذا صمموا على أن يكرسوا أنفسهم لإحتلال منطقة صغيرة حول قرطاجنة أي إقليم إفريقيا[1] ويتركون حكم بقية الإقليم للحكام الوطنيين .

وكانت هذه السياسة ناجحة اسميا ولكنها فعليا تأسست على إمكان نزع الحسد والنزعات من الليبين الأقوياء ، وهو السلاح الطويل الذي وصلت به خطتها حتى إلى السياسة الداخلية لروما ، فبعد انتصار قيصر على جوبا في ثابسس Thapsus في سنة ٤٦ ق . م . استولى على نوميديا ، وعند موت بطليموس بن جوبا الثاني في سنة ٤٠ ق. م. خضعت لهم موريتانيا. وفي أيام الأباطرة خضع كل الساحل الشمالي من ليسيس Lepcis حتى المحيط الأطلنطي للحكم الروماني .

---

(١) من هنا عرف اسم القارة فإن مقاطعة تونس ظلت طويلا تعرف باسم مملكة إفريقيا . وهكذا سميت في المعاهدة التي عقدها الباي حسين باشا مع الفرنسيين في سنة ١٨٣٠ .

ولم تمض مدة طويلة حتى أتت ظروف مشابهة لتلك التى اضطرت هذا الاحتلال الساحلى إلى الاتساع لأن يتعمق ، وحملت معها التبين الكامل لاسوأ المخاوف التى ترددت عند سقوط قرطاجنة . فمادام احتلالهم محدوداً بشريط ساحلى كان للرومان أن يتعاملوا فقط مع قبائل مرتبطة تماما بالأرض أسهل فى حكمهم عن البدو الرعاة . فالهضبة خلف الحزام الساحلى والتى تمتد داخليا إلى سلسلة متصلة من الجبال ومناطق جبال أروس وجيبل Gebel فى طرابلس كانت آنئذ كما هى الأن موطنا لقبائل نصف بدوية مثل الناسامونس Nasamones فى الشرق والمورى فى الغرب Mauri وهم صانعو قلاقل لابد من احتلال بلادهم، فكان طبيعيا أن تمتد منطقة الدفاع الرومانية إلى سفوح التلال التى بدت أنها تكون خطوطا دفاعية طبيعية مدهشة ، وربما كانت كذلك وقتئذ ، إلى حد أن أصبحت دليلا للرومان على أنه لايوجد حدود واضحة لممتلكاتهم ، فقد دخل فى سلطتهم مرتفعات جافة ولكن معشوشية كالهضبة العليا فى الغرب ومنطقة التل فى الوسط ومنطقة جيفارة Gefara فى أقصى الشرق . وكلها كانت مراعى طبيعية لقبائل صحراوية مازالت على الفطرة . ففى فصل الصيف الجاف حين لا يكون هناك ما يرعى فى الصحراء . كانت هذه المراعى ضرورية من أجل الإبقاء على القطعان والجماعات التى اعتمدت عليها قبائل الصحراء من أجل الحياة . فهذه الهجرات وإن كانت هجرات موسمية إلا أنها لم تفـد كذلك فاستعملوها فى الحصول على حقوق طويلة الأجل وقبلت على أنها ظاهرة طبيعية لحياة القبائل كما تمارسها، بل قبلها الرومان كمظهر عادى من مظاهر حياة قبليه تعيشها القبائل نصف البدوية وكذلك القبائل المستقرة فى المرتفعات . ولكن الصحراء تعطى غرائز وراثية وترغم الإنسان على أن يعيش بصفة مستمرة على أساس الحرب فأصبح بدوى الصحراء إذن يملك الحيل والقوة للاعتداء على جيرانه وكثيراً ما كان يقتل . وفى أيام الرومان لم يكن بدو الصحراء قد عرفوا الجمل الذى أعطاهم فى

عصور متأخرة سرعة الحركة وجعلهم جيراناً مزعجين ، ففى نظر الرومان كانت هذه الهجمات السنوية من قبائل لم تصقلها المدنية بعد والذين لم يعرفوا لهم سيداً غير زعمائهم،غيرمستحبة ولامقبوله . فإنها شكلتمشكلة اقتصادية أكثر منها سياسية فاتت عليهم . فكان عليهم أن يعرفوا أن بدو الصحراء سوف يدافعون حتى الرمق الأخير عن حقوق الرعى التقليدية . سواء فى الصحراء أو المرتفعات ولذا حاول الرومان تقليل أن لم يكن وقف الزحف السنوى نحو الشمال من الصحراء نحو أملاكهم، ونتيجة لذلك طردوا قبائل الصحراء الشمالية فأصبحت الصحراء ملجأ لكل ثائر على الدولة الرومانية .

وفى الأيام الأولى للإحتلال وجد الزعيم جوجورتا النوميدى Jugurtha نفسه محصورا فشق طريقه— كما يذكرلنا سالوست Sallust —عبر صحروات واسعة إلى جايتولى Gaetuli وهى قبيلة وحشية غير متمدينة ألف من بينهم جيشاً ويروى تاسيتس Tacitus كيف أنه بعدقرن ونصف آثار تاسفاريناس Tacfarinas بنجاح فى ظروف مشابهة أهل جاراماننس من أجل طلب المساعدة (وسوف نعود إلى هذا الموضوع فيما بعد) .

ولما وجدوا أنه من المستحيل أن يحولوا دون أختراق البدو للحدود ، أو دون انضمامهم إلى القبائل الثائرة، حاول الرومان أن يكسروا من حدتهم وقوتهم للشر بمحاصرة الواحات الشمالية وامتدت سلسلة المراكز الخارجية الجديدة نحو الغرب منخليج قابس عبر توزير Tozeur ونفتا Nefta ونجرين Negrin وبسكرا Biskra جنوبى بوسعده Bou Saada ، ومن هناك نحو الشمال الغربى على طول سهل هدنة Hodna وسيطر كل مركز على طريق أوأكثر يخرج من الصحراء إلى المرتفعات. فحرست بسكرا الضواحى حتى

آخدود القنطرة الكبير[1] وعسكرت فيها قوة من صحراء آسيا من جنود تدمر وهى فرق اشتهرت بإجادتها حرب الصحراء ففضلت لهذا المركز المفتاح. وفى طرابلس Tripoliania وقعت المواقع الرومانية إلى الخارج، إلى ضواحى جيبل. وفى القرن الثالث أصبحت هذه الجبهة الجديدة من سيرتس حتى موريتانيا جزءا من منطقة الدفاع (وهو أمر لا يمكن تجنبه) وبذلك أصبحت من جديد المصيدة المتقدمة نحو الصحراء، وعلى طولها جابه الرومان أمر أعدائهم وأقدرهم، وفى أقصى الغرب فى موريتانيا كان البدو بعيدين جغرافيا وسياسيا. ولم يكن هناك من موقع آخر تستطيع القوات الرومانية فيه أن تريح أعصابها وتركزت فرقة أوجستان الثالثة Argustan الشهيرة عند لمبيسس وأوكل إليها أمر هذا الدفاع، وأصبح كل أفرادها إفريقيين، وعلى شاطىء سيرتس فى منطقة المدن الثلاث وهى منطقة أمبوريا وهى لبيسس الكبرى وأويا وسبراتا — التى اشتقت منها منطقة طرابلس اسمها — على اتصال مباشر بالصحراء وهو شىء ليس جديدا.

ولما كان جل اهتمامهم موجها إلى احتلال إفريقيا لم يضيع الرومان وقتا فى مباشرة تجارة القرطاجنيين مع جاراماتس وهم شعب مشاكس، كما يجب على الرومان أن يعرفوا، ولم تهن قوتهم بمرور الزمن. فى القرن الأول بعد الميلاد سماهم تاسيتس Tacitus الشعب الذى لا يقهر، وكانت فازانيا Phazania أو فزان مواطنهم وهى مجموعة من الواحات فى قلب الصحراء وعاصمتهم جاراما Garama وهى جرمه Cerma الحالية، ولكنا نسمع عنهم أيضاً أنهم كانوا

---

(١) كان الرومان قديماً قانعين بالسيطرة على الرأس الشمالى للأخدود من ناحية لمبيسس Lambaesis . مركز قيادة الفرقة الثالثة أوجستا Aaugusta التى اطلقوا عليها اسم عنان القبائل الصحراوية ولكنها سرعان مابرهنت عن أنه لاشىء . ولذا كان لهم أن يضعوا حامية عند بدء الأخدود فى بسكرة .

قريبين من ساحل سيرتس وإلى الجنوب الشرقي امتدت منطقتهم حتى النيل [1] وفي كتابات هيرودوت يبدون كشعب مستقر يشتغلون بالزراعة [2] والتجارة. أما لوسيان فيعتبرهم بدوا يسكنون خياما ويهاجرون موسميا إلى أقصى الجنوب من أجل أن يهاجموا تروجلوديتس في طلب الرقيق كما قال هيرودوت. وهذا دليل على أنهم مدينين بمركزهم الدائم في شرق الصحراء الوسطى إلى القـــوة العددية وإلى المنطقة الواسعة في حالة تسمح لهم في بعض الاحيان كما في فزان — بالحياة المستقرة وفي بعض الأحيان — كما في الصحراء — يفضلون فزان عن الساحل ويحيون الحياة البدوية وكثيراً ما أزعجوا القبائل التي تسكن المدن والقرى الأخرى التي كانت بدوية ورعوية. وقد احترمهم الرومان كتجار ولكنهم عرفوا أنهم كثيراً ما أثاروا الإضطراب في طرابلس

وليس من السهل تصنيف الجارامانتس بين الأجناس البشرية، ولكن يظن أنهم زنوج فهم خفيفو السواد عراة، وكما يصفهم بليني بأنهم يعيشون في عشق دائم مع زوجاتهم وهو نوع من العادة التي لا يستطيع المتمدينون ممارستها ويستعملون العربة ذات الخيول، وعبادتهم الحيوانات ذات رءوس الآلهة — وهي شيء معاصر لعصر الرسوم على الصخور، يدل على أنهم يدينون ببعض ثقافتهم لمصر ولـكن هذا شيء لايزال غامضاً في ضباب القدم.

---

(١) القرعان شعب بدوى مختلط من التيبو وسلالة الزنوج ويبدو أنهم الممثلون الحديثون لجارامانتس وهم يحتلون الصحراء شمالى دارفور ووادای وهى المنطقة التى كانت منطقة الجارامانتس، ومن المعروف أن صحراء بيوضة شمال الخرطوم كانت تعرف باسم صحراء القرعان حتى القرن السابع عشر وقد عرفها بهـذا الاسم ليو الافريقى (كروان ل . ب المسيحية والقرعان . مجلة الآثار المصرية العدد ٢٠ سنة ١٩٣٤ ص ٢٠١ — ٣).

(٢) قال هيرودوت أنهم يغطون الملح بقوالب الطين ثم يبذرون بذورهم وفى القرن التاسع عشر وصف (ايون ج . ف) فزان وتـكلم عن الحدائق البيضاء بالملح (رحلات ص ٢٠٦).



شكل ٢ أفريقيا الرومانية

ولا شك أن استمرار تجارتهم مع امبوريا كان موضع الترحيب من أهل جارامانتس، ولكن كثرة تغير الحكام الغرباء على ساحل سيرتس كان أمراً عدائيا على وجه التأكيد. وتأليف قوة مأجورة ليس لها مصالح غير التجارة كما أعطى مكانا لقوة حربية جبارة توكل إليها سلطات إدارية وكان هذا أمراً من الأهمية بمكان، والقبائل الساحلية التى قبلت سيادة جارامانتس القوية خضعت الآن لأسياد غرباء. فاذا لم توضع حدود لهجرات الجارامنتس الموسمية التقليدية وقطعانهم من الصحراء إلى المرتفعات ، فإنهم سيظلون يعانون ويعتمدون على الخضوع لإرادة القوة المحتلة ، ورعونة الحكم الرومانى كانت ولا شك مصدراً مستمراً للشكوى، مما يدعو سكان الساحل الخاضعين إلى طلب الحماية من جيرانهم الأقوياء سكان الصحراء ، والقرطاجنيون الذين اشتغلوا بالتجارة لم يعرفهم مطلقا أهـــل جارامانتس منافسين لهم فى الوقت الذى بدا فيه الرومانيون فى سرعة أنهم ليسوا منافسين فحسب بل القوة الوحيدة، ولذا بدا للجارامانتس الذين لم يجرؤ أحد مطلقا على تهديد مركزهم فى الصحراء الشرقية أن تغير الحكام شىء لا يحتمل، ولذا سرعان ما بدا أن انفجاراً بين الرومان وجارامانتس سوف يحدث ، وإن كان غير مؤكد، ولكن عند نهاية القرن الأول قبل الميلاد شعر الرومان بأنفسهم مدفوعين إلى أن يقوموا بما بدا لهم أنه حملة ذات خطورة على فزان. إذ تدخلوا لسحق ثورة جايتولى Gaetuly الذى ربما يكون قد طلب معونة جارامانتس، وسواء كان هذا هو السبب المباشر أم لا فانه لم يكن هناك من دافع لهذه الحملة إلا إذا كان الرومان قد أحسوا بتهديد للسلطة الرومانية .

وقاد الحملة البروقنصل لوسيوس كورنليوس بالبوس Lucius Cornelius Balbus وهو مواطن أسبانى، وفاجأت الحملة أهل جارامانتس وأخضعت فزان بنجاح. إذ استولت على عدة مدن منها العاصمة جاراما Garama (جرمه الحالية) والواحة الخارجية جيدامس Gydamus (غدامس الحالية) . التى كانت

تقع فى حدود جاراما نتس ،ومن بين الأماكن التى ذكرها بلينى جبل جيرى Gyri (حيث كانت تستخرج أحجـار ثمينـة) وهو مكان لم نستطع تبينه حتى الا ن .

ومن الممكن أن يكون سبب الحملة هو سحق جارامانتس وجعلها لا تقوم بأى تهديدللسيادةالرومانية،ومن ناحية أخرى ربما تكون مجرد حملة تأديبية،وعلى الفرض الأول فانها فشلت لأن الحرب مع البدو الرحل لا تنجح بالإستيلاء على البلد ، وإجابتهم فى العادة على مثل هذه القوة الجبارة هى حرب العصابات على المدى الواسع والجيش لا يحطمهم إلا كما تحطم اللكمة الوسادة .

وبالرغم من ذلك فقد هلل لها الرومان باعتبارها نجاحاً . إذ لم يقم الرومان قبل ذلك بحرب فى قلب الصحراء ، فإلى جانب المصاعب الصحراوية الكبيرة المعتادة أضيفت مشكلة السير لمـدة ثلاثين يوما فى أرض لا ماء فيها قبل أن يلتقوا بالأعداء الذين كانوا يتحصنون فى أماكنهم فى فزان ، هـذا إلى أن العدو كان يكوّن أكبر قوة فى الداخل المعروف لروما. وأنعم على بالبوس بشارة الشرف فكان أول أجنبي يلقى تكريماً . واكتشف أخيراً أنه بالرغم من الصحراء فإنه يمـكن الوصول إلى فزان عن طريق الساحل . الأمر الذى كان صدمة كبيرة لجارامانتس، كما كان التخريب الذى تركه بالبوس وراءه تحذيراً لهم بأن قوة الرومان الحربية ليست أمراً هيناً . وكان هذا الدرس ذا أثر فى منع تدخل جارامانتس المباشر فى سياسة الجزء الشمالى بل شجعهم على مساعدة جيرانهم المعادين لروما فنجدهم قد نصروا قضية سكان سيرانيكا Cyrenaica من المـارمايد[1] ولكنهم هزموا أمام نائب قنصـل المقاطعة بيليوس سلبسيوس كيرينيوس Publius Sulpicius Quirinus — وفى سنة ١٧ بعد الميلاد قامت ثورة يقودها ضابط ليبي

---

(١) عرف هذا الجزء أيام الحـكم الرومانى باسم مرمريـكا .

هو تاسفاريناس Tacfarinas وكان مدربا على الطريقة الرومانية وانتشر من سوتس حتى المحيط الأطلنطى وهددت الإحتلال الرومانى جديا حتى لقد استحضرت الفرقة الأسبانية التاسعة لتبذل المساعدة للفرقة الثالثة أوجستا Augusta وهدد تاسفاريتاس الحكام الأجانب سبع سنوات أرغم خلالها على اللجوء على الصحراء مرتين .

وفى المناسبة الثانية — إن لم تكن أيضا الأولى — منحته جاراما نتس اللجوء رغم جهود الرومان المرتكزة فى لبسيس لمنعه من الوصول إليهم — وفى هذا الوقت العصيب قرر تيريوس فجأة سحب الفرقة التاسعة Hispana من إفريقيا . فسبب هذا اهتماماً عميقاً لنائب القنصل كرنيلوس دولابلا CornelsusDolabella لما بدا له من أن الحرب التى لا نهاية لها ضدتا سفاريناس قد وصلت إلى مرحلة حرجة استلزمت الاستفادة من كل رجل تحت يده . ولاشك أن تاسفاريناس قد تجرأ من جديد من جراء هذا الإنسحاب المفاجىء الذى رأى فيه علامة إنهيار قوة روما وجر جارامانتس إلى هذا الاعتقاد فضمن مساعدتهم بالرغم من أنها ربما لا تكون على القدر الذى كان يبتغيه ، إذ أنهم كانوا لا يزالون واقعين تحت تأثير الهزيمة أمام كيرينيوس فكانوا حذرين وغير راغبين فى أن يورطوا أنفسهم كثيراً ، ويروى تاسينوس أن تاسفاريناس أشرك معه ملك جارامانتس فى غاراته ، ولكن ليس بصفة منتظمة بل بإمدادات من فرق خفيفة . وبينما كان دولابلا لا يزال مع تاسفاريناس فى حقل المعركة دون أن يكون معهما فرق يمكن الإستغناء عنها للحملة التأديبية التى تبعت تدخل الجارامانتس فى ظروف أخرى فكان لا بد لها أن يتركا شعوب الصحراء الوحشيين يذهبون دون أن ينزلا بهم عقابا وعندما قتل تاسفاريناس فى المعركة وتحررت فرق الرومان أخذت جيوش جاراما نتس حذرها وفكرت أن تقابل الكرة التى خافوا أن تنتظرهم . فى

نهاية المعركة أخذ دولابلا معه — كما يذكر لنا تاسيتس — رسلا من الجاراما نتس ليكونوا مشهداً نادراً فى روما فأرسلت الأمة — وهى فى رهبة حزنها على تحطم تاسفارتياس — ليسألوا العفو من الشعب الرومانى .

وربما رحب بالرسل فى روما لأن الرومانيين قد أيقنوا أنه لم يعد هناك ما يخافونه من الجارامانتس واتخذت منهم عذراً لها فى أن تجهز حملة جديدة بالغة التكاليف تسيرها إلى فزان وقد نجح بالبوس — كما عرفوا — لا بسبب سوى أنه أخذ الجارامانتس على غرة . أما الأخيرون فقد أصبحوا جد حذرين من يعود ذلك فلجأوا — كإجراء دفاعى — إلى الوسيلة الدفاعية المعتادة والأكثر تأثيراً ضد غزو الصحراء . إذ كان مستحيلا — كما يذكر بلينى — أن يفتحوا الطريق إلى إقليم جارامانتس لأن فرقاً منهم ملأت الآبار بالرمال .

ولم يكن الجارامانتس بطيئين ليتبينوا أنهم مدينين فى هربهم من العقاب من أجل المساعدة التى بذلوها إلى تاسفاريناس للمناصب الكبيرة التى يحتلها مبعوثوهم أقل مما هم مدينين للاجراءات الدفاعية التى بذلوها . وهذه الثقة التى حصلوا عليها قواها انسحاب بقية جيوش الرومان من طرابلس الذى أسىء الوضع به لأن السلام قد بدا لهم مؤكداً وأخيراً كان الإضطراب الذى تبع ذلك مختلفاً عما انتظروه . ففى سنة ٦٩ بعد الميلاد نشبت الحرب بين المدن المجاورة وهى أويا (طرابلس) الحالية ولبسيس . ولم تكن بذات أهمية إذا كانت قد جذبت الجاراما نتس إلى الحقل مرة أخرى . وخوفاً من أن تسوء المعركة كان لهم أن يعودوا إلى الصحراء ويملأوا الآبار التى خلفهم كى يتجنبوا أن يطاردهم أحد . ولما اطمأنوا إلى ظهرهم فى فزان استجابوا لدعوة المساعدة التى أتت من أويا وحاصروا لبسيس مع حلفائهم الجدد . فكان هذا داعيا لأن يسرع فاليريوس فستوس Valerus Festus حاكم نوميديا ، على

طول الساحل ليعيد النظام . ونجح فى هدفه فى سرعة مدهشة . إذ خاف أن تتحد لبسيس وتهزم الجارأمانتس وتستفيق من نكبتها وتطاردهم إلى الصحراء وبعمله هذا حقق شيئا جديراً بالذكر ووجد — كما يخبرنا بلينى — طريقا جديداً قصيراً يعبر الصحراء وهو المعروف باسم Pnacter Caput Saxi وهو لا يختلف عن اسمه الحالى باب رأس الحمادة وربما كان هو الطريق الذى يسير نحو الجنوب من أويا ماراً بجاريان وفروا نحو المسالك الغربية وهو الطريق التى وضعت له علامات أيام حكم كراكلا . والنتيجة أن فاليريوس فستوس كشف طريقا كان مجهولا لجارامانتس . وهذا شىء لا يصدق لأنه كان يعمل فى داخل دولة جارامانتس نفسها ولا بد أنهم عرفوه أفضل مما عرفه الرومان أو على الأقل كأى قبيلة أخرى ومنه حصل الأخيرون على الأدلاء .

ولكن السر الذى يحيط بكشف الطريق ينبسط على حقل أوسع كثيراً لأنه بنهاية القرن حدثت أشياء غريبة أخرى لم تشرح قبل ذلك قط .

وأولها تقارب غريب من الرومانيين وأهل جارامانتس أدى إلى خروج حملتين رومانيتين شهيرتين سارتا عبر فزان إلى مقصد بعيد إلى الداخل . وحدث ذلك أيام تراجان حوالى سنة ١٠٠م. وقاد أولاهما سبتيموس فلاكوس Septimius Flacus حاكم نوميديا الذى سار نحو الجنوب ثلاثة أشهر من فزان ولا بد أن هذا الطريق قاده إلى السودان . وربما تعطينا هذه البلاد يوما من الأيام دليلا على أنه فعل ذلك، وقد ظن بطليموس أن هذه القصة التى حصل عليها من مارينوس Marinus الصورى مبالغة وقاد الثانية جوليوس ماترنوس Julius Maternus وقد سجلها بلينى أيضا وكان قد استقاها من نفس المصدر .

بدأ يوليوس ماترنوس حملته من لبسيس الكبرى واتجه من جرما فى صحبة

ملك جارامانتس نحو الإتيوبيين[1] متجها نحو الجنوب وبعد أربعة أشهر وصل إلى اجيسمبا Agisymba وهى منطقة خاصة بالإتيوبيين حيث تكثر أفراس النهر .

وتردد بطليموس فى تصديق هذه القصة أيضا . ولكنها محتملة أكثر من الأولى . وتبدو حقيقة إلى حد أن بذلت محاولات للتحقق من اجيسمبا حتى قيل أنها تبستى . وظنها بعضهم أيرى ولكن رود (اللورد رنل فيما بعد) أشار إلى أن منطقة ايرى ليست سهلة الوصول إليها من فزان ولذا لم يكن الرومان ليزوروها إلا لحاجة ملحة وليس لدينا دليل على وجود هذه الحاجة . هذا إلى أن تبستى تقع قريبة جداً إلى الطريق الطبيعى الذى يقود إلى الجنوب من فزان إلى بلاد السود وهو الطريق الذى نعتقد أنه كان يستعمل كطريق تجارى ، وإن كان نادراً لأنه لم يكن مجهولا من الرومان . وعندما وجد العرب أنفسهم ثم الأتراك ، كالرومان يمتلكون فزان رغبوا فى مد سلطتهم جنوباً وأوغل الإثنان إلى تبستى ولكنهما لم يصلا ايرى . وقد أشار نفس الكاتب إلى أنه لا توجد فى ايرى أى أسماء شبيهة بارديتوس Bnrdetus وميشى Mesche اللذين ذكرها بلينى كاسمى جبلن فى اجيسمبا ولكن يوجد فى تبستى اسما باردى ومسكى Bardi, Miski .

واتفاق أهل جارامانتس والرومان يترك مكانا صغيراً للشك حول الهدف من هذا الإتفاق . وربما أراد الرومان تقوية الصداقة الجديدة بالإتفاق على المساعدة فى هجمة على عدو عنيد ، وليس هناك من دليل على أن أهل جارامانتس كان لهم أعداء فى الجنوب غير عاجزين على إخضاعهم قبل مجيء الرومان ، ومن المستبعد أيضاً أن يكونوا قد طلبوا من الرومان أن يصحبوهم فى غارة لصيد

---

(١) أطلق الهلينيون وكذلك الرومان اسم إثيوبيا على كل بلاد تسكنها أجناس ملونة ولذا حمل الملونون اسم إثيوبيين .

الرقيق وأن يوليوس ماترتيوس قد انتهز هذه الفرصة ليرى أرضا جديدة . ولم يكن محتملا أيضا أن يكون هو نفسه مهتما بصيد الرقيق لأن الرومان لم يظهروا اهتماما بتجارة الرقيق من أواسط إفريقيا وإذا كان صيد الرقيق هو الهدف من هذه العملية المشتركة فلا شك إذن فى أن اجيسمبا هى تبستى . التى هى مقبولة كموطن لإتيوبيى تروجلوديت وهم الذين أخبرنا هيرودوت أن أهل جاراما نتس اعتادوا الإغارة عليها . وفى حالة عدم وجود أى دليل عن مدى سير سبتيموس فلاكوس جنوبا فتبستى قد تعتبر كأبعد نقطة فى داخل إفريقيا غرب وادى النيل وصل إليها الرومان[1] .

وأكثر أهمية من هذه التكهنات هو أن نبحث أى الظروف أدت إلى هذا التقارب المدهش وجعلت من الممكن قيام حملتين حربيتين فى تعاقب سريع إلى أرض بعيدة . يبدو أن الرومان لم يكونوا يعرفون أن الوصول إليه سهل، والإكتشاف القريب للطريق محتمل أن يكون جزءاً من نفس المشكلة التى كانت من اهتمام الدارسين الذين درسوا بدقة تاريخ الإحتلال الرومانى ولكن رغم اضطرابها فإنه تغيير بسيط رغم أنه لا يحتاج إلى شرح عاجل .

فنى شمال إفريقيا أصابت الثورة فن الحرب — كغيره من الفنون — حول هذا الوقت بفعل الجمل ، فنى تاريخ النصف الشمالى من القارة ليست هناك من حادثة أكبر أثراً من إدخال هذا الحيوان الذى لا يمكن استبداله . ومتى حدث هذا وفى أى الظروف. شىء لا يزال موضع شك كبير ، فبقايا الجمل الرباعى التى تنتشر على مساحة كبيرة تبين بوضوح أنه كان موجوداً منذ ماقبل فجر التاريخ ومن المعروف الآن أن هذا الجمل (الرباعى) لم يمتد وجوده حتى العصور التاريخية والجمل الأخير كما هو المعتقد أدخله إلى مصر الفارسيون فى

---

(١) ولكن بالطبع ليست شيئاً رومانياً فمثلا فى سنة ١٩٣١ عثر على عملة رومانية من عهد قسطنطين فى بوا Buea فى الكرون البريطانية (خطاب من أرنست إلى المؤلف)

القرن السادس قبل الميلاد واستعمله الإسكندر الأكبر فى نقل أفراد حملته إلى معبد جوبترامون،ولكن يبدو أن سيوه كانت أبعد نقطة فى الغرب وصلوا إليها بالجمل فى هذا العصر ، وإذا أخذنا فى اعتبارنا الحاجة الشديدة إليه فى سيرانيكا وطرابلس — ولندع الصحراء بعيداً — فإن ذلك يكون مدهشاً . فربما كان من بين الأسباب فشل تربية هذا الحيوان فى مصر السفلى ، فبدلا من أن تكون — كما هو المتوقع — إحدى مناطق تربية هذا الحيوان وموردته كانت مستوردة له .

ومازال حتى الآن يحصل على ما يطلب منه بالشراء من الوجه القبلى وفلسطين . وقد دخل الجمل إلى جمهورية السودان الحالية قبل العصر المسيحى بقليل ولكن فشل انتشاره غربا من هناك حيث يبدو شيئا غير ذى بال، فعدم وجوده ضمن رسوم الصخر المبكرة التى سجلت — كما رأينا — كثيراً من حيوانات الصحراء المستأنسة والوحشية يظهر بوضوح إنه لم يكن موجوداً .

وكان أول تسجيل له غرب سيوه حين قبض قيصر على اثنى وعشرين جملا فى تابسوس Thapsus فى سنة ٤٦ ق . م . ورغم أن الرومان عرفوا استعمال الجمل فى آسيا وتبينوا كم هو ثمين لو استعملوه فى إفريقيا ، ولكنهم أبطأوا فى أخذه واستعماله هناك — فإلى ما بعد تابسوس بزمن طويل كانوا يستعملون الحصان فى عملياتهم الحربية التى كان يمكن أن يكون الجمل أكثر فائدة لهم . وأكثر من ذلك ففى تاريخ الإحتلال الرومانى لم يرد ذكر الجمل لأربعمائة سنة أخرى .

ففى سنة ٣٦٣ م حين استنجد أهل لبسيس بحاكم إفريقيا ضد الاوستريانى الذين كانوا ينهبون بلادهم. فأجابهم أنه لا يستطيع القدوم إليهم حتى يرسلوا إليه أربعة آلاف منه لنقل فرقه .

ربما كان الرومان انفسهم مسئولين عن إدخال الجمل ولكن من الواضح

أننا سمعنا عن إستعماله فى شمال إفريقيا ، لا بواسطة الرومان ، بل بواسطة هؤلاء الذين ثاروا عليهم . وأكثر من ذلك لما كانت عملياتهم الحربية لم تقدهم عادة إلى أبعد من حافة الصحراء ، كما أنهم لم يحاولوا اختراق المنطقة الصحراوية غرب طرابلس فإن حاجتهم إليه لم تكن ملحة .

كما كان إدخال الحيوانات الأليفة غالبا ما يكون قرين هجرة الناس، فمن المحتمل جداً أن أول ظهور الجمل فى إفريقيا الرومانية كان قرين وصول زناته الأول إلى نفس المنطقة . فإن هؤلاء البربر البدو الذين قدر لهم بعد عدة قرون أن يعطوا المغرب لأسرات بنى مرين فى فاس وعبد الوديد فى تلمسان فدنوا من الشرق عن طريق سيرين Cyrene ومهما كانت دوافع هـــذه الهجرة أو أنهم كانوا مدفوعين بواسطة الرومان ، فنحن عاجزون عن أن نقول شيئا فى هذا الشأن ولكن يبدو أنه من المحتمل أن زناته كانت مسئولة عن الإستعمال العام للجمل فى منطقة جايتوليا Caetulia. ومنطقة الاستبس فى الهضبة العالية .

وفى مكان ما بين سنتى ٤٦ ق . م . و ٣٦٣ م . بدأ الجيش الرومانى فى استعمال الجمل فكانت فترة طويلة من الزمن دون دليل نعمل على ضوئه . وبالرغم من ذلك فإنه من المحتمل أن تكون الفرقة التالية — قد استعملته للنقل خلال القرن الأول الميلادى . فإن هذا لا يقلل مطلقا من غموض الفترة . ومن الواضح أنه بعد قرن بدأت التماثيل تظهر لنا أن الجمـل أصبح شائع الاستعمال فى طرابلس وإن كان قاصراً على تجهيز الأرض ، وحينئذ يصبح قصة اكتشاف فاليريوس فستوس لطريق برايتر كابوت ساكس غير مفهومة . فإن هذا الطريق الجديد كان جديداً فقط من حيث أنه لم يكن يستعمل إلا للحصان لعدم وجود الماء به ، ولكن استعمال الجمل هو الذى جعله معروفا وقد صرح الكابتن ليون وهو أحد مستكشفى الصحراء فى القرن التاسع عشر أن

الحصان يسبب كثيراً من الاضطراب للقافلة أكثر من أى حيوان آخر ، فإن كمية الماء الهائلة التى يجب أن تحمل من أجله ، تقاس دائماً بحمولة جمل لحصان واحد ، لا يدخل فيها الأحمال الأخرى من القمح والبلح لطعامهم . فاستعمال الجمل لم يجعل هذا الطريق مطروقا فحسب بل جعل السفر فى الصحراء أسرع ، والتقارب الذى حدث بين الرومان وأهل جارامانتس يمكن أن يفسر تفسيراً جديداً . فإن مطاردة الأخيرين بواسطة فاليريوس فستوس وجمالته بعد هزيمتهم أمامهم ليسوس أظهرت لأهل جاراما نتس ان الرومان يستطيعون الذهاب حيث لا يستطيعون هم ، وأنهم وأسرع منهم كثيراً . فإن الذهاب كان هدفهم من المطاردة فالصحراء لم تعد ملجئا أمينا . كما لم تعد فزان آمنة من الغزو ، فالظهور الفجائى لهذا الجيش الرومانى كان له نفس الأثر على أهل جاراما نتس ما كان للقنبلة الذرية على اليا بانيين فى سنة ١٩٤٥ ، وبنفس النتيجة سلموا للوقت وتركوا بلادهم مفتوحة لغزاتهم الأجانب .

وأخيراً نستطيع الآن أن نبين بوضوح كيف أن حملتى سبتيموس فالكوس الكبيرة ويوليوس ماترنوس إلى الداخل أصبحتا ممكنتين . إذا لم يفقد أهل جارامانتس الرغبة فى المقاومة فقط بل اعترفوا بفضل الرومان ورضوا بهم . كما أن الجمل جعل اجتياز الصحراء أسهل مما كان قبلا كما سنرى ، بالرغم من أن الرومان استفادوا كثيراً من الانتصار الكبير الذى حازوه فى فزان ، فالقرن الذى تلا حملتيهم إلى الداخل السحيق ، كان مليئا بالحوادث لطرابلس . وبارتقاء سبتيموس سفيروس Septimius Severus العرش فى سنة ١٩٣ تغير الموقف ، إذ ارتقت لبسيس من التبعية إلى العظمة التى كشفت عنها الحفائر الدينية ، وليس هناك من نقطة أكثر رومانتيكية على طول الألفى ميل التى تمتد على الساحل الممتد من المذبح حتى البوغاز على الأطلنطى من الميناء الصغير لبسيس الكبرى التى تقع عند مصب وادى لبدة . فهى بوابة الصحراء والنهاية الشمالية لطريق جارامانتس الذى

ظل لعدة قرون أحد طرق القوافل الصحراوية ، فإذا وقفت على رصيف الميناء الذى تقف عنده السفن الصغيرة وتطلعت نحو الجنوب على هذه الخرائب المنتشرة فلاشك انك تشعر بالنشوة حين تسترجع فى مخيلتك هذا الإمبراطور العظيم الذى تخلده فلبسيس مكان ولادته وقد عاش وهو يتكلم اللاتينية بلهجة بونيه ومات فى يورك فى سنة ٢١١ .

ولم ينصب اهتمام سفيروس بالأرض التى شهدت مولده وهى مدينة لبسيس فحسب ، بل بكل المنطقة الدفاعية المسماة بطرابلس الجيرية ، فقد نظمت وامتدت وقويت لا لأنه كانت هناك حاجة إلى مزيد من الدفاع عنها ، بل أراد الإمبراطور أن يرفع من قيمة موطنه . وإلى الخارج من الصحراء خلف الصخور الجيرية أقامت فرقتان من الطابور الثالث واحدة عند بونجم والأخرى غرب سيداموس Cydamus وهى واحة اشتهرت فى عصور متأخرة بأنها مركز للقوافل واسمها الحالى غدامس . ومن المحتمل أن تكون حامية أخرى قد أقامت فى جارما عاصمة جاراما نتس فى ذلك الوقت ، وهذا العصر هو احد العصور التى تركت وراءها وثائق مكتوبة ولكن أبحاث الأثريين قد ألقت فى الوقت الحاضر ضوءاً على ما كان يعتريها من ظلام .

وفى أوائل القرن التاسع عشر أبلغ أودنى المستكشف أنه عثر على مقبرة رومانية فى جرما وقد زارها بعد ذلك بجيل هنرى بارث ووصفها بدقة كبيرة[1] فتمتعت بما تستحقه من الشهرة ، وفى سنة ١٩٣٤ حملت بعثة أثرية إيطالية من جرما المجموعة الثمينة المختلفة من الأشياء الرومانية وهى الآن فى متحف المستعمرات فى روما وقد عثر على بعضها فى المقبرة نفسها . ومعظم

---

(١) والمقارنة بين الصور الجوية للمقبرة برسوم بارث ليست إلا واحدة من الأمثلة العديدة على الدقة التى حافظ عليها هذا الرحالة خلال خمسة مجلدات ضخمة سجل رحلاته فى داخل إفريقيا.

هذه الأشياء من الفخار والزجاج والمسارج . ولكنها تحوى بقايا أقمشة صوفية ذات ألوان عديدة ، ولكن مما لا يدعو إلى الدهشة أن ألوانها ليست قرمزية . وتظهر هذه المجموعة أن البضائع ذات الأصل الذى ينتمى إلى البحر المتوسط وكثيراً من الرومانية كانت تصل إلى فزان بكثرة منذ نهاية القرن الأول حتى القرن الرابع أو بعد ذلك . ويبدو أن المقبرة نفسها تعود إلى القرن الثانى وفرص التجارة التى فتحت عن طريق حملات سبتميوس فلاكوس ويوليوس مترينوس لم تهمل ، وقد اكتشف الأثريون ما قادنا إلى ما كنا نتوقعه . فأوانى حفظ المـاء وهى من طراز يذكرنا بشبيهاتها فى طرابلس تظهر أن اهتمام الرومان بفزان ضم الرغبة فى التقدم إلى جانب التجارة ، ولكن كان للتجارة السيادة، وتقدم التجارة الرومانية حقلا واسعاً للأبحاث ، فاهتمام كثيرين من المؤرخين البارزين الذين جعلوا منها مادة أبحاثهم لم تمتد جدياً إلى الصحراء التى كانت ذات أهمية تجارية صغيرة . إذ كانوا مجمعين على الظن بأن المواد التى تاجر فيها الرومان مع فزان كانت تلك التى انصبت نحو الشمال عن طريق جارامانتس وخاصة الذهب والرقيق والعاج وريش النعام . وليس هناك من أساس تاريخى لمثل هذا الظن . وفى الحقيقة ليست هناك سجلات على أن الرومان استوردوا من فزان هذه المواد .

ويؤكد بلينى حين يقول (كان اهتمامنا الوحيد هو التجارة فى الأحجار الثمينة المستوردة من إثيوبيا وهى ما نسميها بالياقوت) . وشبيه بذلك قبل ذلك بقرن ، حين أشار سترابو إلى فزان كمصدر للياقوت ، ولكل من الكاتبين كان طريق جارامانتس هو طريق تجارة الياقوت . ومع هاتين العبارتين الواضحتين من الصعب أن نقاوم النتيجة التى تقول أن الياقوت كان أهم المواد فى تجارة الرومان مع فزان وليس هناك من آراء فى الوثائق المتأخرة أنه لم يكن كذلك .

وكان الذهب فى بعض الأوقات يستخرج من فزان، ولكن من المحتمل أن لا يكون قديماً قدم الإحتلال الرومانى، فمن المحتمل أن يكون الرومان حصلوا على بعض الذهب من هناك ولكنهم كانوا يحصلون على كميات أكبر من مصادر أخرى امتدت من أسبانيا إلى أورال . ومن البحر المتوسط حتى البلطيق وليس من المحتمل أن الذهب كان مادة تجارتهم الصحراوية وتمكنا أن نحكم على أن ريش النعام كان مادة تجارية هامة لأنه كان متوفراً فى الشمال وكذلك الحيوانات الوحشية من أجل الحلبة أو من أجل جلودها . وأكثر من ذلك فإن كثرة تكاليف نقل الحيوانات الحية أو الجلود عبر الصحراء كانت تمنع نقلها .

أما العاج فمحتمل ، فالأفيال كانت متوفرة فى شمال إفريقيا فى بداية العصر المسيحى ، ولكن انعدم وجودها فى القرن الرابع ، ومن ناحية أخرى كانت آسيا والبحر الأحمر — وهى مصادر كثيراً ما اعتمد عليها الرومان — لا تزال تمدهم بالعاج على نطاق متزايد إلى حد أنه لم يعد له قيمة تذكر . ومن المحتمل أن بعضاً منه كان يأتى من فزان وإذا كانت كميته هامة ، فلن يفوت كلا من سترابو وبلينى ذكرها . فى عهد كل من الجمهورية والإمبراطورية استخدم الرومان الرقيق ولكن مصادره فى أوربا وآسيا كانت غير محدودة . فأسرى الحروب كانوا وحدهم مورداً لا ينضب فى أيام الجمهورية ، فغزوة واحده على ابيروس Epirus أتت بمائة وخمسين ألفاً من الأسرى . وعند سقوط قرطاجنة استرق عدد هائل من سكانها . ولسنين طويله وكان سيلهم من آسيا كبيراً ومستمراً . وإلى جانب ذلك كانت هناك أسواق للرقيق فى البحر المتوسط وخاصة ديلوس Delos حيث يخبرنا سترابو أنهم كانوا يستطيعون تسليم عشرة آلاف من الرقيق كل يوم ، ولم يكن أرقاء أوربا وآسيا وحدهم كثيرين ولكنهم كانوا أليق لمطالب

الرومان من الإفريقيين لتأقلمهم للجو ولكونهم أقوى بنية ، وبخلاف التماثيل الصغيرة المصدرة للزنوج والموزاييك الذى يعود إلى القرن الأول فى بومبي مصورة للرقيق الزنجى فى مرقص ، فهناك دليل صغير لأرقاء من الزنوج فى عهد الإمبراطورية .

من الصعب إذن أن نعتقد أن كانت لروما رغبة فى أن تتجه إلى إفريقيا من أجل عمل الرقيق ، فاحتياجاتهم إليه على نطاق هام كان أقل من احتياجاتهم الأخرى ونحن نسمع أن أهل نوميديا وجايتولى كانوا يستخدمون كحاملين للقش أوللحيوانات الصغيرة، فقد كتب سينيكاSineca أنه يجب أن يرى كانوليرى أحد المتأنقين ومعه تابعه من النوميديين . ولكن هؤلاء قدموا من الشاطىء الإفريقى الذى كانت له أسواقه الخاصة بالرقيق واستعمالهم لم يكن يتعدى أن يكون مودة عابرة قبل إستعمال الزنوج فى انجلترا فى القرن الثامن عشر . لأن الرقيق الأسود الذى كان يأتى عن طريق جاراماتنس لم يكن له مكان فى الإقتصاد الرومانى . والقلة منهم الذين كانوا يستخدمونهم فى الخدمة المنزلية كان يمكن الحصول عليها بسهولة من بين الجاليات الزنجية على الشاطىء الإفريقى . فأجزاء من واحات الصحراء كانت بلاشك — كما فى العصور المتأخرة — تزرع بواسطة رقيق السودان ولذا نستطيع أن نستبعد إمكانية أن يلعب الرقيق أكثر من دور صغير فى التجارة الرومانية مع فزان .

وليس هناك من سبب يجعلنا نشك فيما كتبه سترابو وبلينى عن تجارة الياقوت فلابد أنه كان مادة تأتى بها قوافل الشمال ، ومن المحتمل أن تكون هناك تجارة عامة ربما لعب فيها العاج دوراً ، كما أنها قد تضمنت من وقت لآخر بعض الرقيق وكذلك قليلا من الذهب ولم يذكر أحد مادة الزبد (المسك) (بفتح الزاى والباء) كمادة من المواد التى جلبها الرومان من فزان لخلال

التاريخ المدون كان الزبد مستعملا فى السودان والصحراء . وفى خلال العصور الوسطى اشتد فى طلبه تجار الروائح العطرية فى أوربا كما هو الحال اليوم . ولابد أن الرومان عرفوه عن طريق اتصالهم بتجار البحر الأحمر ولابد أنه كون جزءاً من التجارة القادمة من فزان . وبالرغم من أننا لا نملك أخباراً وثيقة عن تجارة جاراما نتس فمن الواضح أنها لم تكن كبيرة الحجم وتفوقها تجارة روما البحرية وبالرغم من ذلك فإنها كانت عاملا هاماً فى تاريخ الاحتلال الرومانى لشمال إفريقيا .

وفى العصر الماضى رأينا أن تجارة جاراما نتس أيام القرطاجنيين كانت على قدر من الأهمية كاف لأن تجوب بنسبة ما مواطن قريبة على شاطىء سرتيس، وأنها كانت فى الأصل فى لبسيس وأويا وسيرتا . وفى أيام الرومان نجحت هذه المراكز الصغيرة حتى أصبحت مدناً كبيرة إلى أن أعطت فكرة أن التجارة هى التى كانت سبباً فى نشأتها ، وسببت أيضاً عظمة شأنها ولم يكن الأمر كذلك بل يبدو أنهم مدينون بثروتهم تحت حكم الأباطرة إلى الزراعة التى بذلوا جهودهم فى تحسينها وإلى المصايد وإلى تجارة الأصباغ القرمزية ، وقد شجع التقدم الزراعى لأسباب سياسية أكثر منها إقتصادية بغرض ربط القبائل نصف البدوية بالأرض والعمل على حل المشاكل الإدارية المستعصية ، ولكنها كانت موجهة أيضاً لسد مطالب روما نفسها ومن بينها زيت الزيتون، وبذا أصبحت طرابلس أحد مراكز الإنتاج الهامة فى الإمبراطورية لزيت الزيتون ، وما زالت بقايا معاصر الزيت المنتشرة هنا وهناك تحمل الدليل على ذلك : وقد زرعت الحبوب والمحصولات الأخرى فى ظل نظام دقيق للرى أشير إليه أكثر من مرة كما كانت هناك مزارع الكروم ولكنها كانت لسد المطالب الإقليمية فقط ، فمنذ أيام قرطاجنة أعيد تنظيم الريف وأعيد

تنظيم اقتصاد أمبوريا معه وكثرت السفن التي تسير من لبسيس وأوستيا Ostia تحمل زيت الزيتون أكثر مما تحمل من منتجات فزان والسودان .

وتوجد في جبال أحجار في قلب السودان الأوسط خرائب تعود إلى العصر الروماني وترتبط بالبحر المتوسط رغم أنها تبدو غير رومانية ، فبالقرب ومن واحة أباليسا Abalessa تقع خرائب أبنية أقيمت بطريقة غير معروفة للطوارق الحديثين . ولكن ما زال يزاولها تيبوتبستي . ووفقا للأقاصيص كانت موطن امرأة تسمى تن حنان Tin Hinan التي اعتلت جملا فخماً أبيض اللون ووصلت بطريقة غامضة إلى أحجار من واحة بعيدة هي تافيللت Tafillet في جنوب مراكش ، وهي التي يدعى الانتساب إليها أرستقراطية الطوارق المحليون . وقد كشفت الحفائر عن مقبرة وجدت بها عظام سيدة غير مراكشية بل مصرية الطراز ، تذكرنا بشدة بالطبقة الحاكمة المصورة على التماثيل الفرعونية وعلى ذراع الهيكل العظمى وجدت أساور من الفضة والذهب وعلى صدرها ذهب وخرز مختلف بعضها من الحجر الخلقدوني ، وفي المقبرة كميات من خرز آخر كثير منها من خرز أجرى المشهور وحجاب للخصوبة وسلة للبلح والحبوب وأوان للبن وعملة من عملات قسطنطين وأشياء أخرى كثيرة تعرض حالياً في متحف باردو في الجزائر . وإلى جانب العملة فالزجاج روماني وهما معا يشيران إلى تجارة القرن الرابع وقصة تن حنان من أين قدمت ولماذا اختارت ، وكيف وصلت من هذا المكان البعيد لتسكنه ، تقدم لنا إحدى مشاكل الصحراء المستعصية . قد عملت إغراء مضاعفا لأن الحفائر أكدت القصة .

وإذا رجعنا خلال القرون إلى العصر الروماني تظهر لنا حادثة فاقت من كل ما عداها في الأهمية وكانت إحدى الحوادث التي لم يلعب فيها الرومان دوراً ما . هي حادثة دخول الجمل وهي حادثة لها مثل هذه

النتائج البعيدة المدى حتى لقد صارت فجراً لعهد جديد فى النصف الشمالى من القارة فإنها وسعت حقل النشاط البشرى وأثرت فى الحياة الإقتصادية لكل الجماعة . فقد أعطى الجمل للانسان حرية الحركة التى لم يعرفها من قبل ووضعت فى متناول يده أقصى المراعى . وفقدت طرق القوافل نصف مخاوفها وفتحت طرقا جديدة لسير التجارة والثقافة .

وبكل هذه التغييرات جاء رجل جديد إلى إفريقيا وهو البدوى مالك الجمل سابقا فى تاريخه . منساحاً لا يمكن مهاجمته وبذلك واجهت المدينة خطراً له لم يتحرر منه مطلقاً كما لم تعرفه الفرق الرومانية قط .

(٤)

الطــــوارق

قبل الغزوات العربية فى القرن السابع والقرن الحادى عشر سكن شمال إفريقيا عنصران متميزان هما الزنوج وغير الزنوج وكان الأولون من العنصر الحامى الشمالى . وحملوا اسم الليبيين وأطلق الرومان عليهم هذا الاسم ثم جاء العرب فأطلقوا عليه اسم البربر واشتقت هذه الكلمة من لفظ بربرى اللاتينية . أما الزنوج وفيهم درجات متفاوته من الدم الحامى . فسكنوا أيضاً الصحراء وازدادت نسبة الدم الزنجى كلما تقدمنا جنوباً حتى أصبحوا زنوجا خلصاً عند غابات المناطق الإستوائية عند ساحل غانة ، وقد أطلق العرب على هذه الأجزاء الجنوبية خلف الصحراء اسم بلاد السودان[1] وبذلك أطلق اسم السودان أصلا على كل البلاد جنوبى الصحراء ولكنها تطلق فقط على حزام السفانا ومنطقة أشجار الإبهاء التى تفصل الصحراء عن منطقة الغابات الكثيفة التى تمتد من النيل حتى الأطلنطى . وفى الصفحات التالية سينصب اهتمامنا على السودان الغربى . وهى كل أجزاء الحزام الذى يقع غرب بحيرة تشاد وهى موطن الزنوج الخلق من الرعاة والزراع المستقرين الذين أقاموا دولات وية تغلبت عليها عناصر الشاطىء الشمالى الإفريقى . إذ لم يكن هذا طريق مواصلاتهم طوال العصور التاريخية . بينما لم تكن طرق الصحراء لتنتظر مجىء الجمل . فهذا الحيوان هو الذى مهد الطريق أمام القوافل وجعلها مسالك مطروقة للتجارة والثقافة لتؤثر تأثيراً عميقاً فى مجرى التاريخ على حافتى الصحراء .

وقد لعبت شعوب الصحراء دوراً هاماً فى تقدم الحركة وكان استمرارها دائماً تحت رحمتهم . وكان أهم هذه القبائل الصحراوية الليبيون البدو

---

(١) يكاد اسم السودان العربى يعادل اتيوبيا فى نظر اليونان والرومان .

الذين نعرفهم الآن باسم الطوارق . (ومفرده طارقى) وأطلق عليهم العرب اسم الملثمين وهم طوال القامة رشيقون ذوو وجوه طويلة سمراء ولأولادهم فى العادة شعور مموجة فاتحة اللون سرعان ما تصبح سوداء . وأهم ما يميزهم ، عادة الرجال الغريبة فى تغطية وجوههم بلثام أو حجاب . لا يترك منه شيئا ظاهراً سوى العينين . ومن هذا أعطاهم العرب اسم الملثمين ومعناها المحجبين ويرجع تاريخ هؤلاء الطوارق إلى أيام الغزو العربى حين احتلوا كل الصحراء الغربية والوسطى . ولكننا نتبينهم فى كتابات كوريبوس Corippus وبطليموس وغيرهم من الكتاب المبكرين ، ويبدو أن شعوب أوستريانى Aasturiani ومازيك Mazices وايفوراسس Ifuraces التى قطنت مملكة جارامانتس . كانت كلها من الطوارق، فالاوستريانى الذين كتب عنهم سينسيوس Synesius والأرزوجس Arzuges الذين كتب عنهم أوروسيوس Orosius والاستاكورس Astacures الذين كتب عنهم بطليموس Ptolemy كانوا جميعا من الأزجر Azger الحاليين الذين احتلوا قرابة أربعة عشر قرنا نفس المنطقة التى يحتلونها الآن ويمثل الايفوراسس الذين كتب عنهم كوريبوس اليوم شعوب الايفوجاس Ifoghas وهى قبيلة من الأزجر يسكنون منطقة قريبة جداً من منطقة أسلافهم .

ويبدو أن الطوارق لم يكونوا محجبين فى أيام الرومان والبيزنطيين ، لأنه لا ذكر لهذه الخصلة المميزة فى كتابات الكتاب المعاصرين وربما يكونون قد استعملوا الحجاب بين سنتى ٦٠٠ و ١٠٠٠ م[1] وهم منقسمون إلى عدة جماعات وقبائل وأهمها تاريخيا جماعة صنهاجة التى رأست يوما ما اتحاداً من كل

---

(١) لا يعرف متى استعمل الطوارق الحجاب وربما يكون سبب ذلك بعض الطقوس . وفى رأى السير ريتشموند بالمر أنها ربما تكون بقايا عبارة ميثراس التى لها بعض من يعتنقونها فى الصحراء .

الطوارق، وكل قبيلة تنقسم إلى طبقتين السادة المسمون ايماجيهان Imajeghan والأمجاد Imghad أو الرقيق . ولغتهم هى التماجه Temnjegh وأبجديتهم المعروفة باسم تافيناج Taifinagh مشتقة من كتابة ليبية قديمة .

والطوارق — الذين يطلق عليهم العرب فى بعض الأحيان اسم مسيحيو الصحراء — مسلمون . ولكنهم يحتفظون ببضعة معتقدات ترجع إلى ديانتهم الأولى . وهناك كثير من الأدلة التى تشير إلى أنهم اعتنقوا المسيحية يوما ما فبالرغم من كونهم الان مسلمين فهم لا يتزوجون إلا زوجة واحدة وأفضل ما يتزينون به هو الصليب ودروعهم كثيراً ماتحمل علامة الصليب ، وسيوفهم كذلك ذات مقابض على هيئة الصليب وسروج جمالهم تتخذ أيضا شكل الصليب وهو نفس الشكل الذى يرسمه أصحاب الحرف على الجلود والمعادن . كما وجد فى نقوش تفناج . كما أن هناك بضع كلمات فى لغة تفناج تشير إلى أصلها المسيحى . مثل إسما ميسى Mesi ومعناها إله وانجيلوس ومعناها ملاك . واسماء صموئيل وداود وشاول شائعة بينهم ونادرة بين عرب إفريقيا . وهى دليل على أنهم فى وقت من أوقات تاريخهم تأثروا على الأقل بالمسيحية . ولكن هناك من يظن أنهم لم يكونوا يوماً مسيحيين وحوليات بكلاروم Biclarum تذكر أن أهل جاراماتتس وجيرانهم النوبيين أهل مقرة اعتنقوا المسيحية فى القرن السادس حين بشر بالإنجيل كل الأقوام غير المؤمنة القاطنة وراء الحدود الإمبراطورية ، وربما كان الطوارق من بين من اعتنقوها . وسواء كانوا مسيحين أم لا ، فليس هناك مايدعو إلى الدهشة إذا وجدت آثار المسيحية فى الصحراء . ففى أيام الرومان كانت الصحراء ملجأ لطريدى الإضطهاد الدينى كما كان هناك من اضطهد منهم سياسياً . والقصص المثيرة المعروفة عن القديس بربتوا Perpetua وغيره من شهداء شمال إفريقيا لا تترك مجالا للشك فيما أن

آلافاً من الرهبان الضعفاء هربوا إلى الصحراء فى الجنوب . من أجل أن يحافظوا على ديانتهم ويزاولوا طقوسها فى الواحات فى أمان .

وبدخول الجمل أصبح الطوارق قواد قوافل الصحراء . كما لعبوا دوراً هاماً فى تاريخ شمال إفريقيا . فهناك أربعة طرق طبيعية عظيمة ربطت الشمال بالجنوب: الطريق الممتد من سجلماسة إلى ولاتا [1] والذى يقود إلى مواطن الذهب فى السنغال والنيجر الأعلى ، والطريق الممتد من غدامس إلى غات وايرى وممالك الهوسا الغنية ، ثم الطريق الممتد من طرابلس إلى فزان وكوار Kawar أو طريق جارامانتس إلى بورنو وبحيرة تشاد ، وفى أقصى الشرق الطريق الممتد من سيرانيكا إلى الكفرة ثم إلى واداى . والطرق الثلاثة الأولى كان يتحكم فيها الطوارق فى كل أيام تاريخهم المسجل . وشارك الطوارق الطريق من سجلماسة إلى ولاتا مع البرابيش Berabirh وهم شعب عربى تبربر ، ويحتمل أن يكونوا من أصل حامى . والطوارق هم الذين حفروا آبار الصحراء وحافظوا عليها من أجل سقى الرعاه ورجال القوافل المارة . وهم أيضاً كانوا نقلة التجارة الذين لم يستغن التجار عن خدماتهم عند النهاية الجنوبية لطريق التجارة للطوارق الذين لم يكونوا يوما قادرين على أن يحرروا أنفسهم تماماً من الإعتماد على المؤونة التى تأتيهم من الخارج حيث كانت المحافظة على حمل تجارة الصحراء ضرورة اقتصادية . ففرضوا المكوس والضرائب على التجار الأجانب الذين استعملوا الطرق التى تحكم فيها الطوارق . ولكنهم كانوا حريصين على أن مايفرضونه من المكوس لا يكون أكثر مما تحتمله التجارة ، ورغم أن السيطرة على الآبار والمراعى كانت دائما مصدراً للنزاع بين القبائل فى الصحراء ، فلم يكن يسمح غالبا بهذه القيود لأن تتدخل فى التجارة . كما أن العناصر الزنجية لم تنقطع يوما عن التأثر بثقافة البحر المتوسط وثروة

---

(١) يسميها ابن بطوطة أيو الاتن .

المناطق الداخلية البعيدة كانت دائما فى متناول جماعات العالم الغربى المجاورة . كانت دائما تعزى إلى الطوارق وتكون اشتراكهم الرئيسى فى تاريخ الحضارة ولكن بالنسبة لهم ربما أثبتت الصحراء لعصور طويلة أنها كانت حاجزاً لا يمكن التغلب عليه للقاء الإنسانى بدلا من طرق التجارة والثقافة .

والطوارق كزناتة التى يعزى إليها إدخال الجمل إلى الشمال الإفريقى — لابد أنهم قدموا من الشرق ، من شرقى البحر المتوسط أو جنوب الجزيرة العربية . وتجمع القبائل معقد ولا نحتاج إلى إزعاج انفسنا بذكره هنا . والقبائل الوحيدة التى تعنينا هى لمتا Lemta وصنهاجة Sanhaja وجداله Jedala (جويدالا) ولمتونة Lemtuna وأزجر Azger ومسوفة Mesufa[1] .

وكانت الصحراء أيضا موطن شعب آخر من الشرق . وهم اليهود الذين — منذ بدء العصر المسيحى — كونوا عنصراً هاما من سكان الداخل . وأهم الهجرات المتجهة نحو الجنوب للقبائل العربية حدثت فى سنة ١١٥ م . على أثر ثورة اليهود ضد الحكم الرومانى فى سيرانيكا . وسلك المهاجرون طريقين مختلفين أحدهما يسير جنوبا إلى ايرى عبر النيجر الأوسط . ثم إلى السنغال وفوتا وهناك لحق بهم الفرع الآخر الذى كان قد سلك طريقا غربيا عبر جنوب مراكش وموريتانيا وادرار Adrar ونتيجة لهذه الحركات أصبح

---

(١) وأهم قبائل الطوارق تاريخيا هم الزغاوة الذين سوف أشير إليهم فى فصل قادم وفى تاريخ ربما يكون معاصراً لغزوة العرب لشمال إفريقيا حيث أقاموا أنفسهم طبقة أرستقراطية حاكمة فى السودان . وإليهم يعزى إدخال صناعة المعادن وفى الهوساوما تجاورها طبقة من صناع المعادن وصناع الجلود يتميزون عن بقية السكان وربما كانوا من الزغاوة تحت هذا الإسم فقط فى بحيرة تشاد وهم على ذلك خارج بحثنا .

اليهود موزعين على كل أجزاء شمال إفريقيا . وحافظت الجماعات اليهودية فى واحات الصحراء على شخصيتها ولكن فى السودان سرعان ما اختلطوا بالجماعات الكثيرة من السكان الوطنيين . وأثر الدم اليهودى مازال يرى . وربما لا توجد شعوب فى السودان الغربى لهم مثل هذا الدم اليهودى مثل الفولانى الرعاة الذين كان يحتلون فوتا حيث التقت الموجتان اليهوديتان . وحمل الامتداد الفولانى نحو الشرق الدم اليهودى إلى شواطىء بحيرة تشاد . وربما يكونون قد وصلوا إليها فى نهاية القرن الثالث عشر . وهناك أسسوا مراكزهم الفولانية الحالية فى دارفور وباجرمى ومندارا .

(٥)

العـــرب

منذ القرن الرابع حتى السابع اضطربت شمال إفريقيا بالإضطهاد الدينى والثورات والغزوات . وأحلت الحكومة الفوضى — بطريقة نظامية وإن كانت تعسفية — ومعها إختلال الإمن اللذين أضرا بالتجارة والثقافة ، واهتمت الحوليات المعاصرة بذكر الإرهاب وسفك الدماء لتعطى فكرة عن الإضطرابات التى شاعت فى الدولة البائسة ، فهى لا تخبرنا إلا قليلا عما كان قد حدث فى الجنوب ، وظلت قبائل الصحراء تستقبل الثوار الهاربين واستفادت من الفوضى العامة لتؤكد من جديد حقوقها الرعوية التقليدية فى المرتفعات الساحلية ، ونهبوا جيرانهم الشماليين وبذلك امتلكوا قطعاناً كثيرةمن الجمال التى أصبحت — فى نهاية القرن — الحيوان الشائع الاستعمال للنقل فى الصحراء . فالعصر إذن على درجة كبيرة من الأهمية لموضوعنا لأن التغيير شمل كل مظاهر الحياة الصحراوية فنصف القيود التى وضعتها الطبيعة على السفر واستعمال المراعى رفعت واكسبت البدو قوة الخير والشر . قوة حمل التجارة ونهب القوافل والجيران، وهو أمر لم يتمتعوا به من قبل . وبتحريرهم اكتسبوا أهمية سياسية واقتصادية ظلت معهم حتى القرن العشرين .

وبدأت المتاعب فى القرن الرابع بثورة الدوناتية[1] ضد الكنيسة وروما وفى ثورتهم ضد الإمبراطور تعاونوا مع فئة السركمسليون Cucnmcellions وهى شيعة متعصبة دأبت على سلب حواف الصحراء ولجأت إليهم الجموع

---

(١) فرقة دينية كانت تنادى بضرورة إعادة عماد المرتد عن الدين عند عودته إلى حظيرة المؤمنين .

المظلومة وأوكل أمر القضاء على الفوضى وإعادة تأسيس حكم الدولة إلى الكونت بونيفاس Count Boniface أعظم قواد عصره . ودفعت الظروف السيئة بونيفاس إلى إعلان الثورة على روما وطلب مساعدة الواندال وفى سنة ٤٢٨م إندفع الواندال بقيادة جنسرك Genseric من أسبانيا إلى إفريقيا وكانوا ثمانين ألفاً من الأشداء . وسرعان ما تبين بونيفاس خطورة ما فعل، ولكنه كان متأخراً فى ذلك ورحب الناس بجنسرك كمخلص لهم ودانت لهم البلاد كلها . وانطلقت كل عوامل الفوضى التى كان بونيفاس يريد القضاء عليها، وأخذ الدوناتيون جانب الغزاة لما كان يربطهما معا من روابط كراهية الكنيسة . واتجه جنسرك شرقا واحتل قرطاجنة ليؤمن نفسه صد التدخل الأجنبي بعقد إتفاق مع أرتلا . ومعلوماتنا عن إدارته قليلة . ولكن كان لديه مايكفى من الحكمة ليبقى على جهاز الحكم الذى وجده ، فمكنه ذلك من إعادة النظام والقانون . ولكن إضطهادات الكنيسة للشعب كانت دائمة وفر كثير من المسيحيين إلى الصحراء كما كان الحال أيام الرومان وعند موت جنسرك سنة ٤٧٧ م إنهارت الإدارة وعمت الفوضى مرة أخرى .

وفى سنة ٥٣٣ قاد بلزاريوس Belisarius جيشا بيزنطيا ونزل عند شاطىء سيرتس ، وكما حدث للواندال من قبلهم رحب الناس بالبيزنطيين كمخلصين لهم وهزموا الواندال فى سهوله لأنهم كانوا دائما قليلى العدد أفسدتهم الليونة والترف فلم يستطيعوا المقاومة . وفى خلال ثلاثة أشهر من وصوله تمكن بلزاريوس من أن يكتب إلى جستنيان أن إفريقيا قد عادت رومانية . ولكنه ما أن عاد إلى بيزنطة حتى أخذ البربر يزاولون ما اعتادوه من حب تقليدى للحرية . فأرسل الخصى سليمان ليعيد النظام ، وتوجد الآن عدة حصون مخربة تشهد بنشاط القائد وقوته . ولكن الروح اليقظة التى كانت للثوار انفجرت سريعا إلى شعلة قوية أحرقت كل شىء فى

قسوة إلى حد أن اضطر سليمان إلى العودة . وتلا ذلك قرن من الحروب المخربة . لم يترك شيء فى نهايته لبيزنطة . سوى قرطاجنة وساحل البحر الذى يجاورها . وهذه لم تلبث أن اكتسحتها سيول العرب التى اندفعت نحو الإقليم. وكان الزحف العربى الأول نحو الغرب فى سنة ٦٤٢ فاندفعوا إلى الشريط الساحلى من الشمال الإفريقى الذى أطلقوا عليه اسم المغرب. وفى سنة ٦٤٧ هزم الحاكم جريجورى الذى كان قد أعلن منذ قليل استقلاله عن بيزنطة فى سوفيتولا Sefetala (سبتلا الحالية) وانتهى حكم بيزنطة فى إفريقيا ، واختار العرب لقيادتهم موقعا على رأس الطريق الساحلى الذى يسير إلى مصر وعلى بعد كاف من الشاطىء ليكونوا آمنين من غزوات الأسطول البيزنطى . وفى قلب المغرب بنوا مدينة القيروان .

وفى خلال الثلاثين سنة التالية احتل العالم الإسلامى فرق من شعوبه خرجت منها معظم الشيع الإسلامية . وفى سنة ٦٧٨ جدد العرب غزوهم لشمال إفريقيا واكتسحوا البلاد طولا وعرضا يقودهم عقبة بن نافع ووصلوا إلى المحيط الأطلنطى حيث اندفع القائد المنتصر بحصانه إلى الأمواج ليظهر أن فتحه للبلاد كان كاملا . واحتلوا فزان فى الجنوب ووصلوا إلى واحدة كوارة ولكنهم عادوا بعد أن كانوا على وشك أن يكتشفوا أراضى الحشائش فى السودان[1] . واستقر بعضهم فى واحات الصحراء وربما تصاهروا إلى اليهود ومن هذه المصاهرة خرج عرب الكونتا Kunta الذى يسكنون جنوب غربى الصحراء .

وقد بدا أن انتصار العرب كامل أظهر المغاربة حبهم للحرية وشعورهم القوى بالقومية وهو الذى طالما أنقذ الفاتحين فى أوقات الشدة من الانهيار

---

(١) جذبت كثيرين من التجار العرب الخراسانيى الأصل نحو فزان تجارة الرقيق بها (بالمر ماى أوريس الوما من يورنو) لاهوس سنة ١٩٢٦ ص ٦٧ .

فبمعونة الإغريق الذين بذلوها طواعية يقودهم أحد ملوكهم هو Koceila كسيلة انقلب السكان على عقبة وجيشه بالقرب من بسكرة فى سنة ٦٨٣ وضربوا القيروان وساقوا أمامهم بقية العرب إلى مصر التى أعلن حاكمها العربى ان فتح إفريقيا مستحيل لأنه إذا فنت قبيلة بربرية فسرعان ما تأخذ مكانها أخرى .

وبعد عدد يسير من السنين خرج جيش حاكم مصر ليخضع المغرب من جديد ، فأعاد بناء القيروان وخرب قرطاجنة وألقى ببقايا البيزنطيين إلى البحر ، وكر البربر مرة أخرى تحت قيادة الكاهنة من زناتة وطردت العرب مرة أخرى وحصرتهم عند الخليج ولكنها هزمت فى سنة ٧٠٣ فبعد خمس سنوات عاد العرب تحت قيادة موسى بن نصير واكتسحوا البلاد من جديد من الشرق إلى الغرب ، ولكن يبدو أن هذا النصر لم يكفهم ففى سنة ٧١١ غزا العرب يساعدهم البربر الذين اعتنقوا الإسلام أسبانيا حيث عملوا على تطوير حضارتها المتقدمة التى من أجلها سيظل اسمهم مقرونا بالشرف . (على نحو يناقض تماما عملهم فى إفريقيا وفى جنوب البحر المتوسط حيث لم يحققوا قوة أو ثقافة)[1] .

وكانت قبضتهم على المغرب لا تزال بعيدة عن الأمان والقرون الثلاثة التالية مليئة بالغموض ولكنها تميزت بصراع مستمر بين العرب والبربر وهو الصراع الذى انتهى مبكراً فى القرن الحادى عشر بانتصار البربر وهزيمة الغازين . ولم يتمتع البربر طويلا بثمرة إنتصارهم وغزيت إفريقيا مرة أخرى فى منتصف القرن بواسطة بنى هلال وبنى سليم وهم من البدو الذين طردوا من مصر وكان الخليفة الفاطمى تواقا إلى أن يخلص مصر من هؤلاء الضيوف المتعبين الذين لا يمكن حكمهم ، فاستحثهم على أن يبحثوا لهم عن وطن جديد فى المغرب وغسل منهم يده . واستجابوا لدعوته وانحدروا

(١) بل حقق العرب كثيراً من القوة والثقافة ودليلنا على ذلك الممالك المغربية المتعددة التى قامت فى هذا الركن .

إليه . وكانوا قرابة مائتى ألف من الرجال الأشداء وبينما بقى بنو سليم فى سيرانيكا (برقة) إندفع بنو هلال غربا وتوغلوا إلى الداخل مخربين قاتلين أينما ذهبوا وقد شبه ابن خلدون غزوة بنى هلال بغارات الجراد الذى يخرب كل ما يمر به وكان أشد نتائج هـذه الغارة أثراً هو زحف الصحراء على البلاد وانتهاء الحضارة بها بطريق مباشر ، وعن طريق قطعانهم خرب هؤلاء العرب معظم الغابات وخلقوا قصوراً فى حرفة بناء السفن من الخشب الذى أصبح فيما بعد مصدر قلق لأحفادهم القرصان .

وقد ذكرنا فى فصل سابق أن أنقاض المدن تنتثر على صفحة المغرب وكذلك بقايا القرى والقناطر والسدود والآبار والكبارى والخزانات التى تخربت بفعل جموع هذه القبائل المتوحشة وأن الصحراء لم تزحف من قبل بمثل ما زحفت عليه من مساحات كانت قبل غزوة الهلاليين مزدحمة بالسكان وأكثر أهمية من تخريب العرب الشامل دوام تملكهم للبلاد . وعلى نقيض أقربائهم أصحاب الغزوات المبكرة جاء هؤلاء ليستقروا ، وما زال نسلهم يسكن البلاد لا سيما الأرض المنخفضة وإذا كان البربر قد نجحوا فى الاحتفاظ بنقـاوة جنسهم فالفضل فى ذلك يعود إلى ان الطوفان العربى فضل سكنى الأراضى المنخفضـة فقط فلم تمس آثارهم المرتفعـات التى سكنها البربر[1] .

---

(١) أثارت محافظة البربر على نقاوة جنسهم دهشة علماء الأجناس فبالرغم من مجىء الفينيقيين والرومان والواندال واليهود والعرب فإنهم جميعاً تركوا آثاراً خفيفة جداً ولذا فشل العرب والبربر فى الاختلاط وبالرغم من أنهم عاشوا متجاورين أكثر من ألف سنة فرض فيها العرب دياناتهم ولغتهم وملابسهم وكثيراً من عاداتهم على جزء كبير من السكان البربر فإن الأخيرين ظلوا محتفظين بخصائص جنسهم المميزة ، وفى جبال أوراس مثلا يوجد ٢٥٪ فقط من السكان لهم عيون سوداء .

وظل العرب رعاة يسكنون الخيام (مؤمنين بالخرافات متعصبين) ويعيشون وفق نظام قبلى إقطاعى . بينما البربر يفضلون سكنى الجبال ويزرعون الأرض وبالرغم من أنهم قادرون على الانفجارات التعصبية فقليلا ما يحركهم حماس دينى .

ويظن جريفوس Grievus أن آثار الغزوة الهلالية كانت قدوم العرب وقد حملوا كثيراً من المزايا الثقافية إلى المغرب إذ أحضروا معهم العلم والنظرة العريضة التي اكتسبوها من الثقافة الهلينية التي عرفوها في الدولة الرومانية وهي التي صارت بعد ذلك برعما للثقافة الإسلامية الغنية في الأندلس .

وليس هناك من فرع من فروع العلم أغناه الدارسون المسلمون أكثر من الجغرافيا . فقد دفعتهم أعمال بطليموس التي ترجمت إلى العربية ليهتموا بالبلاد الأجنبية الواسعة التي غذتها الأخلاق العالمية الإسلامية ففي طول البلاد الإسلامية وعرضها لقي الرحالة المسلمون الترحيب أينما اتجهوا كما لقوا نفس حسن الضيافة بين الجماعات الإسلامية المنعزلة في بلاد غير المؤمنين . وليس هناك من فعل أكثر ظهورا من اتساع الأفق الإسلامي غير العادي من حادثة في حياة الرحالة الكبير ابن بطوطة إذ بينما كان في سجلماسة في جنوب مراكش اكتشف أن مضيفه هو الرجل الذي كان الرحالة قد قابله منذ سنين في الصين الغربية .

وهناك دافع آخر للسفر إلى الخارج ودراسة الجغرافيا وهو الحج إلى مكة ، وهو فرض على كل مسلم قادر يملك الوسائل لإتمامه وخضوعا لهذا الواجب اجتمعت شعوب عديدة بانتظام في المدن المقدسة كما يفعلون الآن وهناك على أرض عامة تبادلوا المعلومات في حرية عن بلادهم .

وكانت التجارة غرضا آخر من أغراض السفر فأهدافهم التجارية دفعت بالعرب بعيدا حتى الصين وجنوبا إلى المحيط الهندي . وكان اتساع تجارتهم الظاهر يصوره تمام التصوير ما ذكره جغرافي عربي أنه في أحد أسواقهم حيث كانوا يتاجرون في الفراء لم يكن الليل أطول من ساعة .

وقبل قدوم العرب لم يكن يعلم شيء عن إفريقيا جنوبي المغرب ونحن ندين بكل معلوماتنا عن التاريخ المبكر لداخل القارة إلى فئة قليلة من

المؤلفين العرب أهمهم المسعودى وابن حوقل والبكرى والإدريسى وياقوت والعمرى وابن بطوطة وابن خلدون ، وديننا لهؤلاء العلماء كبير إلى حد أن عبارة يسيرة من كل ، لا يمكن إغفالها من مجلد قائم على ترجمة أعمالهم .

وأهمية المسعودى لنا لا تكمن فى اشتراكه فى مادتنا ولكن فى تأثيره على الكتاب المتأخرين الذين ندين لهم . فهو مواطن بغدادى نجهل تاريخ مولده ولكنه مات فى سنة ٩٥٦ م (٣٤٥هـ) وقضى عشرين سنة متجولا فى العالم الإسلامى ، ويعتقد أنه زار بلاداً بعيدة كالصين ومدغشقر . وكانت عنده فكرة دقيقة تدعو إلى الدهشة عن شكل الأرض وحجمها وحركتها وفى هذه الناحية كان متقدماً عن الفكر المسيحى المعاصر ، واعتقد أن المحيط الأطلنطى أو بحر الظلمات الأخضر لا يمكن الملاحة فيه ، وهو اعتقاد شاركه فيه بعض المسيحيين وإشارته إلى السودان محدودة باشـــارة إلى تجارة الذهب الصامتة الغريبة [1] .

وابن حوقل معاصر على الأغلب المسعودى وكان هو الآخر بغدادى الموطن أمضى خمسا وعشرين سنه فى السفر وادعى أن كتابه (المسالك والممالك) [2] حوى كل ما يلذ من الجغرافيا لكل من الأمراء والعامة وابن بطوطة وابن حوقل كاتبا العصور الوسطى الوحيدان اللذان دلت كتابتهما على زيارتهما لإفريقيا ، وقصة ابن حوقل من أول القصص عن السودان الغربى وهو أول مكتشف معروف له . زار اودغاست Audoghast وكومبي Kumbi عاصمة غانة . ورأى النيجر وهو يسير نحو الشرق ، وقاده هذا إلى أن يعتقد أنه نيل مصر وكان أول من عبر عن احتقار المسلمين التقليـدى للزنوج وكتب عن ذلك :

---

(١) له كتابان « مروج الذهب ومعادن الجوهر » و « أخبار الزمان » .
(٢) يسمى أيضاً « صورة الأرض » .

(لم أصف بلد زنوج إفريقية والشعوب الأخرى فى منطقة لأنى طبيعياً أحب الحكمة والمهارة والدين والعدالة والحكومات النظامية وكيف أستطيع أن إلاحظ شعوبا كهذه أو أكبرهم بذكر قصص عنهم ؟) .

وشهد القرن الحادى عشر ظهور عمل على جانب كبير من الأهمية لطلاب تاريخ شمال إفريقيا، ومؤلفه هو ابو عبيد الله البكرى[1] وهو أحد أفراد عائلة عربية كبيرة تمتعت بنصيب من القوة فى أسبانيا الأموية، ولد فى سنة ١٠٢٨ (٤١٩هـ) وقضى كل حياته فى أسبانيا، وتضمنت أعماله أثراً فى الجغرافيا جديراً بالتنويه، وهو فى عدة مجلدات احتوت وصفاً شيقاً لشمال إفريقيا. وما رواه عن السودان له أهمية خاصة لأنه يصور المحاولات المبكرة لرسم صورة عامة لهذا الجزء ومن سياقه — الذى أعجب به الكتاب فيما بعد — نستشف الدليل على أن البكرى اعتمد على وثائق من الدرجة الأولى من الأهمية ولا شك أنها كانت فى الأرشيف الرسمى لقرطبة ومات سنة ١٠٩٤ (٤٨٧هـ) .

وشهد النصف الأول من القرن الثانى عشر عملا آخر يعتبر أهم مساهمة فى عالم الجغرافيا منذ أيام المسعودى، ومؤلفه الإدريسى[2] وهو عربى أندلسى كان فى خدمة الملك روجر الثانى ملك صقلية النورماندى . وطبيعى أن ينظر مسلمو هذا الوقت إلى رجل دخل فى خدمة أمير (كافر) بالشبهة، لا سيما فى وقت أثارت فيه الحروب الصليبية أمر شعور بالكراهية بين المسلمين والمسيحيين، وبالرغم من ذلك فإن اسم الإدريسى كما يدعى دائما قد أحيط بالتكريم فى قارات ثلاث .

وربما بسبب عدم الإرتياح الذى ينظر به إليه مواطنوه لا يعرف إلا

---

(١) كتابه يسمى « المسالك والممالك » ويطلق على الجزء الخاص بالمغرب (المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب) وله كتاب هو (تذكرة النسيان فى أخبار ملوك السودان) .

(٢) كتابه يسمى (صفة المغرب والأندلس) .

القليل عن حياته، كان جده أميراً لملجا Malaga ولكن بعد مدة أبعدت عائلته إلى إفريقيا واستقرت فى سبتة وهناك ولد الإدريسى حوالى سنة ١١٠٠ (٤٩٥ﻫ) ويبدو أنه تعلم فى قرطبة وقضى رجولته المبكرة متجولا فى أسبانيا وإفريقيا وآسيا الصغرى .

ولما كان الملك روجر نصيراً للعلوم اهتم بالجغرافيا اهتماما كبيرا، إذ قضى خمس عشرة سنة يجمع المعلومات عن شعبه المحبوب، وسرعان ماعرف أن أفضل مصدر للمعلومات هم العرب ، وبأعمالهم ملأ مكتبته ، فكان طبيعيا حينئذ أن يلتفت إلى أى دارس عربى لينتفع بثمرات عمله ، واستمر جمع المواد تحت إرشاد الإدريسى، وأتيح لهذا إخراج كتابه المشهور (كتاب روجر) فى سنة ١١٥٤ أو (وصف روجر للأرض) وكان الإدريسى واحدا من الكتاب العرب الذين اشتركوا فى وصف أوروبا لتفهمه للفكر الأوروبى وإنتاج كل من حما حوله[1] .

ودارس آخر اشترك فى إمدادنا بالمعلومات عن داخل إفريقيا هو ياقوت[2] ولا نعرف عنه كثيرا. كان أبواه من اليونان ولكنه بيع رقيقا وهو لا يزال طفلا، إلى تاجر فى بغداد اعتنى بتعليمه، وسافر إلى أنحاء كثيرة وراء مصالح سيده وأخيراً أتم عمل قاموس جغرافى ومات سنة ١٢٠٠ . (٥٩٨ ﻫ)

ولم يشهد القرن الثالث عشر عملا عربيا هاما لنا ولكن عوضنا عنه بعمل آخر ظهر فى القرن الرابع عشر، ونحن ندين لمسالك الأبصار للعمرى بكل مانعرفه

---

(١) إحدى طبعات (كتاب روجر) المختصرة بواسطة أسرة مديتشى فى روما سنة ١٥٩٢ ولكن أول طبعة كاملة كانت ترجمة فرنسية لمخطوطتين فى المكتبة الملكية فى باريس وهى التى نشرت سنة ١٨٢٦ وتملك أسرة بودلين نسخة من المخطوطة كتبت فى القاهرة سنة ١٤٥٩ .

(٢) يسمى كتابه (معجم البلدان) .

عن الحجة الخالدة التي قام بها منسا موسى ملك مالي، والعمري عربي من دمشق ولد سنة ١٣٠١ (٧٠٢هـ) وقضى حياته الأولى في خدمة سلطان مصر وبعد مدة يسيرة قضاها في القاهرة عاد إلى دمشق حيث كرس نفسه للأدب[1].

ومن معاصري العمري رجلان بارزان من رجال الأدب، سيظل العالم يعتبرهما درة في جبين الحضارة العربية، وهما ابن بطوطة وابن خلدون، أما الأول فهو أحد مشاهير الرحالة في العالم، وندين للآخر بكثير من معلوماتنا عن البربر والتاريخ العربي المبكر.

ولد ابن بطوطة[2] في سنة ١٣٠٤ (٧٠٥هـ) في طنجة حيث استقرت أسرته البربرية لعدة أجيال وتعلم علوم الدين، وعندما بلغ الواحدة والعشرين أزمع الحج، الأمر الذي أعطاه تذوقا للرحلة التي أصبحت عنده غراما، وبعد أن زار الشرق الأوسط خرج إلى الهند لينضم إلى الدارسين المختلفين من انحاء العالم، الذين كانوا يزينون بلاط سلطان دلهي، فسافر عبر آسيا الصغرى ومنطقة اعشاب (استبس) وسط آسيا إلى خراسان، واستقبل في الهند — حيث سبقته شهرته — استقبالا أرضاه وعين قاضياً للمالكية في دلهي. وكانت دون مكانته. وبعد سبع سنين أرسله السلطان محمود طغلق في بعثة إلى الصين، ولكن ما أن ترك دلهي حتى طارده أعداؤه فاضطر إلى أن يتخلى عن مهمته.

ثم نسمع عنه بعد ذلك في شاطيء ملايار حين عبرها إلى جزائر ملديف وهناك عين قاضيا أيضاً ولكن الدقة التي باشر بها تنفيذ القانون كانت غير محبوبة لسكان الجزيرة، فاضطر إلى تركها، وبعد أن زار سيلان وآسام تبين رغبته

---

(١) ما زال كتابه مخطوطا في مكتبة استنبول في خمسة عشر جزءاً لم ينشر منها إلا جزء واحد، نشره أحمد زكي باشا.

(٢) كتابه يسمى (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار).

فى رؤية بكين ، وبالرغم من انه لم يحظ بمقابلة إمبراطور المغول الأمر الذى كان يتطلع إليه، فإنه عاد يريد العودة إلى وطنه، فسافر عن طريق سومطرة وملابار وسوريا حتى وصل طنجة فى سنة ١٣٤٩ (٧٥٠ هـ) فكانت رحلة حول العالم استغرقت أربعة وعشرين عاما بدلا من حجة كان من المفروض أن تتم فى ستة شهور .

ولكن شهوة السفر لم تكن قد استوفيت بعد ، فهناك دولة مسلمة لا بد له أن يراها، وهى السودان وإليها بدء رحلته الثانية التى هى آخر رحلاته وأهمها، لأنها مكنته من أن يعطى العالم أول معلومات تفصيلية عن الرحلات فى قلب الجزء الغربى من إفريقيا الوسطى ، وقدر أنه بعودة ابن بطوطة إلى فزان لا بد أن يكون قد قطع قرابة ٧٥ ألفا من الأميال ومات سنه ١٣٦٨ أو فى سنة ١٣٦٩ (٧٧٠ هـ).

ومعاصر لابن بطوطة ابن خلدون سليل أسرة عربية هربت من أسبانيا إلى إفريقيا وقت غزوة المرابطين، واستقرت فى تونس حيث ولد فى سنة ١٣٣٢ (٧٣٣ هـ) وكانت اتجاهاته الأدبية هى التى أهلته لوظيفة فى البلاط فى سن مبكر ، ولكنه لم يقنع باتصالاته بالسلطان فتحرك إلى فاس حيث حصل أيضا على وظيفة فى القصر ، ولكن السلطان غضب عليـه وسجنه ، وحين أطلق سراحه مارس الحياة السياسية التى كان لائقا لها . وأهلته سمعته كعالم أن ينتقل من سيد إلى آخر ، فبعد أن خدم فى غرناطة وبوجيه وبسكرة وتلمسان ، عاد إلى تونس حيث يظن أنه بدأ عمله العظيم فى كتابة تاريخ البربر والعرب وكانت حاجته إلى القوة السياسية وسوء استعماله لها، سرعان ما أرغماه ليبحث عن حقل جديد لمباشرة مواهبه . وكان اختياره لمصر موفقا لنفسه ولنشاطه . وقد نصب هناك مفتياً للمالكية، ولكنه تركها فى سنة ١٣٨٧ (٧٨٩ هـ) واستقر فى إحدى قرى الفيوم حيث عاش للدراسة والبحث . وقضى هناك عدة سنين فى عزلة تامة أتم

فيها الجزء الأكبر من أعماله التاريخية الخالدة . وفى خلال تنقله من بلاط إلى آخر، جمع كثيراً من المادة التى سرعان مارتبها وهضمها فى عزلته فى الفيوم، وبعد أربع عشرة سنة أستدعى ليتولى منصب الإفتاء فى القاهرة ،ولكن شدة أحكامه لم تؤهله لأن يستمر فى منصبه طويلا[1] .

وفى سنة ١٤٠٠(٨٠٣هـ) صحب سلطان مصر[2] فى محاولته غير الموفقة لإنقاذ دمشق من تيمورلنك فتركه سيده فانطلق هو إلى معسكر التتار حيث كان يؤمل أن يحصل على تصريح مرور ليدخل به القاهرة أو ربما ليرضى رغبته التاريخية ليقابل شخصياً أكبر محارب فى هذه الأيام . وكان هذا كله لإرضاء العالم المسن لحصل على الأمان ومنح مقابلة طويلة مع الفاتح التتارى .

ومات ابن خلدون فى القاهرة سنة ١٤٠٦ (٨٠٩هـ) وهو يعتبر أكبر عالم مسلم فى هذه الأيام .

وهناك علماء مسلمون آخرون من علماء العصور الوسطى الذين سوف نعتمد على كتاباتهم . ومن بينهم المؤرخ المصرى المشهور المقريزى (١٣٦٤ — ١٤٤٢)(٧٦٦—٨٤٦) وهناك آخرون عرفناهم عن طريق كتابات الاخرين، عنهم مثل ابن سعيد الجغرافى الذى مات فى سنة ١٢٨٦(٦٨٥هـ) وقد كتب تاريخ السودان الذى لم نعثر عليه ولكن إذا حكمنا بكثرة ما أشار إليه أبو الفدا وابن خلدون وآخرون فلا بد أن أعماله كانت على درجة كبيرة من الأهمية ويعتبر فقدها خسارة للعلم .

وبعد القرن الرابع عشر أخذت الآداب الإسلامية فى الضعف بسرعة،

---

(١) يسمى كتابه (العبر فى تاريخ المبتدأ والخبر) وهو فى سبعة أجزاء .

(٢) هو السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السادات فرج (١٣٩٩ — ١٤١٢) (٨٠١ — ٨١٥) .

وبالرغم من ذلك فإننا نعتمد أكثر ما يكون على الكتاب العرب لكتابة أكثر التاريخ المتـــأخر للسودان الغربى وأهم هؤلاء الـكتاب ، السعدى مؤلف (تاريخ السودان) [1].

ولد عبد الرحمن السعدى فى تمبكتو فى سنة ١٥٩٦ وهو(١٠٠٥هـ) سليل أسرة سودانية عالية، تعود منذ شبابه التحرك داخل الدوائر ذات النفوذ، فكان فخوراً بموطنه وفى (تاريخه) أشار كثيراً إلى أهميتها بصفتها المدينة الرئيسية فى بلاد الزنوج . وكان منصبه الأول حين عين إماما لجنى Jenne وهو منصب شغل مثله بعد ذلك فى تمبكتو . ولعب دوراً نشطا فى الحياة السياسية وأنعم عليه بلقب (كاتب) أو بمعنى أصح سكرتير الحكومة ، اعترافا بخدماته العامة. ويحتمل أن يكون قد مات سريعا بعد سنة ١٦٥٥ (١٠٦٦ هـ) العام الذى انتهى فيه من كتابه .

وفى الجزء الأول من تاريخه الذى يغطى قيام دولة صنغاى اعتمد على الحوليات [2] ومعظمها لم يصلنا . وأشار فقط إلى اثنين أحدهما القاموس الجغرافى لأحمد بابا وكتاب آخر يسمى (الكبير) وأحمد بابا هذا — الذى مات فى تمبكتو فى سنة ١٦٠٧ (١٠١٦هـ) بعد عدة سنين من الأسر فى مراكش، أحد أفراد أسرة شهيرة فى عقيت Akit وهو — ككثير من علماء تمبكتو من أهل جدالة Jedala ، ومما هو جدير بالذكر أنه أتم تعليمه مع عالم من اصل متدنجو Mandingo هو محمد برهايورهو Muhamed Barhayorho الذى كان أحد

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر المعروف بالسعدى .

(٢) هى تاريخ كل ملك تدون حوادثه سنة بعد سنة من حكم الملك وكاتبها موظف رسمى من موظفى القصر ، ولذا ينظر دائماً إلى هذه الحوليات بعين الشك ، لما فيها دائماً من مبالغات لا سيما فى غنائم الملك أو عدد جنوده والتقليل من شأن أعدائه .

تلاميذ والده .وحاز شهرة طيبة كعالم. ومعظم علماء جنى — التى كانت تعتبر مركزاً من مراكز العلم— كانوا من الزنوج وبينما كان علماء تمبكتو من اصل بربرى وبالرغم من انه لم يصل إلينا شيء من اعمال احمد بابا فهو مازال يعتبر فى السودان كعالم كبير . وكان السعدى اصغر من ان يقع تحت تأثيره المباشر . ولكنه استفاد كثيراً من الرفاق المثقفين الذين كان احمد بابا لهم قائداً ومعلما [1] .

---

(١) ندين باكتشاف (تاريخ السودان) إلى هنرى بارث الذى وجد نسخة فى جوا ندو (Gwandu)فى سنة ١٨٥٣ وعزا تأليفه إلى أحمد بابا وكان له بعض العذر فى ذلك بسبب قلة الأخطاء التى وقع فيها هذا العالم الرحالة . واثنان من الثلاث مخطوطات الباقية من التاريخ موجودة فى المكتبة الأهلية فى باريس .

(٦)

المرابطون

كانت إحدى نتائج الغزو العربى ضعف طريق جارامانتس ونشأة طريق تجارى آخر عبر الصحراء قدر له أن يكتسب شهرة أوروبية .

إذا ما انتشر العرب غربا انتقل مركز الاهتمام معهم إلى المغرب الأقصى التى تسمى الآن بالمغرب، فسهولها الواسعة وكثرة مراعيها العالية، بالإضافة إلى المطر الغزير والمجارى المائية الكثيرة العدد ، فصلت البحر المتوسط عن الصحراء بدلا من الممر الضيق الجاف الذى كثيرا ما منع الغزاة القادمين من النيل من السير غربا . ورغم ان الأحوال لم تكن ملائمة تماما ، فإنها لم تكن تختلف عن تلك التى تحولوا إليها وهى أسبانيا . وأخيراً أصبح العرب قادرين على ان ينشئوا مراكزاً ثابتة اتخذوها قواعد لفتح أسبانيا وكان نمو الحركة العلمية الإسلامية والثروة التى أتت بعدها هما اللذان أثمرا فى إزدهار مراكز العلم والثقافة .

والحركة المستمرة للناس والأفكار عبر المضايق ، جعلت غرب إفريقيا على اتصال دائم بالتقدم الكبير الذى حققه إخوانهم فى أوروبا ، وجعل من مراكش نقطة اتصال حيوية فى السلسلة التى ربطت بين الإسلام فى الشرق والغرب ، فمن الشرق قدم العلماء والتجار والصناع يبحثون عن نصيب من الثروة والثقافة فى الغرب . ومن أسبانيا خرج فيض لا يهدأ من المظلومين وضحايا الاضطهادات الدينية والسياسية ، وكلهم طريدو انعدام العدالة وكان معظمهم من الزراع المهرة ومن يساويهم فى العدد من العلماء .

وهكذا تغذى المغرب الأقصى بتيارين من الدم الجديد الباعث على الحياة . وكان التقاءهما الدسم هو الذى أعطى البركة للإقليم ، وقد صورت هذا كله بوضوح مدينة فاس . ففى القرن التاسع استقر ألفان من أسرات القيروان على ضفة وادى فاس الصغير ، وبعد قليل من السنين استقر أيضاً قرابة ثمان آلاف من العائلات المطرودة من قرطبة على الضفة المقابلة ، ورغم أنهما ظلا متباعدين لعدة قرون يرقب كل منهما الآخر بحسد وعدم ثقة . فمن هاتين الجماعتين القيروانية والأندلسية نشأت المدينة التى أصبحت ومازالت المركز الثقافى للمغرب .

واستفادت مراكش ايضاً كثيراً من مملكة قديمة نشأت بعيداً فى الجنوب على حافة الصحراء والسودان ، وعلى الرغم من بعدها وفاصل الصحراء الواسعة ، فإن هذه الدولة الضعيفة (غانا) كانت تتبادل مع مراكش تجارة اعطت الثروة لكليهما . وكان المركز الشمالى لهذه التجارة هو سجلماسة فى واحة تافيلالت إلى الجنوب من جبال أطلس ، والخرائب الكثيرة التى يغلفها نطاق من الخضروات هى كل ماتبقى من هذه المدينة ذات الشهرة القديمة التى تأسست فى القرن الثامن .

وإحدى الإشارات التى وردت مبكرة عن سجلماسة هى ما ذكره ابن حوقل الذى كتب فى القرن العاشر يقول أنها مدينة ذات حجم متوسط ولا يستطيع الإنسان دخولها إلا عن طريق الصحراء ، والرمال تجعل هذا الدخول صعبا ، والمدينة قريبة من مناجم الذهب وبينهما وبين أرض الزنوج وأرض زويلة . ويقال إن هذه المناجم بها أنقى أنواع الذهب وأكثرها إمتيازاً ولكن من الصعب تشغيلها والطريق إليها خطر متعب [١] .

وفى القرن التالى وصف البكرى سجلماسة كمدينة ذات أبنية جميلة يسكنها الطوارق ، تشتهر بطيب مناخها وأشار عدد كبير من الكتاب إلى ثروة المدينة فى تجارة الذهب مع غانة ولكن عرف أن الذهب لم يكن أصلا فى غانة

---

(١) ذكر ابن عوقل عن سجلماسة أن لأهلها قمام سراة مياسير يباينون أهل المغرب فى المنظر والمخبر ، مع علم وستر وصيانة وجمال) .

ولكن فى بلاد اخرى مجهولة تقع إلى الخلف تسمى وانجارا Wangara .
وقد قرنت تجارة الملح بتجارة الذهب التى اهتم بها كثيراً تجار سجلماسة ،
وكان الملح يأتى من مناجم تغازة Taghaza[1] على مسير عشرين يوما إلى
الجنوب فى طريق غانة ، ورغم ماحبت الطبيعة السودان من اشياء كثيرة ، فإنه
كان يقاسى قلة الملح وهى مادة ضرورية ، كان السودانيون يريدون الحصول
عليها من مصدر آخر هو تغازة البعيدة فى الشمال الغائرة فى الصحراء .
ولكنهم لم يحصلوا منه مطلقاً على ما يكفى حاجتهم ، وعلى ذلك كان لبعض
الشعوب المتخلفة غير القنوعة حرفة قطع الملح . ومنهم القابعون وراء الذهب
فى وانجارا ، الذين لم يكونوا يبادلون به غير الملح ومن ثم كان ملح تغازة
ضرورياً لتجارة سجلماسة فى الذهب .

وربما كانت تجارة الذهب مع غانة قد استقرت تماما قبل مجىء العرب
إلى حد ان حاستهم التجارية الحادة التى عملت كثيراً على تطويرها لا يمكن
الشك فيها اكثر مما تستطيعه الرغبة القوية الكامنة فى صدورهم ، ففى وقت ما بين
سنتى ٧٣٤ و ٧٥٠ م (١١٦ — ١٣٣ هـ) فى مدى بضعة عقود من احتلالهم لمراكش ،
ارسلوا حملة عبر الصحراء لمهاجمة غانة — وكانت محاولة اكثر خطورة من الحملة التى
قادها سبتيموس فلاكوس ويوليوس ماترنوس عن طريق فزان الذى هو اكثر
سهولة من الطريق الآخر ، وكان كشف الذهب الذى يسيل إلى مراكش
والإستيلاء على مصدره الهدف الذى لا شك فيه لمثل هذه المحاولة الطامعة .

وارسلت فى نفس الطريق ولنفس الهدف حملة اخرى فى عصور متأخرة
وصلت إلى السودان وحصلت على كمية من الذهب ولكنها فشلت فى
هدفها . وبالرغم من هاتين الحملتين اللتين ارسل العرب إحداها والأخرى
التى أرسلها حلفاؤهم المغاربة . وبالرغم من غيرهما من الحملات التى ارسلت من
اوربا بحراً وكان بعضها تفوق حملة هانو ، ظل مصدر ذهب السودان سراً غير

---

(١) يكتبها ابن بطوطة تغازى .

معروف حتى العصور الحديثة وكل الحملات العربية لم تكن ذات أثر هجومى على غانة، وبعض رجال هذه الحملات لم يعودوا لأن البكرى يتكلم عن خلفائهم الحنيجيين على انهم مازالوا هناك ،وفى القرن الحادى عشر اثبت الأثريون — بما يبعد كل شك — ان الخرائب الكثيرة التى تقع جنوبى غرب تمبكتو بمسافة ٣٠٠ ميلا تعين موقع العاصمة القديمة لغانا اى مدينة كومبي Kumbi ، التى ذكرت مرة واحدة فقط خلال العصر التاريخى المدون فى (تاريخ الفتاش)[١] وهو عمل مبكر عن (تاريخ السودان) وله نفس اهميته . وبناء على ما يرويه السعدى عمرت مملكة غانة مدة طويلة إذ وليها اثنان وعشرون ملكا قبل الهجرة وكثيرون غيرهم بعدها . وكانت الأسرة الحاكمة بيضاء البشرة ولكن الاهالى كانوا زنوجاً من المندنجو . وقبل الغزو العربى خلفت الأسرة البيضاء اسرة اخرى زنجية من السونكى وهم فرع من المندنجو ، وتحت حكمهم وصلت المملكة إلى ذروة مجدها فى القرن التاسع بعد اقل من مائة سنة من تقلص العرب ، وكانت حدود غانة التقريبية هى نهر النيجر من الشرق والسنغال وفرعه بولى Baule من الجنوب ، اما فى الشمال والغرب فكانت الصحراء .

وكان بدو الصحراء جيراناً غير صالحين فى جنوب الصحراء ، كما فى الشمال . وفى هذا الوقت — حين حازت غانة اهمية تجارية ومكانة لم تحزها دولة زنجية من قبل — كانت سحب سوداء تتجمع فى الصحراء من ناحية الشمال الغربى . إذ كان يهددها تحالف من قبائل الطوارق يقودهم تلوتانى Tilutane زعيم لمتونة ، إذ بدأ هذا الرجل — على رأس أغلب طوارق الصحراء الغربية تسانده مائة الف من جماله صنهاجة — غارة تجاه الجنوب كما كان يستحث تابعى ملك غانة . وانساح الآخرون تدفعهم قوة جيرانهم المحاربين ولم يستطع مقاومتهم . كما كان تلوتانى ايضاً شديد الرغبة فى تجنب

---

(١) اسم هذا الكتاب (تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس) وهو لمحمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمتى التنبكتى الوعكرى وهو بالخط المغربى .

محاولة القوة ولما كان قانعا فقط بسلب أطراف غانة فقد نشب صراع مباشر بين هؤلاء الجيران الأقوياء بدورهم .

وكانت عاصمة لمتونة هي اودغاست Audoghast (تجداوست Tegdaoust الحالية) التى تقع على مسيرة خمسة عشر يوماً غربى كومبي فى تاجانت Tagant الشرقية وعلى مسيرة شهر من ارجوين التى تقع على الشاطىء . وكانت مدينة كبيرة ذات أبنية بديعة يحوطها اشجار النخيل التى يحيط بها الصحراء من الخارج وكان سكانها من البربر الذين امتلكوا عدداًوافراً من الرقيق الزنجى كما اشتغلت بالتجارة جالية كبيرة من العرب .

وكانت المياه وفيرة فى أودغاست مما سمح بزراعة محصولات مختلفة منها البلح والقمح (وكانت مخصصة للأغنياء) والذرة والتين والكروم والحناء . كما كانت الماشية والأغنام وفيرة ورخيصة . وكانت مخزناً هاماً للذهب الذى كانت تستورده من السودان ليعاد تصديره إلى المغرب وخاصة سجلماسة . اما الواردات فقد شملت القمح والفواكه المجففة والنحاس والملابس وكلها من الشمال ثم العنبر والملح من الساحل . والذهب والعسل من السودان . وفى وصف المرور المستمر للقوافل بين اودغاست والمغرب يروى ابن حوفل كمثل للنطاق الكبير الذى كانت تجرى فية التجارة ان احد سكان سجلماسة كان مديناً لتاجر من اودوغاست بمبلغ اربعين الف دينار ذهبا[١] .

وقد جمع الأهالى ثروة هائلة مكنتهم من ان يعيشوا فى يسر وترف . كما مكنتهم ايضا من ان يزرعوا الفنون والحضارة واشتهرت اودغاست بمهارة

---

(١) ولقد رأيت باودغست صكا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيراً) .

طباخيها . وبجمال نسائها ذوات البشرة البيضاء اللائى ملكن إيناساً علق عليه البكرى بحماس .

ورغم أن أودغاست عملت على أن تحتفظ بعلاقات الصداقة مع غانة، فقد كان هناك صراع دائم بين لمتونه والسوننكى ، فكثيراً ما نهب الآخرون القوافل القادمة من الشمال كلما اقتربت من أودغاست . وأجابت لمتونة بمحاولة التدخل فى شئون غانة الداخلية، والإشتراك فى الإقطاعات الخاصة بين الزعماء التابعين — ولم يلبث السوننكى أن أصبحوا أصحاب السيادة ، ولكن بالرغم من انهم استردوا المقاطعات الخارجية التى كانت قد ضاعت منهم فهم لم يحاولوا احتلال أودغاست .

وفى أوائل القرن الحادى عشر اجتمعت قبائل صنهاجة — كما حدث أيام تلوتانى — لمقاومة تدخل السوننكى وربما لكسر قوة غانة، ولم يحدث شىء من هذا لان سلسلة غير متوقعة من الحوادث صرفت رغبـــات صنهاجة إلى جملة مسالك .

ورغم ما ينقص الطوارق ما سماه الين سمبل Ellen Semple (موهبة الصحراء للدين) فإنهم يختلفون تماما عن البدو الرعاة فى سوريا والجزيرة العربية الذين أعطوا العالم ثلاث ديانات سماوية موحدة . إذ كان الطوارق مسلمين ، ولكن إسلامهم لم يكن أكثر من ستار، كما هو الحال مع أحفادهم، وبالرغم من ذلك حرص زعماء صنهاجة على أن يقوموا بالحج كعمل من الأعمال المفروضة عليهم ، لا كما يظن الإنسان بل كمظهر سياسى . فحين مر زعيمهم يحيى بن إبراهيم بالقيروان خلال عودته من الحج ، وقع تحت تأثير عالم دينى هو ابو عمران . الذى دهش لجهله بالدين وتأكيده أن شعبه الصحراوى أقل علما من غيرهم من الأمراء . فلما رأى نفسه كيف أدهش العالم العربى فى عمق ، دفعه الشعور بالخزى ليطلب مساعدته فى العثور على فقيه يعلمه وشعبه الدين الصحيح . حتى إذا عاد إلى وطنه صحب معه

عبد الله بن يس أحد حوارى وجاج التلمسانى Wagag فكانت نتيجة هذا الحادث إزعاج سلام دولتين .

وبدأ ابن يس تعليمه بين رجال قبيلة يحيى وهم جداله الذين رفضوا عنف المذهب القادم لهم من الشمال فى إنكار مبالغ للذات وقسوة التعليمات التى أراد أن يفرضها عليهم إلى حد أنهم حرقوا منزله وطردوه من ديارهم ، فخرج — يصحبه مخلصان من لمتونة — يقصد ملجأ فى مكان تحوطه المياه أو جزيرة فى السنغال أو معزلا فى الشاطىء ، حيث اعتزل العالم منهمكا فى القيام بفروضه . وأثار هذا السلوك الإهتمام وبدأ الناس يتحدثون عن هذه الطقوس الغامضة التى يباشرها هـذا الرجل الطاهر، فوجد كثيرون فى هذه التعاليم الجديدة نجاة لهم وأصبحوا أتباعا مخلصين له . وازداد عددهم إلى أكثر من ألف،فدعاهم ابن يس وأطلق عليهم اسم المرابطين وقد أصبح بعد ذلك اسمهم. وأمرهم بالخروج إلى العالم داعين لمذهبهم وفى سنة ١٠٤٢ (٤٣٤هـ) بدأ المرابطون بقيادة ابن يس جهادهم ضد جدالة ولمتونة الذين سبق أن رفضوا مذهبه وكانت استماتتهم فى الجهاد حتى الموت هى التى أدت إلى انتصارهم ، ولكنهم لم يتذوقوا حلاوة هذا النصر إذ أنكر عليهم رئيسهم لذة الإستيلاء على الغنيمة ، وبذلك برد الحماس الذى دفعهم فى الماضى وحين تشدد فى تنفيذ تعلماته انقلبوا عليه حتى اضطروه إلى الفرار .

وعاد ابن يس إلى معلمه القديم وجاج فى سجلماسة ، حيث وجد العطف يتأجج فى صدور تابعين مخلصين تواقين إلى الإنتقام لما وقع له فى الصحراء ، وهدد وجاج بتكفير كل من أبى طاعة ابن يس ، فجاء أتباعه إلى الصحراء وأمرهم أن ينتقموا من كل من يعارضهم ، ونفذ ابن يس تعلمات معلمه إلى حد أنه — قبل أن تمضى مدة تحت تأثير عظم النصرة التى وجدها فى الشمال —

نجح فى ضم كل قبائل الصحراء الغربية إلى مذهبه الجديد فاتحدوا تحت لوائه .

وعمد ابن يس إلى تأمين المركز القوى الذى حازه فى الصحراء الغربية ، وبسبب ما منحه من قدرة فائقة على التنظيم كقائد ملهم فكون جيشاً بلغ عدده ثلاثين ألفاً يلتهبون حماساً عن طريق النار التى أشعلها زعيمهم فيهم ، وكان بعضهم فرساناً والآخرون جمالة، ولكن أغلبهم كانوا من المشاة مزودين بالرماح التى أجادوا استعمالها ،يدفعهم الحماس الدينى إلى حد الاستشهاد — ورغم أنهم لم يعرفوا الطاعة لأحد فقد اصبحوا مطيعين لقائدهم كما يطيع الجيش الحديث قائده .

كما أنهم لم يتابعوا عدواً مغلوباً، ولم تشهد إفريقيا من قبل أو من بعد قوة ذات عزم كهذه ، ولما أصبح ابن يس سيد الصحراء الغربية استعد ليفيد من جيشه فى نشر الإيمان الصحيح بين القبائل الوثنية فى الشمال . وبدا هذا الهدف وكأنما موحى به من الله . لأنه لم يكد يعلنه حتى تلقى ابن يس دعوة من استاذه القديم وجاج ليسرع الى الشمال لتخليص الشعب فى درعة فى جنوب مراكش من اضطهاد أمير سجلماسة ،وسار ابن يس لتوه وهزم جيش سجلماسة وذبح أميرها واستولى على المدينة ، وترك بها حامية لحماية المواطنين من أى ظلم يقع بهم، وعاد إلى الصحراء ليقابل تهديداً جديداً لقضيته. وبالرغم من ان ابن يس استطاع أن يسيطر على ولاء معظم قبائل الصحراء الغربية ، فإن شعب أودغاست الذى وقع تحت حكم سوننكى غانه المكروهين قد أصبح مهدداً . فقد انقسم السوق الكبير بفعل الكراهية المشتركة بين البربر والعرب فكانت فرصة مكنت ابن يس من أن يستولى عليها فى سنة ١٠٥٤ (٤٤٦ هـ) وكى يرتدع كل من يفكر فى الخروج عن سلطته قتل جميع السكان وسبى نساءهم ووزع كل ما غنمه على جيشه .

ووجد شعب سجلماسة أن أسياده الجدد لم يختلفوا مطلقاً عن سيدهم القديم كما كانوا يؤملون ،فصمموا على أن يستعيدوا حريتهم فقاموا — دون أن يفكروا فى مصير أودغاست أو ربما علموا به — وفتكوا بالحامية المرابطة . ولكن أهل أودغاست حاولوا أن يكيلوا اللوم لزناتة وأرسلوا إلى ابن يس ليقدم إلى الشمال ليخرجهم من بلادهم، فكان رده على ذلك احتلال سجلماسة وكان ذلك سهلا، ولكن لما كان هو نفسه من أهل هذا المكان، فقد عرف جيداً أن استقراره هناك سوف يكون محفوفا بالخطر ما دام الطوارق خلفه — ولن يظلوا طويلا مسالمين . وكانت سجلماسة مركزاً لعالم آخر . عالم عربى فى المغرب الأقصى يمت هو نفسه إليه ويعد احتلال المرابطين تهديداً له وخطراً عليه فى المستقبل القريب أو البعيد فسوف تأتى قوات قوية لطرده إلى الصحراء الغربية وسيادته غير المؤكدة . فقرر قراراً خليقاً بقائد عظيم وهو أن يكتسح منطقة أطلس ويغزو المغرب الأقصى . وقبل أن يكون هناك وقت يسمح للشمال فى أن يشتبه فى أنه اتخذ مثل هذا القرار الجرىء ، انساح المرابطون على ممرى جلاوى Glawi وكندافى Kundafi اللذين يقودانه إلى سهول مراكش ، ولكن لم تمض مدة ، حتى قتل ابن يس فى سنة ١٠٥٧(٤٤٩هـ) وبموته انتهت شخصية من أقوى الشخصيات فى تاريخ إفريقيا . فإن الحركة الكبيرة التى أشعلها وقادها قد وحدت — خلال حياته — كل الصحراء الغربية فى مملكة واحدة ، وكذلك المناطق الشمالية الخصبة فى سوس Sus واغمات Aghmat وسجلماسة وتوابعها . ووضعت الأسس لإمبراطورية كبيرة تمتد خلف شواطىء إفريقيا ولم يكن يتاح كل هذا النجاح إلا لفرد واحد ذى صفات بطولية .

وانتخب المرابطون قائداً روحيا جديداً ليخلف ابن يس، ولكنه مات بعد

قليل وتسربت القيادة إلى يد أميرهم أبو بكر . فأقام مركز قيادته فى أغمات قريبا من المكان الذى سوف تقوم فيه مدينة مراكش بعد قليل ، وتابع الحملة الشمالية التى كان ابن يس مشغولا بها وقت وفاته . ولكن هذه العمليات تلقت ضربة لا من الأمام بل من الخلف من الصحراء فإن ضعف المرابطين الرئيسى كان عدم قدرتهم على التحكم فى أتباعهم ، إذ لم تكن لهم دولة ولكن إمبراطورية من اتحاد قبائل بدوية مفككة ، وحدت بينها عقيدة مشتركة وكذلك خوف مشترك · خوف عن عواقب الإنفصال . فبالرغم من أنهم قبلوا الإسلام إلا أنه لم يتعمق فى نفوسهم . والخوف من ابن يس نقص بالنسبة لبعده عنهم . وحبهم الموروث للاستقلال لم يضعف ، والخلافات القبلية القديمة كذلك لم تضعف . بل كان ارتباط القبائل ببعضها هو الأمر الذى يثير الدهشة .

وكان الشعب الذى سبب معظم هذا القلق هو شعب جدالة Jedalla الذى يعيش فى الركن الجنوبى الغربى الاقصى فى الصحراء . وكان ابن يس — حين ذهب نحو الشمال ليعاود الإستيلاء على سجلماسة — قد ترك وراءه قوة لتراقبهم ، ولكنهم لم يكونوا قد خضعوا له كما أنهم لم يكونوا قد حاولوا الثورة ، ولم تلبث أن جاءت الأخبار عقب موت ابن يس — بأن الاضطرابات قد حدثت بين لمتونة والمسوفة . وكان كلاهما من أتباع ابن يس المخلصين . ولكن الخلاف قد يؤدى إلى هزيمة أحدهما للآخر . فاذا ما ثارت جدالة ثورة مفتوحة أصبح هناك خطر دائم من حدوث تحطيم كامل لسيادة المرابطين فى الصحراء . فصمم أبو بكر على أن يذهب بنفسه جنوباً ليعيد النظام وقبل أن يخرج سلم قيادة الجيش الشمالى إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين .

وأعاد تدخل أبو بكر السريع السلام . ولكنه رأى أنه مالم يجد

المخرج الذى تنصرف إليه الروح الثائرة لبدو الصحراء، فإنهم سرعان ما يمسك أحدهما بخناق الآخر ولذا وضع نفسه على رأسهم وقادهم ضد الزنوج السونكى الكفرة الذين كانوا يخضعون لملك غانة .

وفى نفس الوقت كان المرابطون فى الشمال يزدادون قوة ، فقد قاد يوسف جيوشه الظافرة إلى قلب المغرب الأقصى وانصرف إلى حياة من الغزو بكل ما يملك من إمكانيات غير محدودة ، ولما عاد أبو بكر على غير ما كان منتظراً من الجنوب ،وجد ان نائبه لا يرغب فى إعادة قيادة الجيش اليه فترك كل المغرب وانسحب الى الصحراء .

وأصبح يوسف مطلق السلطة فركن إلى حياة الغزو التى قدر لها أن تعود عليه بالقوة والشهرة متجاوزا كل أحلامه الطامحة . وما كاد يتقدم شمالا حتى خضعت له المناطق واحدة إثر الأخرى وأينما ذهب أعلن نفسه بطل الشعوب ومخلصها من حكم القساة المتعسفين ، واعتمد الفلاحون عليه فى شغف وانضموا إلى محاولة طرح المستبدين المحليين،معترفين بسلطة جيشه، وفى سنة ١٠٦٢ (٤٥٤هـ)أسس مدينة مراكش عندبداية الممرات التى دخل منها إلى البلاد، وبعد سنة دخل فاس دون مقاومة تذكر، ولم يلبث أن وقف على مرتفعات طنجة التى كانت تحرسها — كجارتها سبته — القوات الأندلسية . وكأنما لم يشعر بنفسه قوياً إلى أحد أن يحاول تجربة قوته مع جيرانه الأقوياء عبر المضايق ، فاستدار إلى الشرق حيث بدت بعض الإمارات الصغيرة فريسة سهلة ، فاستولى على تلمسان عاصمة زناته واتخذ منها قاعدته لعمليات أبعد ، حتى ساد المنطقة كلها ، وبالرغم من أن يوسف تردد فى تهديد قوة الأندلس فانه فى الواقع لم يكن لديه ما يخيفه من هذا الركن ، فإن انتصار المرابطين كان فى تناقض ملحوظ مع استكانة اخوانهم فى الدين فى الناحية

الأخرى من المضيق ، فهناك كان المسيحيون تحت زعامة الفونسو السادس ملك ليون وكاستيل وغاليسيا ونافار يهددون الوجود الإسلامى . وكان الحسد يسود الأمراء المسلمين بدلا من أن يوحدوا قوتهم ضد العدو المشترك، بل كانوا يتملقون مساعدة الفونسو فى خلافاتهم . حتى لقد وقعوا واحداً أثر واحد تحت أقدامه يدفعون له الجزية التى امتصوها من شعوبهم الجوعانة من أجل حمايته لهم، وأكثر من هذا كله تحملهم الجزء الأكبر من ظلم الفونسو ، الذى أطلق على نفسه اسم (سيد الديانتين) وكأن تقدم جيوشه العتيد لم يهدده شىء من جهود الأمراء المسلمين الضعيفة ، إذ دب اليأس فى قلوبهم من محاولة كسر اعتداء المسيحيين المتزايد بل تحللوا من جراء يأسهم فاما أن يخضعوا لألفونسو أو يتركوا مواطنهم ويعاودوا عيشتهم البائسة فى متاهات إفريقيا . وفى متاهات يأسهم بدأوا ينطلقون نحو مخلص يأتى لهم من وراء المضايق حيث أصبح يوسف وصاحبه المنتصر أسياداً للمغرب .

وكان المعتضد ملك اشبيلية وأقوى ملوك الأندلس، يرقب فى لهفة متزايدة تقدم المرابطين المنتصرين ، ومنذ اللحظة التى سمع فيها أن قبائل البربر تنصب من ممرات أطلس إلى سهول مراكش ، تطلع بأمل إلى هؤلاء الذين سوف يقدر لهم أن يغزوا الأندلس . وسأله أحد وزرائه (لماذا تسبب لك هذه الأنباء القلق ياسيدى ؟ حقيقة أن سهول مراكش مكان طيب للسكنى إذا قورنت باشبيلية المجيدة . فاذا ما عسكر هؤلاء المتبربرون هناك فمازال بيننا وبينهم الصحراء والجيوش العظيمة وأمواج البحر) .

وقليل من شارك المعتضد خوفه، وحين اقترح أحدهم فى ساعة سوداء أن يبعثوا فى طلب مساعدة المرابطين ضد المسيحيين الذين يظلمونهم ، رفض الاقتراح كشىء ميئوس منه . فإن مثل هؤلاء البرابرة الخطرين المجهولى الأصل، قد يبرهنون على أنهم ضيوف ثقلاء اذا سمح لهم بالولوج الى الأندلس

الجميلة . فماذا يحدث لو رفضوا العودة ؟ أو لو فضل يوسف أن يكون السيد لا الحليف ؟ أليس من الحكمة الخضوع لألفونسو . فإن مقدار ظلمه يمكن تلافيه فى سهولة عن ظلم يوسف بن تاشفين ؟ ولكن الإقتراح أيده رجال الدين . الذين طالما سمعوا عن بساطة المرابطين ، وأيدهم الشعب الذى لم يكن يتصور أى ظلم أفدح مما كانوا يتحملونه على يد أمرهم . وبدد المعتمد — الذى خلف أباه المعتضد ملكاً لاشبيلية — شكوكهم . حين قال أنه لايرغب فى أن يصفه نسله بأنه الرجل الذى ترك الأندلس فريسة لغير المؤمنين . (فسوف يلعن اسمى على كل المنابر. أما من ناحيتى فإنى أوثر أن أكون راعى إبل فى أفريقيا على أن أكون ملكاً فى قشتالة) .

وبدأت المفاوضات مع يوسف ، ودعى لأن يقدم لمساعدة مسلمى أسبانيا ، مع تقديم بعض الضمانات ، فعاد الرسل يحملون إجابته ، وكانت غير واضحة بل تدعو إلى الشك ، وبينما كان الأمراء يناقشون الخطوة الثانية انقلبت حيرتهم إلى خوف مفاجىء حين سمعوا أن يوسف قد عبر المضيق واستولى على الجزيرة وأخذ فى تقوية حصونها وتموينها ، ليتخذها قاعدة لعملياته ، وكان نزول هذه القبائل البربرية من وراء الصحراء ليؤسسوا رأس كوبرى فى أوروبا خطراً ، ولكن بالرغم من أن يوسف قد أوضح فى سرعة،أن حياة الفتح التى عاشها لم تنته بعد، اتخذت الحوادث طريقاً أفضل مما خافه كثيرون ، إذ تقدم والناس يستقبلونه بالتهاليل كمخلص لهم،والأمراء يقدمون له الهدايا،وانضموا مع قوات المعتمد وكروا على المسيحيين الذين وقفوا يقاومونه بأعداد هائلة ولكن استراتيجيته المتفوقة أنالته النصر ،فهزمهم فى أكتوبر سنة ١٠٨٦ (جمادى أول ٤٩٦ هـ) فى زلاقه بالقرب من باداجوز Badajoz وجرح الفونسو من حارس زنجى وفر بحياته .

وكذب يوسف مخاوف الامراء المسلمين ، حين عاد فجأة إلى إفريقيا

ومعه جيشه إلا ثلاثة آلاف تركهم تحت تصرف المعتمد، فأكسبه حسن تصرفه هذا قلوب الناس الذين أكبروه وقت وداعه كمنقذ للإسلام والمسلمين .

وبسفر يوسف استرد القشتاليون أنفاسهم وبدأوا يجتاحون من جديد أراضى المسلمين الذين استنجد أمراؤهم مرة أخرى بيوسف ، وعاد ولكن ليحمل تصميما جديداً حازماً ، هو أن يجعل نفسه سيد مسلمى إسبانيا . ولم يكن هذا عملا صعباً . إذ رأى الشعب أن أملهم فى التخلص من إرهاق أمرائهم لهم يتبلور فى واحد عرفوه جيداً ، لا سيما بعد أن ألغى فى إفريقيا كل الضرائب التى لم ترد فى القرآن، كما رحب به الفقهاء الذين شبهوا حياة المرابطين ببساطة الصحابة الأولين ، فى الوقت الذى رأى الأمراء ومن حولهم من الطبقة المختارة فى يوسف بربرياً يسعى لاغتصاب قوتهم، فعاملوه على أساس من عدم الثقة، فى وقت كانوا فيه أضعف من أن يقاوموه ، وسقطت غرناطة ثم أشبيلية وتبعتهما بقية أسبانيا المسلمة ، ولم تأت سنة ١١٠٢ (٤٩٦ هـ) حتى كان حكم المرابطين يمتد من السنغال حتى الإبرو .

ولم يتمتع يوسف بن تاشفين بثمرة هذا النصر إذ مات سنة فى ١١٠٦ (٥٠٠هـ) ودفن فى قبر بسيط فى مراكش التى أصبحت رمزا لمنشئها ، والعاصمة الجنوبية للمغرب الأقصى تحت حكم المرابطين . وبالرغم من فتوحاته الواسعة والقوة غير المحدودة التى وضعوها فى يده أيام حياته، ظل يوسف الرمز الحى لمبادىء ابن يس كما مثلها هنالك فى جزيرته المنعزلة فى نهر السنغال ، وقليل من الفاتحين يمكن أن ينصف التاريخ الثقة التى وضعتها فيهم الشعوب التى غلبوها فقد أعطاهم فى كل من إفريقيا والأندلس بركات الإستقرار بل الانتعاش بأسهل الطرق . ولـكن هذه النعم انتهت بوفاته .

وخلفه ابنه على بن يوسف وكان صغير السن لم يتجاوز الثالثة والعشرين.

ربى بين جوانب البلاط الأندلسى ولم يعرف خشونة الصحراء . وإن تميز بعطفه ، ولـكن الحماس الدينى لم ينم فيه بسبب عدم خبرته ، فكأنما لم تؤهله تربيته لمسؤولياته إلى جانب سوء اختياره لمستشاريه . الذين مثلوا — حين أرادوا أن يؤقلموا أنفسهم مع البيئة الأندلسية — أسوأ مظاهر الثقافة الأسبانية الإسلامية .

كما لم يكن زعماء البربر مستعدين لأن يمنحوه ولاءهم غير المحدود ، الذى بذلوه من قبل لوالده الذى كان قد تربى مثلهم فى مدرسة الحياة القاسية بل رأوه شابا غراء ، ولذا كانت نظرتهم له استخفافا إلى حد أنه لم يجد المعونة الصادقة الكريمة إلا من حرسه المسيحى (الكافر) . فكان هذا الاعتماد غير الموفق هو الذى أدى إلى قلة إحترام المسلمين له . ولـكن الانحلال لم يسر إلى البلاط ، والمرابطون لم يكونوا شذوذا فى قاعدة سرعة انقضاء حكم الملوك الرعاة . فطيب العيش والثقافة أعداء الفضائل البسيطة لبدو الصحراء الذين أنجبتهم الحياة الخشنة ، والإعتماد اليومى على السيف والرمح اللازمين لحياتهم ، ولذا سرعان ماخبا المرابطون كما خبا الهكسوس من قبل كما سيخبو الأتراك العثمانيون بعدئذ .

وحين ضعفت سلطة الأمير الجديد أصبح شعبه أكثر ضعفا ، وبسبب الخلاف الذى نشب بينهم أسرع حكم المرابطين فى الإنهيار ، ولسوء حظ الفلاحين المظلومين أضيفت إلى ذلك غزوات المسيحيين الذين أعطاهم ضعف الغزاة فرصة جديدة .

وسرعان ما فقد الأندلسيون المزايا التى تمتعوا بها من قبل من جراء تغير الحاكم . وقبل انقضاء وقت طويل بدأوا يشعرون بالأسف على أيام أمرائهم ، وتمنوا العودة إلى أيامهم . فقاموا يثورون على ظالميهم وقتلوهم ولـكن هذا التغير فى الشعور نحو المرابطين لم يحدث فى الأندلس بينما قامت فى المغرب شيعة

جديدة هم الموحدون وتحت القيادة العظيمة لعبد المنعم [١] وقد أسس الموحدون مملكة امتدت من شاطىء الأطلنطى حتى سرتس . وتحت إدارتهم المثقفة تقدمت البلاد . ولكن هذه الدولة الجديدة لم تعش أيضا طويلا . فقد انهارت فى أقل من مائة عام ، ومن خلال الفوضى التى تلت سقوطها ، قامت أسر الحفصيين فى تونس وعبد الوديد فى تلمسان وبنى مرين فى فاس .

(١) كان عبد المنعم هو المؤسس للكتبية فى مراكش ومهندسها هو مصمم جيرالدا فى أشبيلية ولكن الكتبية بنيت أولا .

(٧)

ذهب غانا

فى منتصف القرن الحادى عشر عندما كان البكرى لا يزال يكتب كتابه الخالد (وصف إفريقية) كانت الصحراء الغربية تختمر بحادث سياسى يفوق تقدم المرابطين الاقتصادى . وفى الشمال كان المغرب الأقصى يكاد يتحلل تماما من جراء ما فعله يوسف . ولـكن فى الجنوب ظلت غانا الوثنية التى كانت موضع الـكراهية المرة من كل فرد فى العشيرة — مستقلة وتتمتع بكل حريتها التجارية . تجارتها النشطة مع المغرب لا يزعجها الإضطراب السياسى الذى خلقه المرابطون . وفصل التجارة عن السياسة أمر ليس شاذا ولـكنه كان شيئا مميزا لشمال إفريقيا . فليو الافريقى يروى كيف كانت بعض قبائل أطلس التى كانت فى حالة حرب دائمة مع بعضها، تعقد الهدنات المنتظمة من أجل ضمان إستمرار أسواقها الداخلية . كما لم تتوقف التجارة من شاطىء البحر المتوسط خلال القرون الطويلة من الصراع مع أوروبا المسيحية والولايات البربرية . إذ لم تتأثر بها إلا قليلا . إلى حد أن كلا من المسيحيين والمسلمين ظلوا يترددون على أسواق بعضها دون خوف، وقد ترك لنا البكرى قصة عن كومبى عاصمة غانا تقوم على المعلومات التى حصل عليها من التجار البربر الذين عرفوا المدينة الزنجية معرفة جيدة . وهو يؤكد دائما كل القصص التى تدور حول عظمة البلاط والنشاط التجارى ، وهما مظهرا الحياة اللذان كانا يؤثران أكبر الأثر على التجار الأجانب فكانت العاصمة تنقسم إلى مدينتين منفصلتين يبعدان عن بعضهما قرابة ستة أميال وكانت إحدى المدينتين مخصصة للسكان المسلمين وكان بها إثنا عشر مسجدا تجمع فيها الفقهاء البارزون، بينما كانت الأخرى وقد أطلق عليها إسم الغابة للوثنيين وكان بها مجلس البلاط .

وكانت معظم مساكن غانا من أكواخ الطين المسقفة بالقش ولكن كان بها أيضاً بعض منازل من الحجر .

وأخذت الغابة إسمها من الآجام التى كانت تحيط بها . وهذه الآجام — التى ربما لاتكون أكثر من أشواك كثيفة — كانت تحرس المدينة من خوف دخول الدخلاء لأنها كانت مركز الحياة الروحية للشعب، وفيها مسكن الكهنة الذين كانوا يخدمون الآلهة الوطنية ، ولا شك أنهم مارسوا الطقوس التى تؤدى دائماً لعبادة الأرواح فى غرب إفريقيا . كما كان بها مقابر الملوك والسجون التى لم يكن يعود أحد من سكانها .

وكان الملك مركز البلاط ،حيث كانت تقام الإحتفالات والإستعراضات الفخمة المختلفة لتصور مشاهد ربما أعطت فكرة غير مبالغ فيها كثيرا عن موارد الدولة وثروتها . وفى خلال المقابلة كان الملك الذى تزينه الجواهر وأغطية الرأس المذهبة يجلس فى مجلسه وقد وقفت حوله عشر أفراس مطهمة بالذهب ، وخلف العرش يقف حشد من الأتباع يمسكون بالدروع والسيوف المذهبة ، وإلى اليمين يقف أبناء الأمراء التابعين ، تكسوهم الحلى التى تعلو شعورهم، وأمام الملك يجلس الوزراء وبين يديه حكام المدينة. وكانت الكلاب تحرس المكان، وفى رقابها الأطواق ذات الأجراس الذهبية والفضية، وكانت هذه كلها مراسم الملك الدائمة وقد شغل المسلمون بعض وظائف القصر ، منها خازن المال والمترجم بل كان الوزير عادة مسلما . وقبل أن تبدأ الاحتفالات تضرب الطبول الملكية (الدبا Deba) فيخر رعايا الملك الوثنيون سجدا ويهيلون التراب على رءوسهم . ويظهر المسلمون إحترامهم بالتصفيق.

واحتوت الخزائن الملكية صاجات الذهب رمز العظمة وكان حجمها كبيراً إلى حد أن أصبحت شهيرة فى جزء كبير من العالم المتمدين ، وذكر

الإدريسي أنها كانت تزن ثلاثين رطلا[١] وكان الملك يقيد حصانه بها ، وقد رفعتها الأساطير الشعبية إلى أحجام خرافيةوحين ذكر ابن خلدون فى القرن الرابع عشر حادثةبيع أمير مسرف لها إلى بعض تجار مصر قال أنها بلغت طنا، وعندما يموت الملك توضع جثته فيما يشبه القبة الخشبية على عدد من السجاجيد والوسائد وإلى جانبها توضع الملابس وكذلك الطعام والشراب . ويدفن معه جميع الخدم الذين كان عملهم ينحصر فى طبخ الطعام الملكى ثم تغطى المقبرة بالحصير ويهيل عليه المجتمعون التراب ليكونوا جبلا كبيرآ يحوطه خندق.

وليس لدينا معلومات كثيرة عن حياة الشعب ولكنهم زرعوا الذرة وغيرها من المحصولات كما مارسوا صيد السمك وكان الملك يطلب منهم دائماً أن يكونوا مستعدين للحرب ضد جيرانهم المعتدين ، أو من أجل القيام بالغارات لصيد الرقيق، ويقول البكرى أن الملك كان يستطيع أن يجند للحرب عددا يبلغ مائتى ألف رجل منهم أربعون ألفاً مسلحون بالأقواس والسهام (والباقون بالحراب فقط) .

ويقول الإدريسي أن العاصمة (كومبي) كانت أكبر أسواق السودان . اعتاد التجار من جميع أنحاء الغرب أن يتجمعوا فيها، وكانت مصدر ثروة غانه — كما رأينا — تجارة الذهب وكانت وفيرة إلى حد أن لا بد من التحكم فيما كان يعرض فى السوق من كمياته مخافة هبوط سعره ، وكانت وسيلة هذا التحكم صنع كل حاجات الملك وممتلكاته منه تاركين بقية الذهب فقط للتجارة .

وكتب ياقوت — وهو متأخراً قليلا عن البكرى — يصف تجارة الذهب فى

---

(١) وجدت ساجات تزن نصف هـذا الوزن و بامبوك Bambook حوالى سنة ١٩٠٠ .

الخرز[1] ليستبدلوا به الملح، فإذا ما مروا بتغازة كومبي وجدوا عملائهم في سجلماسة ودرعة — الذين يذهبون إلى السودان حاملين البضائع الرخيصة — في انتظارهم، وكان عامة الشعب يعرفون جيداً آداب التجارة الغريبة، وكان التجار عملاؤهم يسافرون نحو الجنوب عشرين يوما من أجل الوصول إلى السنغال، والمنظر الذى كان يتبع ذلك يشبه تماما ذلك الذى وصفه هيرودوت فى قصته عن تجارة القرطاجنيين فى الذهب فى نفس المكان من إفريقيا .

إذا ما وصل التجار شاطىء النهر ضربوا الطبل الكبير يدعون به الوطنيين العراة الذين يعيشون فى كهوف تحت الأرض . وكانوا يرفضون الخروج من هذه الكهوف — التى كانت ولاشك الأنفاق التى يستخرجون منها الذهب — فى حضور التجار الأجانب. ولذا كان هؤلاء يعرضون تجارتهم على شكل أكوام على ضفة النهر ثم يتراجعون بعيداً عن الأنظار ، وحينئذ يخرج الوطنيون ويضعون أكواماً من الذهب إلى جانب كل كوم من البضاعة ثم ينسحبون، وإذا ما رضى التجار بما وضع هؤلاء من ذهب أخذوه وتراجعوا وضربوا طبولهم ليعلنوا انتهاء السوق .

وقد حاول التجار فى إحدى المرات اكتشاف مصدر الذهب عن طريق الخيانة، حين قبضوا على أحد الزنوج . ولكن هذا الأخير فضل الموت على أن يقول كلمة واحدة ، فكان من نتيجة ذلك أن توقفت التجارة لثلاث سنوات ، ثم عادت لأنه لم يكن أمامهم من وسيلة أخرى للحصول على الملح .

وكتب المسعودى فى القرن التاسع يخبرنا أنه فى أيامه كانت هذه التجارة الصامتة معروفة فى سجلماسة، وفى القرن الخامس عشر أخبر العرب، وتجار صنهاجه كاداموستو Cadamosto أن هذه التجارة ما زالت باقية كما هى بل أن بعض

---

(١) كانت صناعة الخرز لأجل تجارة السودان صناعة هامة فى سبتة حيث كانت حجر الياقوت .

الرحالة المتأخرين — كما سنرى — وصفوها . وكانت التجارة الصامتة . أو دعوات الطبول وسيلة تناول الذهب فى وانجارا لقرون طويلة[1].

والطريقة الغريبة التى حصلت بها غانا على ذهبها، أضافت إلى سر موقع وانجارا الغامض البحث عن كيفية فرض الضرائب على مصادر المغاربة إلى أقصى ما يستطيعون وبعد ذلك ليصبحوا أحد الأهداف الرئيسية لفئة أو أكثر من المستكشفين الأوربيين وطالبى المخاطر منهم .

ولم تقتصر تجارة غانا الخارجية على الذهب بل حرص التجار من المغرب الأقصى وورجالا Wargala عاصمة Mzab على أن يقوموا بالرحلة الطويلة الخطرة عبر الصحراء ليشتروا أيضاً الرقيق الزنجى ليبيعوه فى الشمال . وقد اشتهرت كومبي بسوق الرقيق فيها . وكانوا يحرصون على أن يجعلوها دائماً مليئة به عن طريق الغارات على القبائل البدائية التى تعيش بين الأحراش عند الحدود الجنوبية، وكانت هى حرفة جميع السوادنيين العادية من المحيط الأطلنطى حتى البحر الأحمر. وقد حصلت غانا عادة على رقيقها من قبائل آكلى لحوم البشر الذين كان العرب يعرفونهم باسم لملم Lemlem أو دمدم[2] Demdem .

وإلى الغرب من غانا عبر السنغال تقع مملكة تكرور Tekrur التى لا يعرف عنها إلا القليل وبالرغم من أن اسمها كان أكثر الأسماء السودانية شيوعاً فى البلاد الأجنبية ،مما يوحى بأنها أكثر أهمية عما تنبيء مصادرها وقد أطلق الجغرافيون العرب المتقدمون اسمها على كل السودان الغربى فقد عرف ملوك مالى — ورثة

---

(١) ولكن هذه الطريقة الغريبة للتجارة كانت بعيدة عن أن تكون خاصة بتجارة الذهب فى غرب إفريقيا . فى القرن الأول الميلادى : كانت تجارة الحرير التى كان الرومان يتبادلونها مع الصينيين على ضفتى نهر بارثيا Parthia تجرى على هـذا النحو . كما وجدها فاهين Fa-Hein المكتشف الصينى فى القرن الخامس فى سيلان ، وبعد قرن قيل أنها كانت موجودة فى أثيوبيا . ويمكن أن نشير إلى أمثلة كثيرة لها فى أنحاء أخرى من العالم. وحتى الوقت الحديث كانت تمارس بواسطة الأقزام فى الكونغو وربما كانت موجودة حتى الآن .

(٢) نيام نيام التى يبدو أنها اختلاف آخر لاسم شائع الآن لأكلى لحوم البشر فى السودان الغربى . وكان أمراء الفولانى فى كانووراريا يستخدمون النيام نيام كمنفذى أحكام الإعدام . وكان أحدهم تابعاً فى قصر أمير كانوحتى سنة ١٩٢٥ .

عظمة غانا — فى مصر، بأنهم ملوك تكرور ويعرف كل سكان غرب السودان بهذا الاسم حتى الآن فى شرق السودان .

وفى القرن الحادى عشر كانت تكرور موطن التوكولور Tucolors الذين استقروا أخيرا فى فوتا Futa حيث مازالوا يعرفون بالتكارير . مثل سونكوغانا ، وكان التوكولور تجاراً نشطين إذ كانو يرسلون بالذهب والرقيق إلى المغرب ولكن يبدو أنهم كانوا أكثر اهتماما بتجارة محلية أخرى، فقد استوردوا الملح من أوليل Aulil عند مصب السنغال ليوزعوه على منطقة واسعة فى السودان الغربى وكانت صناعتهم الرئيسية ، نسيج نوع من القماش يسميه البكرى تشيجيا الذى لابد أن يكون هو نفس الغزلى Alchezeli الذى ذكر كاداموستو أنه كان يصنع محليا فى القرن الخامس عشر والشيج Chigge الذى اشتراه بارت فى تمبكتو فى القرن التاسع عشر .

ومن بين قبائل التوكولورالتى كانت موضع الإغارة عليها من أجل الرقيق قبائل فيراوى Ferawi الذين كانوا شديدى الحاجة إلى الملح — كما يذكر البكرى — فكانوا يستبدلونه بما يوازى وزنه من ذهب وكانت بلادهم تستخرجه .

وليس هناك حب مفقود بين التوكولور وسوننكى غانا أكثر مما كان بين الأخيرين والمرابطين، فبالرغم من أن كثيرين من السوننكى كانوامسلمين فإن دياناتهم لم تمنعهم من شغل الوظائف الكبيرة، فقد ظلت غانا وثنية فكونت خطراً على المرابطين أصحاب السيادة فى السودان الغربى . وكان كل من المرابطين يبطن أمل القضاء على هذه الدولة ، وهو مشروع لا بد أن أبا بكر فكر فيه حين سلم الجيش الشمالى إلى يوسف فى سنة ١٠٦٢ (٤٥٤هـ) وعاد إلى الصحراء، ولكن مضت أربع عشرة سنة أخرى حتى استولى على كومبى وقتل أهلها وفرض الإسلام على البلاد — التى أصبحت بما فيها من حقول الذهب أسلابا للمرابطين .

ولم تكن عواقب سقوط غانا ببعيدة الأثر كما كان ينتظر ، لأن انهيار قوة المرابطين فى الجنوب كان أسرع منها فى الشمال . وبتحطيم قوة العدو المشترك انبعثت من جديد الحزازات القبلية التى كان المرابطون قد أضعفوها فى أيامهم الأولى ، فبعض القبائل التى منها المسوفة رفضت أن تخدم تحت رئاسة أى زعيم من لمتونه التى كانت — كما كانوا هم — العمود الفقرى للجماعة ، وكذلك جداله التى كانت مبتعدة منذ البداية فظلت خارج النطاق . وموت أبى بكر فى سنة ١٠٨٧ (٤٨٠ هـ) قضى على تناسق المرابطين فى الصحراء . وظهر به التنافر . وبذلك استعاد سوننكى غانا فى مدى أقل من عقد استقلالهم ، ولكنهم كالمرابطين كانت النزعات القبلية تفتتهم وكل قبيلة من القبائل التى احتوتها ، فأعطت الدولة المتحدة قوتها أرادت لنفسها استقلالا كاملا ، ولم تقبل القيام بأية تضحية فى سبيل الصالح العام .

ففى سنة ١٢٠٣ (٦٠٠ هـ) استولت أقوى قبائلهم وهى السوس على كومبى فكان أن تهدم هذا السوق الهام وخرج التجار العرب وبعض أثرياء تجار السوننكى إلى الصحراء ، ليبنوا لأنفسهم من جديد مدينة جديدة تبعد مائة ميل إلى الشمال ، على أرض كانت القوافل تسميها ولاتا Walata ، وانتعش هذا السوق الجديد وأصبح واحدا من أهم الأسواق فى الصحراء الغربية ، بينما اختفت كومبى من التاريخ .

(٨)

منسا موسى

حين احتل السوس كومبى ساد أفقهم بعض الاضطراب بنمو قوة فرع آخر من جنسهم وهم ماندنجو مالى Mandingo of Mali وكانت حتى الآن دولة غير ذات أهمية تمتد من باخوى Bakhoy الأعلى شرقا عبر النيجر. وبخلاف السوس كان الماندنجو قد اعتنقوا الإسلام فى الأيام الأولى لحركة المرابطين، وربما كان سبب هذا بعض الحب المفقود بين القبيلتين، إذ كان السوس حين استولوا على كومبى يبحثون عن مطامعهم التى قد تتدخل فيها مالى، فأرادوا أن يهزوا هؤلاء الأعداء الأقوياء بقتل أحد عشر أخا هم ورثة عرش مالى. وكان هناك ثانى عشر لهم وهو سونداياتا Sundiata، ولكنه نجا من المذبحة لأنه كان طفلا معلول الصحة ولم يكن منتظراً أن يشفى. وكان هذا من حسن حظ مالى. كما كان من سوء حظ سوسو أن شفى سونداياتا وحين أدرك الرجولة انقلبت قدراته غير العادية إلى الناحية الطيبة إلى حد أن أصبح مؤسسا لإمبراطورية كبيرة. فبالرغم من انقضاء سبعة قرون بدون أية وثيقة مكتوبة لا يزال سونداياتا او مارى جاتا Marijata — كما أصبح يدعى — يعتبر البطل الوطنى للماندنجو.

وعندما اعتلى سونداياتا العرش كان مركزه دقيقا لا بسبب السوسو ولكن بسبب شعبه. الذى لم يحمل له الحب. ولذا أحاط نفسه بجماعة من ذوى الجراة الماثلة، فمكنوه أول كل شىء من أن يحفظ شعبه فى حالة من الهدوء، ثم من أن يمضى فى سلسلة من الحروب ضد جيرانه الضعفاء. وقدر له أن ينتصر فى كل حروبه، ومع كل نجاح حاز جيشه الخاص مزيدا

من القوة كما أصبح مركزه بين قومه لا يرقى إليه الشك، ولكنه حين فعل ذلك أثار أمر أنواع العداوة في السوسو لأنه كان قد اعتدى على أرضهم أثناء حملاته، فصمم السوسو على أن يبادئوه قبل أن تصبح مالي أكثر قوة، ولكن ذلك كان متأخرا، ففي سنة ١٢٣٥ (٦٣٣هـ) حطم جيشهم في كيرينا Kirina التي ربما كانت شمال كوليكورو Kulikoro مباشرة، واستولى على أرضهم وبذلك امتدت مالي نحو الشمال إلى الصحراء .

وحتى هذا الوقت كانت جريبا Jeriba عاصمة مالي، ولكن سونديانا نقلها إلى مدينة مجاورة هي نياني Niani التي أشير إليها في بعض الأوقات باسم مالي وفي البعض الآخر باسم ماندي Mande ، ولم ينزل سونديانا بنفسه إلى المعارك ثانية ولكن جيوشه استمرت تمد حدودها . وخاصة نحو الغرب حتى وصلت نهر جمبيا Gambia ومستنقعات تكرور ، وأصبحت مالي بذلك أقوى ممالك السودان الغربي وكانت مدينة بشهرتها العريضة في أوروبا لا إلى اتساع رقعتها، بل إلى الثروة التي استمدتها من حقول الذهب في وانجارا . وبالرغم من ذلك لم يكن الماندنجو سادة أرضهم، بل نازعهم إياها الوثنيون المشتغلون باستخراج الذهب ، إذ كان رد الأخيرين على جهود الفاتحين من أجل فرض الإسلام عليهم، هو التوقف عن الإنتاج . فلم يسع الماندنجو سوى أن يتركوا هذا الشعب وديانته، مقابل أن يستمر استخراجهم للذهب الذي توقفت تجارتهم عليه .

وبرهنت أسرة سونديانا على أنها كانت جديرة بمؤسسها ، ففي أثناء حكم حفيده منسا موسى[1] الذي اعتلى العرش سنة ١٣٠٧ (٦٠٧هـ) . بعد أن مات سونديانا بنصف قرن فانتشرت شهرة مالي إلى أوروبا والشرق الأدنى . وذلك بسبب قيامه بالحج إلى مكة، إذ ارتفع اسمه إلى الذروة في القاهرة والمدن الأخرى

---

(١) دعاه بعض الكتاب في بعض الأوقات كان كان موسا أو كونجوموسى لا سيما الكتاب الفرنسيون .

التى شهدت مرور قافلته الفخمة،حتى أصبح اسم ملك الماندنجو شهيراً فى جزء كبير من العالم المتمدين .

خرج منسا موسى للحج فى سنة ١٣٢٤(٧٢٥هـ)وهى السنة السابعة عشر من حكمه تصحبه جحافل من اتباعه من أهل وانجارا وولاتا وتوات Tuat،واختلفت الروايات بعد ذلك فى الطرق التى سلكها إلى القاهرة، وربما كان طريق ورجلا Wargala ، ثم تتبع شاطىء سرتس الذى كان يمد تجار أجزاء كثيرة من أوروبا بتجارة إفريقيا ، فكانت فرصة ليشهدوا العظمة التى لازمته قبل أن يصل القاهرة . إذ كان منسا موسى يمتطى جواداً يتقدمه خمسمائة رقيق، كل منهم يحمل كتلة من الذهب تزن خمسمائة مثقال[١] وفى القاهرة لم تكن العظمة التى أحاط بها الملك الزنجى نفسه هى التى سببت شهرته بل عطفه ، إذ كان لونه الذى وصف به بأنه أصفر أو أحمر غير متوقع ، واشترك فى إثارة الشعور الذى تركه ، فبالرغم من ضخامة رحلته فإن حجه يبدو أنه لم يكن ذا دوافع سياسية ، إذ رفض أولا أن يقدم الهبات المعتادة لسلطان المماليك بسبب عدم الرغبة فى تقبيل الأرض بين يديه،وأظهرت الترتيبات التى فعلها السلطان لراحة ضيفه خلال رحلته أنه لم يأل جهداً فى تكريمه، إذ لم يكن هناك أثر مطلقاً من الاحتقار التقليدى الذى يكنه الشرقيون للزنوج[٢] .

ووجد العمرى[٣] —الذى كان فى القاهرة بعد زيارة منسا موسى باثنتى عشرة سنة— أن الناس لايزالون يشيدون بمدحه. فصغار الموظفين الذين كثيراً مايتكالبون على الأغنياء ، يذكرون هداياه من الذهب الذى حمله معه ، إذ كان ٨٠ — ١٠٠ جملا يحمل كل منها ثلاثة قناطير (٣٠٠ رطل) ، كما استفاد آخرون من التجارة التى أتموها مع أتباعه إذ كان الواحد منهم يدفع بكل بساطة خمسة دنانير لثوب لم يكن يساوى أكثر من دينار واحد . وكانت

---

(١) يعادل المثقال $\frac{1}{8}$ أوقية

(٢) لا يكن الشرقيون احتقاراً ما للزنوج على ما يروى المؤلف وليس أدل على ذلك من مصاهرتهم لهم فى كثير من الأحيان .

(٣) هو ابن فضل الله العمرى صاحب المسالك والممالك .

النساء وملابسهن الرقيقة هى أشـد ما أعجبهم ، وحدث ولا حرج عن تبذير السودانيين وكرم ملـكهم الهائل فـكان أن طرح ذهب كثير فى السوق إلى حد أن هبطت قيمته هبوطا شديداً ولم يستعد الذهب سعره الأول إلى وقت قدوم العمرى .

ولم يقتصر توزيع منسا موسى لذهبه وثروته على القاهرة ، بل كان ينثر الذهب أينما ذهب ، وفى المدن المقدسةاستفاضت هداياه التى دلت على الـكرم، فليس من الصعب أن نصدق أنه حين عاد إلى القاهرة خلال عودته إلى وطنه كانت ثروته قد أتت إلى نهايتها،مما سببله بعض الحرج ولكنهلم يجد صعوبة فىأن يجد بعض التسهيلات الموقتة للملك الذى ينتج بلده الذهب على مدى آثار دهشةالكثيرين،وكان واحداً منالذين تقدموا لمساعدته تاجر من الأسكندرية، ذهب معه إلى السودان ليسترد ما أقرضه إياه، ومات الرجل فى تمبكتو ولكن منسا موسى دفع دينه كاملا لورثته .

وقبل أن يكمل رحلته إلى بلده سمع منسا موسى عن استيلاء أحد قواده على جاو Gao عاصمة الصنغاى . وكانت صنغاى مملكة تابعة له ولكنها هامة، تمتد على طول النيجر الأوسط ، لألف ميل ابتداء من حدود مالى ، فكان خبر إتساع أملاكه هو الذى جعل منسا موسى يعود مسرعاً ليزور جاو وهناك قدم له ملك صنغاى خضوعه الشخصى ، ولكن ليتأكد من إخلاص تابعه الجديد أخذ معه إلى مالى اثنين من أبناء هذا الأخير كرهينة وهما على كولن Ali kolen وسليمان نار .

وضمت حاشية منسا موسى شاعراً أندلسيا اتصل به فى مكة،وظل يتابعه حتى دخل خدمته ويسمى بالساحلى وكانإلى جانب كونه شاعراً — مهندسا، فكان أول عمل أوكله إليه سيده الجديد ان يستبدل بالبناء القديم للمسجد بناء جديداً أليق بعبادة الله . وبنى المسجد الجديد — الذى ظل قائماً

ثلاثمائة سنة والذى مازال أساسه قائماً ـ من الأجر،الأمر الذى لم يكن معروفاً حتى هذا الوقت فى السودان .

وكانت هناك مدينة فى صنغاى التى طالما نافست جاو الأهمية وتقع فى طريق أوبة منسا موسى إلى وطنه عند النيجر وهى تمبكتو . وكانت مكان اللقاء لهؤلاء الذين كانوا يسافرون براً أو الذين يسافرون بحراً سواء من بدو الصحراء أو من الذين يقطنون جانبي النيجر . إذ كانوا يتقابلون فيها لمبادلة الملح والبلح وتجارة المغرب بالقمح وحبوب الكولا وتبر الذهب من السودان وفى سنة ١١٠٠ بدأت خيام البدو تخلى مكانها لأكواخ الحشائش ، وهذه بدورها لمساكن مستديمة من اللبن كتلك الموجودة الآن هناك ، وبعد قرنين أصبحت مركزاً للتجارة المارة بين جنى Jenne وولاتا كما أصبحت قرية الصيد كبارا Kabara المجاورة ميناء لها . وكان موقعها بالقرب من طريق مائى يتحكم فى جزء كبير من السودان الغربى قد أعطى تمبكتو ميزة كبيرة على الأسواق المجاورة التى أخذت تجارتها فى الوهن .

وكان طبيعياً أن تأتى الثروة التجارية معها بكل من الثروة والثقافة ، فتحكمت تمبكتو فى تجارة ولاتا . ثم فى ثقافتها وكان كلاهما فى يد رجال جدالة. ومثقى الصحراء،وكانوا مستعدين دائما ليأقلموا أنفسهم تبعا للظروف المتقلبة، وكانوا قد جاءوا أصلا من أدرار Adrar فى موريتانيا،ولكنهم هاجروا إلى كومبي حين أصبحت سوقا هامة . وحين احتل السوسو كومبي فى بداية القرن الثالث عشر انضمت جدالة المهاجرة إلى المكان الجديد فى ولاتا ، فأنشأوا هناك مركزاً للعلم وحين بدأت ولاتا تفقد تجارتها إلى تمبكتو تبعتها جدالة . وظلوا هناك طويلا معلمين كما كانوا تجاراً،فكانوا أول من أعطى المدينة سمعتها كمركز من مراكز العلم كما زودوها بالأئمة المتعلمين بصفة منتظمة من أجل

مسجدها . وكان أكبر أساتذة جدالة أحمد بابا المؤرخ الذى كثيراً ما أشار إليه السعدى[1] .

وفى أيام منسا موسى استقرت التجارة والأدب فى تمبكتو،واستفاد كلاهما من تغير الحاكم فبدأ الساحلى للوقت فى بناء مسجد جديد وقصر للملك . وأصبحت المدينة بسرعة أهم أسواق الداخل،وجذبت شهرتها كمركز رئيسى لتبر الذهب التجار من جميع الأنحاء ،من درعة وسوس وسجلماسة وفاس ومن المغرب الأقصى ومن توات وغدامس وفزان وعجيلة فى الصحراء . وأيضا من مصر وهى التى كانت تجارتها مع السودان قد تعززت منذ رحلة منسا موسى للحج وقدم مع التجار المتعلمون ورجال الدين من بلاد كثيرة ليجتمعوا حول مشهورى علماء جدالة فى جامع سنكور Sankore .

ومات منسا موسى سنة ١٣٣٢(٧٣٣هـ)وترك وراءه إمبراطورية اشتهرت بين الممالك الإفريقية الخالصة باتساع رقعتها وثروتها .كمثل قوى لقدرةالزنوج على التنظيم السياسى، امتدت من تكرور فى الغرب إلى جاو فى الشرق وما وراءها. وضمت جزءاً كبيراً من الصحراء وامتدت جنوبا حتى الغابات ومما يثير الدهشة إلى حد كبير ، أن المدينة الصغيرة جنى — رغم أهميتها الثقافية والتجارية وموقعها على مسافة أيام قليلة من نيانى والتى تحميها شبكة من القنوات المائية ظلت تحافظ على استقلالها .

---

(١) ولكن تجارة جداله وعلمها لم يقتصرا على غرب الصحراء ،فقد أسس أهل جدالة أنفسهم فى مراكش ثم فى البرتغال وربما يكون ذلك عن طريق التصاهر فى إفريقيا مع اليهود البرتغاليين ، وفى القرن الخامس عشر كان طبيب دوارت Duarte ملك البرتغال رجل يسمى جويدالها Guedalha وكان أيضاً الفلكى الملكى ، ويظن أن له ضلعاً فى تعليم الفروسية للأمير هنرى الملاح وقد أشير إليه فى حوليات غانة The Chronicles of Guinea وفى القرن التاسع عشر كان أهم بيت تجارى فى مراكش يسمى جويدالا وشركاه .

وشهد حكم منسا موسى إتساعا كبيراً فى تجارة مالى بسبب المرونة التى أقام بها علاقته مع الخارج ، فبخلاف الصداقة التى أقامها مع مصر والجزيرة العربية بفضل رحلة الحج المشهورة التى قام بها كان على صلات طيبة ببنى مرين فى فاس . وكان فى الواقع أول من اخترق الستار الحديدى للحاجز اللونى الذى كثيراً ما أبعد الزنوج عن العالم المتمدين . ليكسب للإفريقيين الخلص قدراً يسيراً من الاحترام يعود الفضل فيه إليه حتى اليوم .

وهناك كثير من الأدلة على ما اكتسبته مالى وحاكمها العظيم من الشهرة والعزة توجد فى (خريطة العالم) التى رسمها راسمو الخرائط الأوروبيون حين كانوا للمرة الأولى يحاولون أولى محاولاتهم ليصوروا داخل إفريقيا ، فمن أوائل المصادر التى أشارت إلى مالى وملكها (خريطة العالم) التى رسمها إنجلينو دولسرت Angelino Dulcert الميورقى وهى مؤرخة فى سنة ١٣٣٩ أى بعد سبع سنين فقط من موت منسا موسى فقد وضع فى وسط الصحراء الغربية عرشا عليه تمثال كساه بالثياب الملكية وعلى رأسه تاج وذكر أنه ملك مالى . وبدأ راسمو الخرائط يثيرون التساؤل عن منسا موسى . وكيفية الوصول إلى بلده . ورسم دولسرت جبال أطلس وقد قطعها وادى سوس الذى يقود إلى ملك الزنوج . وكان اهتمام الأوروبيين بالداخل تجاريا محضا وقد أظهرت إحدى طبعات خريطة العالم التى رسمها بيزيجانى Pizzigani البندقى والمؤرخ فى سنة ١٣٦٧ جبال أطلس وقد كسرت بنفس الطريق الذى يأتى من ملك مالى — وأطلس كاتلان Catlan المشهور الذى رسم أيام شارل الخامس بواسطة ابراهام كرسكس Abraham Cresques فى سنة ١٣٧٥ أظهر فى وسط الصحراء رجلا ملثما راكباً جملا متجها إلى ملك جالس على عرش لابساً ملابس ملكية وتاجاً ، ممسكا بالصولجان فى إحدى يديه والصاجات الذهبية فى اليد الأخرى ، وهو يناولها إلى الراكب . وقد كتب تحت هذا الملك الزنجى (منسا موسى ملك الزنوج فى غانة والذهب كثير فى مملكته إلى حد أن أصبح أغنى وأنبل ملك فى العالم) .

وظلت شهرة هذا الملك الزنجى العظيم مستفيضة زمنا . واعتقد الناس إنه ليس أقل شخصية من الملك الأسطورى القس حنا، وإحدى الخرائط الاخيرة التى ظهر فيها منسا موسى تلك التى رسمها فالدسى مولر Waldseemuller فى سنة ١٥١٦، ويبدو أنها أخذت تختفى من الأطالس بعد ذلك نتيجة للضوء الذى ألقاه ليو الإفريقى[1] على وسط إفريقيا .

---

(١) كان راسمو الخرائط يجدون صعوبة فى إظهار ملامح الزنوج وخاصة شعرهم القصير والتجرد عن الملابس تحت تأثير ما لديهم من أفكار عما يجب أن يكون عليه الملك . فنى رأيهم أن لابد للملك أن يكون ملتحياً وقد رسم دولسرت لمنسا موسى ذقنا صغيرة ولكنها كثيرة الشعر ولم يكن هذا موحياً بما فيه الكفاية للراسمين المتأخرين . ولذا أعطوه ذقناً طويلة . وبمرور الزمن نما الشعور بأن منسا موسى بالرغم من سواد بشرته لابد أن يكون منظره كالأوروبين ، ولذا بدأ يظهر متوجاً وجالساً على عرش ويلبس الملابس الملكية ، ولكن الثوب مشقوق كى يصبح جبة أو عارياً تماماً . ولم يهمل الراسمون الفرصة التى أعطتهم إياها هذه الفكرة ليؤكدوا الملامح الزنجية للزنوج .

(٩)

ابن بطوطـــة

بعد موت منسا موسى بدأ حظ مالى يخبو بسبب عدم كفاءة خلفائه وجنوحهم نحو المفاسد،فانتقل العرش أولا إلى ابنه ماغان Maghan الذى حكم أربع سنين فقط . سمحت لميراثه العظيم أن يقاسى من سوءتين مهمتين أحداهما كانت محطمة له . فبعد اعتلائه العرش بقليل اكتسح موسى ، Mossi المحارب العظيم ياتنجا Yatenga على أعالى الفولتـــا مدينة تمبكتو . وحطم حاميـة المـاندنجو وأحرق المدينة ، وفى فرصة سيئـة كانت سفارة من أبى الحسن أكبر سلاطين بنى مرين فى فاس التى تعنى بالتجارة مع (الماندنجو) قد وصلت إلى تمبكتو فى هذا الوقت ،ثم وقعت حادثة أخرى كانت ذات نتائج أكثر أهمية. إذ سمح ماغان دون حرص لأميرى صنغاى على كولن وسليمان نار بالحرية التامة وكان أبوه قد احتفظ بهما رهينة عند الإستيلاء على جاو ، وسرعان ما رأى الأميران فى تغيير الملك فرصة لبلدهما ليستردا استقلاله فدبرا أن يهربا من جاو ويطردا الماندنجو من العاصمة . وأعلن على كولن نفسه ملكا على صنغاى،وتحصن فى عاصمة والده القديمة حتى لا يستطيع أحد طرده منها،وخلف ماغان عمه سليمان أخو منسا موسى وعمل كثيراً ليستعيد جاو واستعاد السيطرة على معظم أملاكه وقام بالحج إلى مكة فى سنة ١٣٥١ (٧٥٢هـ) مما أعطاه فرصة ليعيد إلى سلطة الماندنجو أغلب أجزاء الإمبراطورية البعيدة فى الطريق الذى اجتازه . ومن بينها أهم أجزاء مالى وهى مدينة تاكدا Takedda التى كانت مركزاً هاما لتجارة القوافل ومازال موقعها غير معروف تماما ولكنها كانت تقع بين جاو وايرى على طريق الحج عبر الصحراء.واستناداً إلى ابن خلدون كانت على مسيرة سبعين يوماً جنوبا بغرب من ورجالا التى

كانت على صلات تجارية وثيقة بها . وقد اعتادت أن تمر بها قافلة واحدة فى السنة مكونة من اثنى عشر ألف جملا فى طريقها من نيانى إلى القاهرة ، ورغم ما فى هذه الرواية من مبالغة فإنها ترينا أن التجارة بين مالى ومصر كانت على قدر من الأهمية . فتاكدا مع ذلك لم تكن تدين بانتعاشها للتجارة المارة بها فحسب ولكن إلى مناجم النحاس التى كانت مصر والمغرب ومالى ودول الهوسا وبرنو تحصل منها على كميات من هذا المعدن النفيس إذ قال منسا موسى مرة أن هذه المناجم كانت أهم مصادر دخله[1] .

وأهم حوادث عصر سليمان هى زيارة الرحالة المشهور ابن بطوطة لمالى ، ونحن ندين لما كتبه عنها بكثير من معلوماتنا عن العالم الإسلامى فى النصف الأول من القرن الرابع عشر. فقد أرسله إلى السودان السلطان أبو عنان (٧٤٩ — ٧٥٩) الذى استولى على عرش مراكش العظيم من أبيه أبو الحسن . فخرج فى سنة ١٣٥٢ (٧٥٣هـ) وسلك طريق سجلماسة حيث رست قافلته فى تغازة Taghza فى مكان يسمى تاسرهلا التى كانت مركزاً بعض الأعلى همية تتوقف فيه القوافل الصحراوية ومكثت قافلته هناك بضعة أيام لتصلح وتملأ قرب المـاء ومن هناك أرسلوا التكشيف وهو رسول من المسوفة كان يسبق القافلة إلى ولاتا ليعلن وصولها وليرسل منها الماء ليقابل القافلة فى الصحراء وإذا حدث أن فشل التكشيف فى الوصول وفشل معه إرسال المـاء فقد تهلك القافلة فى الصحراء .

وفى هذه الفرصة كان التكشيف — الذى يدفع له مائة مثقال من الذهب من أجل خدمته هذه — كفيفا فى الغالب وهذه النقطة جديرة بالعناية فليو الإفريقى الذى سافر فى نفس الطريق بعد هذا الزمن بقرن ونصف، يذكر أن قافلة ضلت طريقها قد أنقذها دليل أعمى كان يركب جملا حين

---

(١) اكتشفت بقايا هذه المناجم فى ازليك Azelik بواسطة مونى فى سنة ١٩٥٩

طلب فأعطى له فى آخر كل ميـــل حفنة من الرمل فيشمها ثم يعلن موقع المكان[1] .

ولحسن الحظ سار كل شىء حسناً لابن بطوطة الذى يسجل السرور الذى أحسه هو وجماعته بعد خروجهم من تاسرهلا له بسبعة أيام حين رأوا نار من خرجوا لإستقبالهم .

---

(١) فى الأيام الحالية اعتاد دليل أعمى أن يقود القافلة عبر ٩٠ ميلا بدون ماء بين أم قوبور Umm Qubur فى تلال البحر الأحمر ووادى النيل (موراى . أبناء إسماعيل ص٦٦) وفى تجربة الـكاتب أن الإفريقيين ليسوا بأحسن من الأوروبيين فى معرفة الطريق فى أرض مجهولة ، ولـكن يبدو أن لهؤلاء الأكثر بداوة والمعتادون على السفر لمسافات طويلة حاسة الإتجاه التى تعطيهم استقلالا كبيراً فى النظر. أما الرجل المتمدين فإنه لا يفقد نفس الحاسة ، فى الحرب العالمية الثانية أدهش كابتن من صيادى السمك ــ فى بحر الشمال البحرية الملـكية حين وجد طريق عودته خلال ضباب كثيف بدون استعمال الآلات ، فنى بعض الظروف كما تبين عبارة ليو ـــ تـكون حاسة اللمس والشم قوية إلى حد أنها تقود أكثر من النظر فملدرد كابل مثلا Mildred Cable (فى كتابه صحراء جوبى ص ١١) يروى كيف أن بعض الحصى الملتقط على مدى واسع قد يعاد إلى المنطقة التى جمع منها ، وإلى مثل ذلك ذكر شو للمؤلف كيف أن الحصى على ساحل شيسل مرتب جداً إلى حد أن الصيادين حين يطأونه بأقدامهم فى الليل يستطيعون أن يعرفوا فى أى مكان من الشاطىء نزلوا . ويروى المستـكشف دنهام (تقرير الجمعية الجغرافية لسنة ١٩٣٦/٣٥ ص ١٠٩) كيف أن العرب فى الصحراء جنوبى فزان يعرفون فى بعض الأوقات بشم الأرض أين تـكون الينابيع ،ولم يخطئوا أبداً فى التعرف على الموقع .

واستعمال الأدلاء الـكفيفين الذين ترشدهم حاسة الشم فى الصحراء سجلها أيضاً توماس بلو Thomas Pello فى كتابه (مخاطرات ١٨٩٠ ص ١٩٥ — ١٩٩) وجاكسون (قصة عن مراكش ١٨٠٩ ص ٢٤٠) ، (وقصة عن تمبـكتو سنة ١٨٢٠ ص ٥) وقد سجلت مذكرات كثير من الرحالة فى الصحراء إن هؤلاء الأدلاء الـكفيفين قد أدوا خدمات لم يستطع الأدلاء المبصرون أن يؤدوها .

بعد شهرين من تركه سجلماسة ، وصلت القافلة إلى ولاتا أكثر مراكز
مالى تطرفا نحو الشمال والمعبر إلى السودان ، حيث كان لإبن بطوطة صديق
تاجر من سلا وكان قد كتب إليه أن يؤجر له منزلا . وبذا تأكدنا
من كل الجهود قد بذلت لتكريم الزائر الممتاز وبالرغم من ذلك بأنه
برهن على أنه ضيف ثقيل فلم يكد يصل حتى أسف على قدومه ، لأنه وجد
سكانها زنوجاً — وهم الذين لم يتعود أن يراهم سوى رقيقاً — يعاملون
معاملة الأسياد فى بلادهم،ولذا تألم كثيراً حين أكد كم هو مشين لرجل عرف
جميع الدول الإسلامية من مراكش حتى الصين أن يزور دولة زنجية . فرفض
أن يلبى دعوة موظف من الماندنجو دعاه إلى زيارة منزله . وتحايل رفاقه
عليه ليحملوه على الزيارة ولكنه رفض .

(واستدعى (مشرف ابو الاتن) من جاء بالقافلة إلى ضيافته) فأبيت من
حضور ذلك ، فعزم الأصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن توجه . ثم أتى
بالضيافة وهى جريش انلى مخلوطا بيسير عسل ولبن قد وضعوه فى نصف
قرعة صيروه شبه الجفنة،فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم ألهذا دعانا
الأسود ، قالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم ، فأيقنت حينئذ أن لا خير
يرتجى منهم) ، ولذا عزم على أن يعود إلى مراكش مع قافلة من قوافل الحج
كانت على وشك الرحيل ، ولحسن الحظ قرر أنه من الأفضل أولا — وقد
ذهب بعيداً — أن يذهب ليرى العاصمة .

وقبل أن يكمل رحلته أمضى بضعة أيام أخرى فى ولاتا ويخبرنا أنه
وجدها شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون فى ظلالها البطيخ وماؤها
من أحساء بها ، ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر
السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال) .
كما رأى أن (امرهم غريب فنساءهم لا يحتشمن من الرجال فأما رجالهم فلا
غيرة لديهم) .

ورحل ابن بطوطة إلى نيانى مع رفاق ثلاث ودليل ، وكانت الدولة قد استقرت يسودها السلام إلى حد أن لم تعد حاجة إلى السفر فى صحبته ورغم أنها كانت على مسافة أربعة وعشرين يوما فإنهم لم يحملوا طعاما أو ذهبا أو فضة. بل الملح والخرز والبضائع المقايضة ، إذ كانوا قادرين على أن يحصلوا على مختلف الطعام من كل قرية يأتون إليها، وعندما عبر النيجر ظن ابن بطوطة أنه نيل مصر فوصفه وهو يجتاز تمبكتو وجاو ومولي بين بلاد الليميين ثم إلى يوفى وربما تكون نوبى فى نيجيريا . وكان ظنه أنه يصف النيل مما جعله يقع فى خطئه فيقول . . ومن يوفى (ينحدر إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم إلى دنقلة وهى أكبر بلادهم) .

وفى نيانى وجد ابن بطوطه نفسه بين مواطنيه الذين احتفوا به وأكرموه، ولكنه مرض عقب وصوله واعتنى به طبيب مصرى وعندما تعافى وذهب لزيارة سليمان فى قصره وجد من مظاهر الحضارة ماهو جدير بالتسجيل تفصيلا. (والسودان أكثر الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له . . . فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه . . . نزع ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشيته وسخة . . . ورمى بالتراب على رأسه وظهره . وعلامة الإستحسان نزع القسى شكراً للسلطان . والتضحية بماعزين يراد بها إبعاد العين الشريرة) وعندما كان فى القصر كان هناك بعض آكلى لحوم البشر من وانجارا فيصف مارآه فيقول (أكرمهم السلطان وأعطاهم فى الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين . وأخبرت أن عادتهم متى وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك) .

وبالرغم من أن طريقة سليمان فى الترحيب برعيته من أهل وانجارا أكدت أسوا انطباعات ابن بطوطة، إلا أنه حين ازداد معرفة بالسودانيين تبين له بعض صفاتهم الحسنة ، وخاصة حبهم للعدل وحفظهم الأمن على طول الطريق ، ولم يكن فى الواقع يملك دليلا على عطفهم وشرورهم — كما سنرى — أكثر مما

ذكره زميله ليو الإفريقى والمستكشفون الأوربيون فى الأيام الأخيرة .

(فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم . فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً فى شىء منه، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه،ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها . . . . ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات . ومن عادتهم فى رمضان أن يفطروا بدار السلطان ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون وما فوقهن من جواريه وهن عرايا ، ومنها دخول النساء على السلطان وهن عرايا غير مستترات وتعرى بناته . ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا . . ومنها أن كثيرين منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير) .

ويبدو أن ابن بطوطة قد سر من إقامته فى نيانى إذ مكث بها ثمانية أشهر وخرج يقصد تمبكتو فى آخر فبراير سنة ١٣٥٣ (الثانى والعشرين من محرم سنة ٧٥٤) راكباً جملا ، لأنه لم يكن يملك مائة مثقال من الذهب يدفعها لحصان ، لم يفكر كثيراً فى مدينة تمبكتو لأنه يخبرنا أكثر عن الناس فيقول(أنهم مثل أهل ايوالاتن مسوفه طوارق) ثم يشير إلى قبر الساحلى الشاعر المهندس الأندلسى . ومن هنا تابع رحلته بحراً متتبعا النيجر فى قارب منحوت وتوقف فى قرى صنغاى حيث حصل على اللحم والزبد بديلا عن الملح والبهار والزجاج والخرز ، وفى إحدى هذه القرى أعطى عبداً ظل معه عدة سنين إلى وقت كتابته رحلته . وذكر أن جاو أحسن مدن السودان ولكن ليس فيها ما هو جدير بالذكر . وبعد شهر رحل إلى تكدا فى قافلة كبيرة للتجار

من غدامس (ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب وسواها ، ولأهلها رفاهية وسعة حال. يتفاخرون بكثرة العبيد والخدم ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكثير — ومعدن النحاس بخارج تكدا . ويحملون النحاس منها إلى كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاى وإلى بلاد برنو على مسيرة أربعين يوما من تكدا) وبينما هو هنالك استدعى ليعود إلى فاس نخرج إليها فى قافلة ضمت ستمائة من النساء الرقيق وعاد عن طريق إيرى وتوات وسجلماسة .

ومن المستحيل أن تقرأ رحلة ابن بطوطة عن السودان دون أن يأخذك مدى نشاطه التجارى ففى هذا الوقت تبدو حركة قوافل الطرق الصحراوية أنها كانت نشطة وأن الروابط بين المغرب والسودان دينية وقوية . ونحن نعرف بعض تنظيم تجارة السودان من الطريقة التى كان تاجر كبير من تجار تلمسان يدير بها شؤونه. إذ تكونت شركة من خمسة إخوات يسمون بالمقرى وكانوا شركاء متساوين . يقيم اثنان منهم فى ولاتا حيث يجمعان العاج ، وفى بعض الأوقات يزوران الأسواق الهامة فى الجنوب، وكان اثنان آخران يقيمان فى تلمسان ويحرصان على تزويد الآخرين بالتجارة الأوربية، أما الخامس فكان رئيس الشركة واستقر فى سجلماسة التى كانت لا تزال أهم مراكز الشمال فى تجارة القوافل ، حيث كان قادراً على أن يراقب الأسواق عن قرب ويرسل إلى بقية إخوانه عن أسعار البضائع . ولابد إنه كان هناك آخرون مثل إخوان المقرى إلى حد أن أبا هشام Haccam ملك تلمسان تذكرهم حين قال فى بداية القرن أنه يسره أن ينفى جميع التجار إلا هؤلاء الذين يتاجرون مع السودان فهؤلاء سبب ثروة مملكته بينما الآخرون يفقرونها .

ومع بداية القرن الخامس عشر لم تعد قوة مالى أكثر من شبح باهت لما كانت عليه أيام منسا موسى إذ فقد الماندنجو سيادتهم على تكرور

وربما على الجزء الأكبر من صنغاى، وبالرغم مما كان لهم من صلات وثيقة مع تمبكتو ، فمدى أثر الماندنجو فى الصحراء كان دائما موضع الشك . واستنادا إلى ابن خلدون كان اتحاد قبائل صنهاجة من الطوارق لا يزال يدفع الجزية إلى ملك مالى ويدعونه ملك السودان أو ملك أرض الزنوج[1] . ويقول أنهم يكونون فرق جيش الماندنجو ، ومنها عرفنا كثيراً عن شعوب الصحراء المتكبرة ولكننا نستطيع أن نشك ما إذا كان ذلك يصور حقيقة العلاقات بينه وبين جيرانهم الزنوج .

(١) أحد ألقاب أمير كونتاجورا النيجيرية Kontagora الموروثة هو ساركين Sarkin السودان وهو هوسا لملك السودان .

(١٠)

صـــــنغاى

يضطرب مجرى الجزء الأوسط من نهر النيجر عند نقطتين وهما كينى Kenié جنوبى باماكو Bamako وبوسا Busa حيث تشتد سرعة الماء الذى غرق فيه منجو بارك Mungo Park ، وبين هاتين النقطتين تستقيم الملاحة مسافة ألف ميل ينحنى فيها نهر النيجر انحناءته الكبرى نحو الشمال وتحف بالنهر فى هذه المنطقة مساحات كبيرة من نبات البورجو الشديدة التكاثف. وهو نوع من الحشائش المغذية للحيوان وإليها يأتى الأهالى بماشيتهم من مسافات بعيدة . وتزدحم الضفتان بكثير من الكسور والمداخل . كما يزدحم المجرى بالجزر وتمتد إلى الجنوب والشمال مساحة كبيرة من الصحراء . والجنوب هو موطن الطوارق كما هو الحال فى الشمال . وفى خلال عصور تاريخ السودان الغربى كان منحنى النيجر دائما مأوى للمظلومين ، إذ أعطت هذه الكسور المختبئة التى لا عـــدد لها والكهوف التى يصعب الصعود إليها الأمان للاجئين . كما أعطاهم البورجو الطعام لحيواناتهم .

والنيجر الأوسط كان أكثر من مجرد ملجأ للاجئ ، إذ أنه موطن الصنغاى وهو شعب زنجى — كان قبل أن تلم بهم النكبة — قد لعب دورا هاما فى تاريخ شمال غرب إفريقيا . وهو يتكون من عشيرتين هما السوركو Sorko الصيادون والجابيبى Gabibi الزراع ، وموطنهم الأصلى كان قبل ذلك فى دندى Dendi فى النيجر الأدنى شمالى بوسا بقليل . ثم انتشروا على طول المجرى إلى تمبكتو والبحيرات الكبيرة التى وراءها[1] وفى القرن التاسع

---

(١) ما زالوا يسمون الضفة اليمنى من النهر جورما Gurma واليسرى هوسا Hausa كما فعلوا فى دندى وما زالت هذه الأسماء شائعة على طول النهر وكذلك بحيرة دوبو Dobo

غزتهم قبائل لمتة البدوية من الشمال والطوارق تحت قيادة ذا اليمين الذى ذبح عمدة صنغاى إله النهر وأسس أسرة استمرت لعدة قرون .

وعاصمة صنغاى هى جاو وتقع على الضفة اليسرى للنيجر حيث يتصل به وادى تلمسى Tilemsi متحدراً إليه من قلب الصحراء . وفى القرن الحادى عشر اعتنقت لمتة — التى هى أغنى الرعايا — الإسلام ولكن أغلبية الصنغاى ظلوا وثنيين واتقسمت جاو مثل كومبى إلى جيين ، أحدهما للمسلمين والآخر للوثنيين[1] . وظلت لمدة طويلة سوقا هامة جذبت إليها تجار البربر .

وعلى مسيرة بضعة أيام مع وادى تلمسى فى منطقة أدرار Adrar الجبلية عند إيفوغاس Efoghas كانت تقع تدمكا Tedmekka إحدى أسواق الصحراء الهامة . وأطلق عليها العرب اسم السوق . وما زالت خرائبها تحمل هذا الإسم وكانت فى القرن الحادى عشر تتبادل التجارة مع القيروان وغدامس فى الشمال . ومع السودان فى الجنوب وكان عملتها ذهبا غير مسكوك . وإلى الشرق من جاو وإلى الخارج من الصحراء يقع السوق الثالث الهام لهذا الجزء من داخل إفريقيا . بلد مناجم النحاس تاكدا Takedda التى تقع على نهر ملاحى[2] وتتصل اتصالا سهلا بالأسواق

---

(١) يقول البكرى أن العرب عرفوا أهل جاو باسم بوزورجانين Buzurganiyin أو بصر كايين Basar Cayin وليس المقصود بهذه الكلمة الوطنيون بل التجار الأجانب القادمون من المغرب تمييزاً لهم عن العرب ، وهم تجار كانو وألورى بورنو ويحسن بنا أن نلم بحكام صنغاى الأولين . وأثر المرابطين على النيجر الأوسط حين اكتشف فى سنة ١٩٢٩ بعض شواهد القبور التى تعود إلى القرن الثانى عشر . وهى منقوشة بالعربية والأسبانية ومن ثم درس جيداً موقع مدينة جاو .

(٢) إذا كان النيجر قد مون تمونيا طيباً بالخشب لأصبح أكثر قيمة لصنغاى إذ تحف الصحراء بمعظم الطريق من تمبكتو إلى جاو وهناك قليل من الشجر غير النخيل . وهى مادة خفيفة تصنع منها جميع قوارب النيجر الأوسط . وفى مناسبة ما حين كان اسكيا داود يريد بناء مسجد فى تمبكتو استورد الخشب عن طريق النهر .

الأخرى تدمكا وتدمكت وكانت جاو مضاعفة الأمان فى مكان يتحكم فى تجارة السودان الغربى .

ومعلوماتنا عن صنغاى بين القرنين الحـــادى عشر والرابع عشر قليلة ولكنها دليل الأهمية التى علقها منسا موسى على إستيلائه على جاو فبعد تحرير المدينة بواسطة على كولن وأخيه بقرن ، قنع أهل جاو من الصنغاى بالدفاع عن أنفسهم وحريتهم ضد ماندنجو مالى . فقوة الأخيرين كانت تسير دائما إلى الوهن ، والطوارق يقودهم اكيل اج ملول Akil eg Milwel ساقوهم خارج تمبكتو . مما فتح الباب للصنغاى ليستعيدوا المدينة التى كانت مدينتهم التقليدية كان نهم الطوارق والخيانة هما اللذان جعلا ذلك ممكنا .

وحين ساق الطوارق المـاندنجو خارج المدينة عينوا صنهاغيا اسمه عمر ليحكم المدينة . وكان همه الرئيسى أن يستولى على ثلث الضرائب ، أما الباقى فإلى من نصره . وعلى كل حال ، كان سيده الصحراوى اكيل ينزل على المدينة عقب جمع الضرائب ليحمل نصيب الحاكم . وحين بدأ اكيل وأنصاره يقتحمون منازل الناس واغتصاب نسائهم، أرسل عمر سراً رسالة إلى أهل صنغاى يمنحهم المدينة إذا قدموا وخلصوهم وكان ملك الصنغاى آنئذ هو سنى على Sonni Ali وهو رجل قدير طموح . فلم يدع هذه الفرصة تفوته ، فقاد فرسانه وسار إلى تمبكتو وعندما رأى كل من أكيل وعمر الصنغاى قادمين هرب الأول للوقت إلى ولاتا . وفى أثره علماء مسجد سانكور بينما أسرع عمر الذى كان ينتظر مكافأة ضخمة على خيانته — بالهرب أيضا ودخل سنى على تمبكتو فى يناير سنة ١٤٦٨ (٨٧٢هـ) . وقتل عـدداً كبيراً من سكانها .

وشعب تمبكتو ذوو بشرة زنجية الدم البربرى يجرى فى عروقهم وهم دائما فخورين بها الى حد أنهم يحتقرون زنوج صنغاى ويعتبرونهم

متوحشين، بالرغم من أن يتهم المالك بربرى الأصل . وكان سنى على — الذى يبدو عليه أنه قد يكون به أثر من الدم الشمالى — مكروها إلى حد كبير من السعدى مؤرخ السودان الغربى . وهو يطلق عليه أسماء تدل على ذلك مثل الطاغية . ويصوره بصورة الرجل الذى يجد فخره فى قتل العلماء والاقوياء. وربما طرب السنى للتعبيرات التى أطلقها عليه السعدى، فمن الواضح أن كان مسلماً اسماً فقط، بل قيل إنه كان يمارس العادات الوثنية مثل كثيرين غيره من السودانيين المسلمين عبر القرون. وقد علل عداوته لشعب تمبكتو بأنهم أصدقاء الطوارق . الأعداء التقليديين لصنغاى . ومن أقدم العصور كانت المدن الامنة ضحية سهلة دائمة للبدو إذ كانوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم أمام قوة أعدائهم .

وكان نجاح سنى على الثانى استيلاؤه على جنى التى قاومت على ما يقال تسعة وتسعين هجوماً لملك مالى . وقد تأسست جنى فى القرن الثالث عشر بواسطة السوننكى الذين بنوها على موقع لمدينة سابقة عند ظهير نهر بانى Bani، وكانت المدينة الرئيسية فى منطقة خصبة مزدحمة بالسكان تتخللها الأنهار والبحيرات والمستنقعات نعلو تمبكتو، وخلالها كانت مياه نهرى النيجر وبانى تجرى قبل أن يتحدا ليكونا مجراهما الكبير إلى الشرق . وكما يقول السعدى كانت أحد أسواق إفريقيا الهامة حيث يجد الإنسان تجاراً من المغرب يبادلون ملح تغازة بذهب الجنوب، وبسبب هذه المدينة المباركة كما يقول (تأتى القوافل إلى تمبكتوا من جميع أنحاء الأفق) وهى ضريبة ضرورية . لأن السعدى كان شديد الحسد لشهره مدينة تمبكتو التى كانت جنى تنافسها فى التجارة والثقافة .

إن شهرة تمبكتو وما يحيط بها من السحر هى الشىء الوحيد الذى يمكن أن تعزى إليه الصورة الجميلة التى رسمها لها ليو الافريقى فى القرن السادس عشر . والأخرى التى رسمها بعصبية فليكس دى موا وآخرون من كتاب

القرن العشرين، والتى أخمدت إدعاءات جنى بتميزها كمركز تجارى وثقافى فى الدرجة الأولى من الأهمية وبينما كانت تمبكتو محرومة من وسائل الدفاع الطبيعية بل كانت تحت رحمة أى غاز، كانت جنى محوطة بشبكة من الطرق المائية التى — بالإضافة إلى جعلها سهلة الوصول إليها — أعطتها أماناً جذب لها خلال ثمانمائة سنة، التجار ورجال الأدب من المغرب . وفى تمبكتو كان كل التجارة والعلم مضطرباً بسبب سياسة الصحراء . حتى أخذت فى جنى جذوراً عميقة وكونت نواة ، منها انتشرت ثقافة ساحل البحر المتوسط إلى الدول المحيطة بها .

وسيطر سنى على جنى فقط بسبب الحصار الذى استمر عدة سنوات . وربما كان إرتفاع الماء وهبوطه هو الذى جعل إستغلال النهر مستحيلا ، لأننا نعرف أن المحاصرين كانوا دائما يغيرون مواضعهم ، وأثرت المجاعة فى المحصورين كما أثرت فى المحاصرين ، إذ كان الأخيرون قد وصلوا إلى ذروة تحملهم بل كانوا على وشك الإنسحاب حين سلمت المدينة . وبهذه المناسبة كانت معاملة سنى على للمغلوبين على أمرهم الذين لم يكونوا أصدقاء للطوارق الذين يكرههم ، موسومة بالرحمة ، بينما كانت قاسية فى تمبكتو . ويحوط الشك تاريخ سقوط جنى ويحتمل أنه كان فى سنة ١٤٧٣(٨٧٨هـ). وقد أثار نجاح سنى على فى حملته الغربية إعجاب وحسد موسى ياتنجا Yatenga الذى نذكر غارته على تمبكتو بعد موت منسا موسى بقليل وفى سنة ١٤٨٠(٨٨٥هـ) تقدموا نحو الشمال الغربى بجرأة شديدة نحو الصحراء واستولوا على ولاتا بعد حصار دام شهراً . وبعد أن نهبوا المدينة انسحبوا حاملين معهم عدداً كبيراً من النساء والأطفال وقدراً كبيراً من الأسلاب .

وفى الوقت الذى كان قلب سنى على يغلى بكراهية الطوارق خطط أمر

الإنتقام من أكيل وبقية هؤلاء الذين تجنبوه عند سقوط تمبكتو ،وكانوا لا يزالون فى ولاتا وقد تأثروا من غارة الموسى ، فرسم الخطة من أجل أن يحطم اكيل ويضيف ولاتا إلى امبراطوريته . ولإتمام ذلك فكر فى مشروع مدهش وهو حفر قنال على طول الطريق من بحيرة فاجبين Fagbine إلى ولاتا، وهى مسافة تقرب من مائتى ميل،وربما كانت البحيرة فى القرن الخامس عشر تمتد غرباً حتى باسيكونو Bassikunu التى اختصرت المسافة بعض الشيء . وحتى إذا كان الأمر كذلك لا بد للإنسان أن يعجب بتخطيط رجل مثل سنى على لمثل هذا المشروع المضحك . ولكن نستطيع أن نفرض أن تجربته خلال حصار جنى قد خدعته عن المزايا الحربية لطريق مائى،إلى حد أنه فكر فى شق قنال كوسيلة ليجعل من ولاتا جزءاً لا ينفصل من إمبراطوريته ، ومهما كانت الأسباب فقد بدء فى هذا العمل العظيم ولكن تهديد الموسى له بغزوه أعطاه عذراً وقتياً للتخلى عن هذا المشروع مبكراً .

ولم يكن تهديد الموسى عبثاً . إذ كان لابد من ردهم،ولما وجدوا سنى على قوياً عليهم ، وجهوا استعداداتهم القوية نحو الماندنجو فى مالى ، إذ كانت صنغاى تضطهدهم فى الشمال بينما كان الفولانى يضطهدونهم فى الجنوب فى فوتا ، وطلبوا العون من جيرانهم الأقوياء البرتغاليين الذين كانوا — نتيجة سلسلة الرحلات الموفقة التى غذاها وأدارها الأمير هنرى — قد أسسوا لهم مراكز تجارية عند أرجوين Arguin ، وتقدموا فى الداخل حتى وادان Wadan وأسسوا مركزاً تجارياً هناك . ورفض هؤلاء أن يذهبوا لمساعدة الماندنجو .

ونسمع بعد ذلك عن عودة سنى على إلى تمبكتو معذبا شعبها مرة أخرى، ومدبر لهم طرداً جديداً نحو الصحراء ،ولكنهم لم ينتظروا طويلا ليتخلصوا من الإستبداد الذى أحنى عليهم طويلا إذ مات فى سنة ١٤٩٢ (٨٩٧ هـ) .

وفى خلال حكمه الذى استمر ستا وعشرين سنة حول سنى على مملكته الضعيفة إلى إمبراطورية قوية سيطرت على جزء كبير من السودان الغربى . وإلى جانب نشاطه وحروبه ومقدرته الإدارية التى بدونها لم يكن يقدر له أن ينجح فى الحقل السياسى،لم يكن هناك من شىءفى أخلاقه يحببه إلى شعبه . بل ظل مذكوراً دائماً بقسوته ، ولكن أسوأ جرائمه كانت دائما تتبع بنوم عميق وكان فى بعض الأوقات قادرا على عمل كريم مثلما فعل عند سقوط جنى.وفى فرصة أخرى أدهش نبلاء تمبكتو—الذين كثيرا ماعاملهم بقسوة بالغة— حين منحهم عدداً من بنات الفولانى الجميلات وأصبح بعضهن زوجات شرعيات لأسيادهن وكان السعدى ابنا لواحدة منهن .

وورثه ابنه ، ولكن سرعان ما سلبه العرش أحد قواد أبيه . وبارتقائه انتهت أسرة لمته القديمةالتى حكمت صنغاى ثمانيةقرون.وكان المغتصب محمد تورى من زنوج السوتنكى،ولذا حمل لقب اسكيا أى المغتصب وبه اشتهرت الأسرة التى أسسها . وأصبح هو نفسه اسكيا محمد الأول . وكان الحاكم الجديد يتحلى بصفات طيبة جعلته جديرا بالمركز الذى اغتصبه،إذ كان ذا كفاءة فى التنظيم السياسى تفوق كفاءة سنى على . ميالا إلى الدين والعلم وهى صفات لم تعرف يوما فى البربر ،وشهد حكمه إنتعاشا إسلاميا،كما شهد العلماء حالة لم يتمتعوا به من قبل حتى أيام سنى على حين كانوا أكثر الناس إضطهادا فى الجماعة ولكنهم أصبحوا الان أكثر الناس مراعاة . وسار مع انتعاش العلم — كما هى العادة فى السودان — انتعاش فى التجارة الخارجية التى أضافت ثروة جديدة إلى جاو وتمبكتو .

وأسرع اسكيا بعد إرتقائه العرش إلى الحج وضمت قافلته خمسمائة فارس وألف راجل،وحمل معه ثلاثمائة قطعة من الذهب من الكنوز التى تركها سنى على. ومن هذا المبلغ خصص ثلثه للمنشئات الخيرية فى الأماكن المقدسة وبالرغم من أن

رحلة الحج التى قام بها اسكيا قد نظمت على نطاق يمكن مقارنته برحلة منسا موسى منذ قرن ونصف، فإنها لم تثر نفس الإنتباه فى الشرق الأوسط. بل لم تجذب انتباه أحد. ويرجع ذلك إلى أن اسكيا كان أقل من منسا موسى إندفاعاً وأكثر منه إستقامة فى الدين،وكان عدم تقدير هذا الأخير للمواثيق هو الذى أدى إلى إنتقاد الناس له كرجل يعرض ثروته بلا وعى. فحين وصل منسا موسى إلى مصر استطاع المصريون بصعوبة إغراءه على أن يدفع الهدايا المعتادة لسلطان مصر. ولكنا نسمع أن اسكيا سأل الخليفة العباسى المتوكل وكان قد قابله فى الحجاز تأكيد لقبه كملك صنغاى.

واتجه اسكيا بعد ذلك إلى محاولة مد حدود دولته، وهى التى ضمت الرقعة الكبيرة التى حكمها سنى على. فكانت حملاته الأولى موجهة باسم الإسلام إلى البلاد الوثنية التى تحيط به من الغرب والجنوب وكان هذا اتجاها طبيعياً من رجل عاد توا من رحلة الحج. فاستولى من ناحية الغرب على جزء كبير من دولة مالى، التى أصبحت عظمتها ليست أكثر من ذكرى باهتة. وكاد أن يصل إلى حافة المحيط. ولكن أهم حملات اسكيا حدثت بعد ذلك بعدة سنين حين غزا إقليم الهوسا الذى يقع وراء حدوده الشرقية،وكانت إمارات الهوسا قد امتدت شرقاً من النيجر نحو بحيرة تشاد. وكانت خصبة جيدة الرى. وهى موطن زنوج ينتمون إلى أصول مختلفة، وكانوا ولا يزالون يتميزون بصفات عظيمة،فهم زراع نشطون وتجار مهرة. كما اشتهروا بالعبقرية الصناعية وخاصة كنساجين وصباغين وصناع وعمال جلود. وعاشوا فى مدن مسورة وقرى. ومن مدنهم جوبر Gobir وكانو Kano وزاريا Zarıa وكاتسينا Katsina، وكانت أهميتها كافية لأن تجذب تجار البربر ليستقروا فيها، ولكنها كانت محرومة من وسائل الدفاع الطبيعية وكان حبهم للسلام قوياً

إلى حد كبير، جعلهم قادرين على القيام بعمل متحد. ولذا سقطت بلادهم فريسة سهلة لقوة صنغاى الغازية التي لم تجد مقاومة جدية إلا فى كانو .

وبفتح إمارات الهاوسا أضاف اسكيا إلى دولته الواسعة جزءاً غنيا مزدحما بالسكان، ولـكن هذا جلب على صنغاى اتصالا مباشراً بأعدائهم التقليديين وهم الطوارق إذ كان من عادتهم الإغارة على إمارات الهوسا بنفس طريقة أقربائهم الذى اعتادوا الإغارة على قرى النيجر فى الغرب ، وحب الطوارق للاعتداء يشكل دائماً مشكلة صعبة الحل لصنغاى التى لم تجد أى وسيلة لصدهم إذ كان دفع شيء لهم مستحيلا، كما كانت مطاردتهم فى الصحراء غير مجدية أيضا إذ كان استمرار تحركهم يجعل الوصول إليهم والقبض عليهم مستحيلا إذ كانوا قادرين على أن يعيشوا فى ظروف يهلك غيرهم فيها من جراء الجوع والعطش ، فـكان فتح إمارات الهوسا أضخم مشكلة للطوارق . ولـكن اسكيا كان سريعا فى الوصول إلى حل جزئى، وكما كان أهل جاراما نتس مع استقرارهم فى فزان لا يكاد الرومان يمسونهم إلا قليلا ، كذلك كان الطوارق لا يمكن الوصول إليهم إلا فى مواطنهم فى ايرى وأسبن Asben وخاصة فى مدينتهم أغادس التى كانت على مسافة بعيدة من الهوسا[1] .

وهكذا فتح اسكيا ايرى وطرد الطوارق منها — كى يكون مطمئنا بقدر كاف — إلى الصحراء . وعرف اسكيا أن أفضل وسيلة لتجنب المتاعب فى

---

(١) أول من استقر من الطوارق فى أيرى كانوا لمته الذين قدموا من برنو . وسكن قبلهم قبائل جوبيراوا الزنجية Gobirawa وعاصمتهم تعن شامان Tin Shaman بالقرب من أغادس وعاشت لمته مع جوبيراوا فى سلام حتى وصول الطوارق مثل كلجرس Kelgeres وصنهاجه الذين طردوا الجوبيراوا وكان ذلك فى أوائل القرن الخامس . وأصبحت أيرى بذلك دولة طوارق مستقلة ولها سلطان منهم ويسمى امينوكال Amenokal ولما كانت استنبول هى التى تعينه فقد كان مسيحياً بيزنطياً وليس تركيا مسلماً كان اسمه يونس أو جون واسم زوجته ايبوزاهيل Ibuzahil القريب من ايزابيل .

المستقبل أن يحرم البدو من مراعيهم الثمينة . وفى كلتا حملتيه ضد الهوسا وابرى صحب ملك كبي المسمى كانتا Kanta[1] وهى مملكة صغيرة تابعة لصنغاى وتقع بين الهوسا والنيجر، وبعد حملة ايرى لم يرض كانتا عن نصيبه من الغنائم كما قيل، فثار على اسكيا وأعلن استقلال كبي Kebbi وثورة ملك مملكة صغيرة يحتاج إلى شجاعة ، ولكن كانتا كان فى ثورته يرتكب مخاطرة يحسب حسابها إذ لم يكن هناك من يعرف أحسن منه ضعف جيش صنغاى واستحالة قدرته على متابعته خلال مستنقعات كبي الكبيرة . والى جانب هذه الميزة الحربية الكبيرة فإنه كان واثقا من نصرة شعبه الشجاع له . وهو الذى يحبه حبا أعمى وكانت ثقة فى محلها . فمن وراء عاصمة سورام Suram ذات الأحجار السبعة والتى مازالت أنقاضها موجودة كذكرى حية لمؤسسها ، دافع كانتا بنجاح وصد الصنغاى الذين لم تكن محاولتهم لسحقه إلا هزيمة ساحقة لهم.

ولم يكن الخطر الحقيقى على كانتا فى الغرب ، حيث تقع مستنقعات دولة تحميه . بل فى الشرق حيث جاره القوى ماى على سلطان بورنو ، الذى كان يترقب بخوف نشأة مملكة استطاعت هزيمة الصنغاى ، ولم تكن لكبي وبورنو حدود طبيعة سوى سهول الهوسا الممتدة ، إذ عبرها ماى على ليحطم قوة كبي النامية . وعلى مثال اسكيا هزم ، أمام أسوار سورام وتقهقر فى سرعة وكيباوا فى أعقابه وتذكر كانتا بانتصارها الساحق على صنغاى أكثر مما تذكر لهزيمتها لجيش بورنو . وظل انتصارها الأول أكثر الأساطير بقاء

---

(١) يصف محمد بلو من سكوتو (انفاكول ميسورى Infakul Maisuri) ملك كانتا بأنه كان عبداً للفولانى فى كتابه (أنظر نشأة فولانى سكوتو . المطبوع فى كانو سنة ١٩٢٩ لأرنت ص ١٣) .

في الشعب [1] .

وحين طرد اسكيا الطوارق من ايرى أمر فأقامت هناك جماعة من الصنغاى فاستقروا فى أغادس وما حولها . وبالرغم من عزلتهم وتتابع القرون الطويلة عليهم لم يفقد الصنغاى سيطرتهم على المدينة وما زال سكان المدينة من الزنوج وما زالت لغتهم هى الصنغاى ، وبذا كان أثر فتوح اسكيا هنا أكثر استدامة منه فى أغادس التى ظلت مركزا خارجا لصنغاى .

وكانت أواخر أيام حياته تراجديا مؤلمة . اذ ثار عليه ثلاثة من أبنائه يقودهم أكبرهم موسى ، ولما كان اسكيا كبير السن محطما من جراء جهاده الطويل فانه استدعى أخاه يحيى لمساعدته ولكن الأبناء قتلوه وساروا الى جاو وأرغموا اسكيا على التنازل لموسى وبذلك انتهى فى سنة ١٥٢٨ حكم أكبر ملك حكم السودان الغربى .

ويدين له شعبه بتعليمه إياه الحكومة المنظمة التى بها ضمن النجاح الذى حققه أكثر مما يدين له بهذه الإمبراطورية الكبيرة التى أعطاها إياهم . وكانت هاتان الحالتان من الحياة قد وجدتا أينما حكم ، ففى فصل تال سوف تعود إلى وصف ليو الافريقى للسودان تحت حكم اسكيا العظيم كما دعاه ولكن لم ينتبه كل شيء يتنازله . ولسوء حظ هذا الرجل العظيم حقا بقيت له سنين من البؤس والانحطاط واليأس يعانيها وقال موسى يعد شعبه الثائر بسبب قسوته وخلعه اسكيا بنجان كورى Askia Bangan Korei قائد حملة كومبي

---

(١) يدعى كيباوا أن قوارب كانتا لا تزال تقبع فى مستنقع تحت برنين كبى Birnin Kebbi ومازال نسكات خير خلف هو العجوز الشهم ساركين كى ساما Sarkin Kebbi Samma فى أرجونجو Argungu وهذا الذى وجده البريطانيون بعد فتحهم لسكوتو لايزال يحتفظ بمدينة ضد إعتداءات القولانى المتكررة وكانت عاصمتا القولانى سكوتو وجواندو على قيد بضعة أميال من مدينته .

المدمرة الذى أخرج اسكيا العجوز من القصر الملكى حيث كان موسى قد سمح لوالده بالإقامة ونفاه إلى جزيرة فى النيجر . وظل هناك تهاجمه الضفادع والناموس وكان حقا قد مات .

وكانت الضرائب التى انصبت على خزائن جاو — نتيجة لفتوحات اسكيا — قد أدت إلى نشاط كبير للتجارة ، وجذبت تجاراً كثيرين إلى السودان وعلى أثر هؤلاء التجار الأجانب جاء العلماء ومن بينهم محمد المغيلى Mohammed el Maghili الذى يعرف فى بعض الأوقات بالبغدادى . رغم أنه مواطن من تلمسان، وكان المغيلى قد قضى شبابه فى توات فى شمال السودان الأوسط حيث كسب الشهرة كداعية، إذ يقال أنه كان رسول الإسلام إلى الطوارق الذين ما زالوا يحترمون اسمه وكان ذبح جالية توات اليهودية أثراً لتعاليمه التى كانت سبباً لمذبحة جورارين Gorarin وتوجورت Tuggurt فى نفس الوقت تقريباً، ولكن قسوة التعليم الذى دعا إليه المغيلى لم تكن له بين شعوب الصحراء كتلك التى قام بها ابن بس منذ خمسة قرون فاخرج من توات،وهرب جنوبا إلى هوسا عن طريق ايرى يعلم فى طريقه ويكسب سمعة جديدة .

وقد اكتشفت حديثا نسخة من أعمال المغيلى فى كتسينا وهى تتعلق بالحكومة بعنوان (واجبات الأمراء) وكانت قد كتبت لأن كانو ، وهى تكشف عن مثل عليا وعن أدراك عميق من الكاتب لمصاعب الحكومة العملية،وكثيراً ما كرر فى كتابته عبارة (أن احتجاب الملك عن رعيته مصدر كل الشر) بينما عارضها فى عبارة أخرى حين قال (إن تجول الأمير فى المدينة يحمل كل المتاعب والضرر،فالطيور الجارحة تسكن الأماكن المفتوحة والديك قوى طالما يحوم حول أملاكه ويمكن للنسر أن يكسب مملكة بقرارات حاسمة وصوت الديك قوى يسيطر على الفراخ فليركب خيول التصميم ويضع عليها سروج التكبر).

وفى سنة ١٥٠٢(٩٠٨هـ) ترك المغيلى كانو إلى جاو حيث وصلته أنباء أن اليهود

الذين نجوا من مذبحة توات قد انتقموا لأنفسهم بقتل ابنه. وفى موجة حزنه قرر أن يسلك مسلك اسكيا بطرد اليهود من جاو ولكنه فشل. وبعد سنين يسيرة أغلق اسكيا تمبكتو أمام التجار اليهود ومنع شعبه من معاملتهم. ولا نعلم أكثر من ذلك عن المغيلى إذ مات بين سنتى ١٥٣٠ و١٥٤٠ (٩٣٧ — ٩٤٧هـ) ولكن أثره استمر طويلا بعد موته. وما زالت هناك أمكنة فى السودان الغربى يقدسها الناس لأنه تعبد فيها منذ أربعة قرون.

وخلف المغيلى فى السودان زائر من الشمال أكثر منه شهرة، وهو ليو الإفريقى وعلى رواياته اعتمد كثير من الجغرافين وراسمى الخرائط فى كل ما عرفوه عن داخل إفريقيا خلال الثلاثمائة سنة التالية. ولكن قبل أن نأتى على قصة ليو الشهيرة عن رحلاته يجب أن نأخذ فى اعتبارنا ما صنع الآخرون فى هذا الحقل. ففى أوروبا كانت هناك رغبة عارمة فى كشف أسرار القارة التى كانت رغم قربها وأهميتها للتجارة، لا تزال مجهولة إذا استثنينا موانى التجارة التى تنتشر على الساحل البربرى.

(١١)

كشف ساحل غانة

كانت العلاقات بين شعوب جنوب أوروبا البحرية و الولايات البربرية خلال العصور الوسطى وثيقة جدا . فبالرغم من الاختلاف بينهما فى الديانة ، واستمرار حالة التوتر بسبب غارات القراصنة من المسيحين والمسلمين ، وهى التى أزعجت البحر المتوسط حيث كان كل منهما يسطو على مراكب الآخر وسواحله استمرت اتصالات الصداقة بين أوروبا وإفريقيا . فالجنود المرتزقة من الأوروبيين (الفرنجى) الذين كانوا يجندون فى دولهم وجدوا فى كل جيش إسلامى على طول الساحل الإفريقى [١] علاوة على الأسرى الأوروبيين الذين عملوا فى الجيوش الإسلامية قسرا [٢] والسفن المسيحية أتت إلى كل ميناء مسلم تحمل إليه الملابس والخرز البندقى والمصنوعات الأخرى بينما تحمل منها الرقيق والخصيان والذهب والعاج والأبنوس وريش النعام . وكان للتجار الأوروبين منشآتهم وفنادقهم فى كل ميناء كما تمتعوا بالحقوق والامتيازات التى تحميها المعاهدات التجارية العديدة التى عقدت بين السلاطين الإفريقين (الباى) والداى وتجار مدن جنوب أوروبا وخاصة مرسليا جنوه وبيزا وفلورنسا وأمالفى والبندقية وغيرها وكلها تتفق مع المصالح الإسلامية .

---

(١) يجب أن نذكر أن (النبيل) فى قصة شوسو (قصص كانتربزى) خدم فى البربر .

(٢) اعتمادا على ما يقوله ليو الإفريقى . كان لدى سلطان تونس فى القرن السادس عشر خمسة عشر ألفاً من خيرة الجنود معظمهم من الأسرى المسيحيين وكان الأسرى (الفرنجى) يقارنون من بعض الأوجه بالإنكشارية الذين كونتهم الدولة العثمانية وبالمماليك فى مصر . رغم أن المماليك لم يكونوا بتاتا من الأوروبيين .

وعرف المسيحيون كل ميناء ومرسى على طول الساحل الإفريقي ولكنهم كانوا مرغمين على أن يحدوا من نشاطهم على الشاطىء خوفا من أن يصبحوا دخلاء فى تجارة الداخل . فمراكش التى كانت دائماً على غير العادة متسامحة مع المسيحيين[1] كانت إحدى المدن القليلة فى الداخل التى سمح للتجار الأوروبيين بأن يعيشوا فيها ، وإذا صحت هذه الامتيازات القادرة فإن الاحتياطات التى كان يساء استخدامها كثيراً ماتتخذ وسيلة للتدخل. فكانت نتيجة ذلك أن ظلت أوربا فى جهل تام بما يوجد وراء الحزام الساحلى الإفريقى. ففى الوقت الذى، كان الرحالة الاوروبيون يقومون بالرحلات إلى أقصى بلاد آسيا . كانت أقرب القارات إليه مغلقة دونهم وكل ماعرفه الأوروبيون عن داخل إفريقيا هو أنها تخفى ممالك ذات ثروات هائلة .

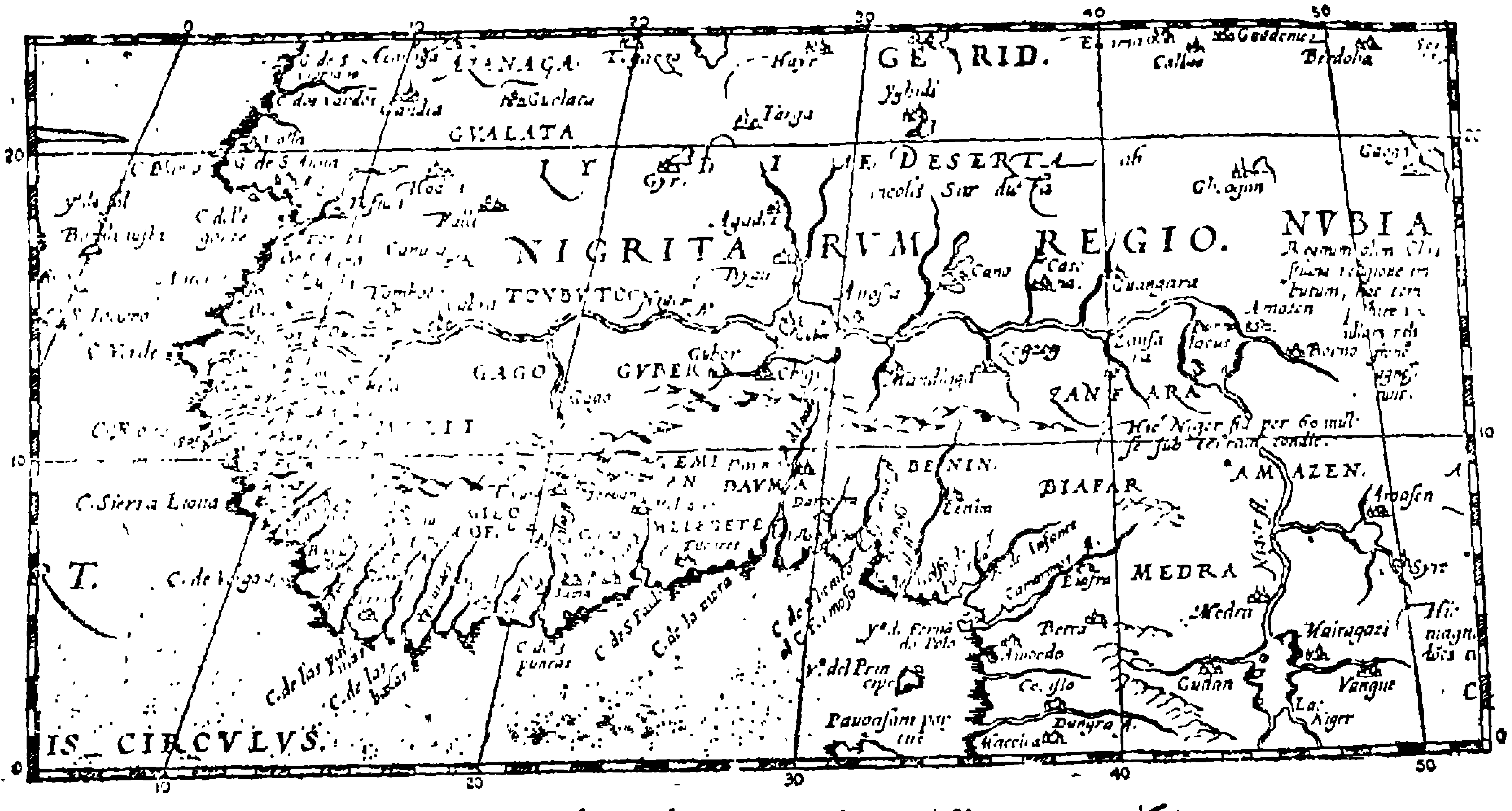
ولكن معرفة الداخل لم تكن محدودة بالنسبة للمسلمين فمنذ عصور متقدمة كون اليهود عنصراً هاماً من سكان المغرب وكانوا مثل جميع الأجانب محتقرين . ولكن تسوم معهم بقدر لم يعرفه المسيحيون فكانت لهم بعض الامتيازات . فمكنهم ذلك أن يلعبوا دوراً فعالا فى تجارة هذا الجزء[2] وسمح لهم فى بعض الأوقات أن يشغلوا بعض المراكز الرسمية الهامة . وخاصة فى مراكش . ومن المغرب انتشروا فى واحات الصحراء بل اتجهوا إلى السودان. وأصبح (الملاحون) مصدر كثير من المعلومات عن داخل القارة ولكن حتى العصور الوسطى المتأخرة لم تصبح واحدة منها معروفة خارج القارة .

وحول نهاية القرن الرابع عشر بدأت جزر ميورقة ترسم خرائط لإفريقيا

---

(١) فى سنة ١٢١٩ استقر خمس من رهبان الفرنسيسكان فى مراكش وبعد ذلك بضع سنين جعلها البابا جريجورى التاسع أسقفية وظلت كذلك حتى ١٦٣٩ .

(٢) فى بداية القرن السادس عشر كان كل صياغ النحاس فى فاس التى اشتهرت كمركز لتجارتهم — من اليهود . وكان ذلك بسبب أن التجارة كانت قاصرة على المسلمين استناداً إلى عدم أمانتهم .



شكل ٣ — خريطة إفريقيا كما ظهرت فى أطلس أورتليوس سنة ١٥٧٠

فاظهرت تقدما محدوداً فى المعلومات الجغرافية . وكانت هذه الخرائط من صنع الجالية اليهودية التى اشتهرت بصنع الساعات والآلات الدقيقة مثل الاسترلاب وكانت خرائطهم تجارية أكثر منها سياسية وعرفنا أنها كانت على أساس معلومات مستقاة من التجار اليهود فى إفريقيا .

فى هذا الوقت كانت تجارة ميورقة مع إفريقيا نشطة جدا بسبب علاقات الصداقة التى نتجت عن المعاهدات التجارية المختلفة بين أراجون والساحل، فكان من السهل إذن لراسمى الخرائط من يهود ميورقه أن يحصلوا على معلومات عن الطرق التجارية التى تؤدى إلى السودان التى عن طريقها فاض دم الحياة على تجارة المغرب .

وكانت الخرائط اليهودية غير دقيقة ويشك فى قيمتها الجغرافية ، ولكنها رغم ذلك بددت إلى حدما، بعض ما كان هناك من ظلام دامس. فقد دلت على موقع بعض الأماكن مثل تمبكتو وجاو ومالى وهذه كلها كانت معروفة فى أوروبا بأنها أسواق كبيرة بعيدة ،وهذا أعطى شكلا لمنطقة كانت معروفة فقط بأنها موطن ثروة مجهولة . وكان أهم هذه الخرائط تلك المعروفة باسم اطلس كاتالان Catalan Atlas لابرهام كرسكس Abraham Cresqxes وهى التى عملت على نشر اسم منسا موسى فى أوروبا .

ولكن اهتمام راسمى الخرائط من اليهود فى إفريقيا ،لم يكتب له أن يستمر طويلا . فالاضطهادات التى أوقعها فرديناند وايزابلا باليهود وانتشرت من أسبانيا إلى إفريقيا (وكما قيل) إلى السودان أيضاً عن طريق الصحراء . وعلى ذلك أصبحت الخرائط الميورقية المتأخرة تقل قيمتها تدريجيا كمصدر للمعلومات .

وقد أحدثت مدرسة ميورقة قدرا من التقدم فى رسم الخرائط الأوروبية

وخاصة فى إيطاليا ، فالاهتمام الشديد بإفريقيا الذى نراه فى الخرائط الإيطالية المعاصرة، نشأ عن الروابط التجارية المتينة بين الولايات البربرية والجمهوريات الإيطالية الصغيرة . وبالرغم من ذلك فمعرفة الأوروبيين لداخل أفريقيا كانت سطحية من الدرجة الثانية ، رغم أنهم حصلوا عليها فى أيام عصيبة حين بدأ المسيحيون يتطلعون إلى إفريقيا لحل مشاكلهم الاقتصادية .

وفى بداية القرن الخامس عشر اشتد الطلب على التجارة الخارجية، إذ كانت الحروب المخربة قد تركت أوروبا وقد نقص فائضها من المعادن الثمينة . وبسبب أن موادالتجارة الخاصة بالغرب كانت أثقل من أن تحملها الجمال ، احتاجوا إلى الذهب لدفع ثمن المنتجات الثمينة القادمة من الهند والصين وجزر البهار . وكلها أتت برا وقد اشتد الطلب عليها . وكانت نقص ذهب أوروبا قد أصبح خطرا على أصحاب البنوك فيها . فتحولت عقول الناس إلى إفريقيا التى كان ذهب المغرب يأتى منها .

وكان البحر الواسع الذى يضرب الشواطئ الغربية للعالم المعروف لم يكتشف بعد، فكان لابد أن تمر عدة سنين أخرى قبل أن يخطر رجال البحر المسيحيون ما كان يسود اعتقادات الناس أن بعض المخلوقات الغريبة تنتظر الملاحين الذين يندفعون وراء رأس بوجادور ، فلم يكن هناك من تفكير قط فى البحث عن حقول الذهب الإفريقية المخبوءة عن طريق البحر . وهو احتمال لم يعتقده إلا قليلون منذ أيام هيرودت ، ولكن الخرائط الميورقية جعلت الناس يفكرون فى الطرق البرية وهكذا صان الحسد أسرار بربر المغرب .

فهذه الخرائط لم تعلن عن ثروة الداخل فحسب بل بينت طريقاً يقود إلى حقول

---

(١) كان ماالقاتى يظن أنه ممثل لبنك جنوى معروف فى سنتوريون Centurione ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت أنه لم يكن كذلك (المجلة الجغرافية عدد ٨٤ سنة ١٩٣٤ : ص ١٧٧) .

الذهب المخبوءة . وهو فتحة فى جبال أطلس كتب عليها (عن هذا الطريق يمر التجار الذين يأتون من أرض غينيا أرض الزنوج فهنا كنت — كما فى خرائط العالم السابقة التى كان بها مثل هذه العلامات — الدعوة للمخاطرين المسيحيين لتجنب مراقبة المسلمين — إذا كان ذلك ممكنا — واختراق قارتهم من الشمال .

ثم حدث شىء صغير — كما انتشرت الأخبار — أعطى تشجيعاً لروح المخاطرة، وهو عودة أنسلم ديسالجوى Anselm d'Isalguier غير المنتظرة إلى مارسليا سنة ١٤١٣، وكان هذا قد ترك موطنه فى تولوز منذ إحدى عشرة سنة «فى ظروف ليس لدينا عنها أية وثيقة» . ومن المحتمل أن يكون قد رحل ليلتحق بالحملة النورماندية التى قادها جان دى بيثنكور Jean de Bèthencourt والتى خرجت لغزو جزائر كناريا . وكان بيثنكور هذا معروفا بأنه كان يجند الرجال من جوار تولوز لينزل بهم على الأرض الإفريقية . وربما كان بيثنكور هذا هو الرقيق المسيحى الذى عرفناه من (تاريخ الفتاش) بأنه كان فى جاو حول هذا الوقت ، ومهما كان الأمر فإنه كان هناك ، وقضى بضع سنين فى جاو وتزوج من (أميرة) صنغية كانت تسمى كاسياس Cassias .

وعندما عاد بيثنكور إلى فرنسا كانت تصحبه زوجته الإفريقية ومعها كمية كبيرة من الذهب والجواهر . وابنتهما وثلاث خصيان وثلاث إماء زنجيات، واستقروا جميعا فى تولوز حيث أثاروا الدهشة التى ظلت حية عن طريق أحد الخصيان الذى كان قد احترف الطب ونجح إلى حد أنه عالج ولى العهد شارل حين كان مريضا . الأمر الذى سبب كثيرا من الضيق لأطباء المدينة الذين ربما يكونون قد صرحوا مع باكون Bacon أن (ضعف الإنسان وعدم نضجه يجعلانه يفضل ساحرا أو مدعيا على الطبيب) .

وأصبحت مشكلة الذهب فى أوربا أشد إلحاحا قبل أن نحاول المحاولة

الأولى المسجلة لاختراق إفريقيا بريا من الشمال . وحدثت هذه فى منتصف القرن حين نزل تاجر جنوى غنى هو انطونيو مالفانتى Antonio Melfante فى حنين Honein ووصل إلى وسط الصحراء يحاول كشف مصادر الذهب الإفريقى . وأرسل وهو لا يزال فى توات تقريراً أعطى معلومات جغرافية ثمينة عن داخل القارة ولكن ليس فيها ما يساعد على هدف الرحلة . وقد ألح فى سؤال شيخ عجوز كان يعرف السودان جيداً عن المكان الذى يأتى منه الذهب ، وكان كل مرة يحصل على نفس الإجابة (قضيت أربع عشرة سنة فى بلاد الزنوج ولم أسمع كما لم أر رجلا يمكن أن يدلى بمعلومات أكيدة ، هذا ما رأيته وهذه هى طريقة الحصول على الذهب وجمعه) . ويظن أيضا أنه يأتى من أفار Afar وفى رأيى أنه من منطقة لا يمكن الوصول إليها) ولم تكن إجابة أحد ممن سألهم تساعد على المعرفة سواء عن عمد أو عن جهل . ولم يسمع عن مالفانتى شىء أكثر من ذلك .

والمحاولة الثانية المسجلة لإختراق الصحراء ، قام بها رجل أعمال آخر هو بندتوداى Benedetto Dei ممثل بنك بورتنرى الكبير Portinari وكان له إهتمام واسع بالخارج . وكانت فلورنسا قد مدت نشاطها التجارى بعد أن استولت على ميناء بيزا عدوتها فى أوائل القرن ، وخاصة على طول الشاطىء البربرى حيث حصلت على إمتيازات استثنائية لتجارها . وفى تونس سمح لهم بالإتجار فى الظهير . فاستقر داى فى تمبكتو حيث سمعنا عنه فى سنة ١٤٧٠ يقوم بنشاط طيب فى تجارة الأقمشة ونسج السرج الذى يشبه ما كانت تنتجه لومبارديا . وبالرغم من أن داى عاد سليما إلى وطنه فهذا كل ما عرفناه عن أول رحلة مسجلة لأوربى إلى تمبكتو .

من الممكن أنه حتى هـذا اليوم لم يكن هناك من شىء ظاهر جداً عن رحلته إلى السودان إذ ربما كان هناك من سبق داى إلى هذا العمل .

ولم يكن أصحاب البنوك الأثرياء وحدهم الذين يدرسون خرائط ميورقة، ويلاحظون أن جنوبى رأس بوجادور مباشرة يوجد نهر ريودورو أو نهر الذهب وهو الذى كان يعتقد أنه كان مسرحاً للتجارة الصامتة[١]. فهناك ربما يظن الإنسان أنه كانت هناك مشجعات للملاحين على أن يحاربوا الإرهاب المجهول لبحر الظلمات الأخضر كما أطلق العرب على المحيط الأطلنطى، ولكن كانت الإستجابة يسيرة حتى وقت مجىء البطل البرتغالى الأمير هنرى الملاح[٢] ويعود تصميمه على جعل كشف إفريقيا عمله، الذى وقف عليه حياته إلى سنة ١٤١٥ حين كان فى الخامسة والعشرين من عمره وفتح ميناء سبتة، وفى خلال عملية الفتح سمع عن قوافل الصحراء التى تحمل الذهب، وكان قد قرأ عنها فى صباه. وعاد إلى البرتغال مصمماً على العثور على أرض الذهب فى ساحل غانة عن طريق البحر. وأن يحول إلى الساحل تجارة الصحراء الغنية التى ملأت موانى الساحل البربرى الكثيرة بالسفن المسيحية. ثم فتح طريق بحرى إلى الهند، واكتشاف القس حنا المحوط بالأسرار، ثم تنصير الوثنيين، وكانت هذه هى الأهداف للرحلات التى وجهها، ولكن كشف ذهب غانة كان أهمها جميعاً.

وجمع الأمير هنرى النابهين فى فنون البحر وساعده أخوه دون بدرو

---

(١) استناداً إلى المؤرخ البرتغالى الكبير باروس Barros سمى نهر ريودور بهذا الاسم بسبب أن أول رسالة من تبر الذهب لغرب إفريقيا جاءت من هناك وربما كان يعنى السنغال رغم أن الخرائط المعاصرة وضعته إلى الشمال قليلا.

(٢) كانت هناك محاولات سابقة للوصول على ساحل غانة بحراً ولكنها — على قدر ما نعرف — لم تنجح، فالفرنسيون مثلا لهم أن يثبتوا أنهم بين ١٣٦٤ و ١١٤١٠ كتشفت سفن ديب Dieppe وروان Rouen ساحل غانة.

Don Pedro وهو رجل كثير الأسفار[1] ورسم الأمير خطة الرحلة التى جعلت اسمه مشهوراً والتى جعلت — فى موضع الأساس للكشوف العلمية — من الممكن القيام بالكشوف فى العالم القديم ثم فى العالم الجديد فى الجزء الأخير من القرن .

وبسبب صعوبة الملاحة والخوف مما هو غير مألوف ، سارت أعمال الكشف بطيئة . ولكن فى سنة ١٤٣٤ عاد جيل ايانس Gil Eannes وهو أحد رجال هنرى إلى سيدة بباقة من زهور روزمارى جمعها من الأرض التى تقع جنوب رأس بوجادور ، فكان هـذا نقطة تحول فى تاريخ الكشوف الجغرافية ، فقـد أثبت جيـل أيانس سخافة الإرهاب الخرافى الذى كان الملاحون يكنونه لـكل ماهو مجهول . فالضباب الذى لا يمكن اختراقه والذى يضطر الملاح الماهر إلى الإلتفاف حوله فلا يستطيع ، والشياطين التى تختبىء وراء الأرض منتظرة الناس لتسحقهم ، والنار السائلة التى تذيب الأجسام كل هذه الأشياء ثبت عدم صحتها كما صرح الأمير هنرى مراراً فى أحاديثه .

وسار الكشف قدما بسرعة أكبر . وسارت السفن الصغيرة ذات الخمسين طناً تشق طريقها رويداً رويداً أبعد فأبعد بجوار الساحل . وأظهرت آثار أقدام الرجال والجمالين أن الصحراء أيضاً كانت مسكونة . ثم قبض على بعض طوارق صنهاجة وحملوا إلى الوطن فكان هذا ، مع بعض تبر الذهب ، مشجعا للأمل فى أن أرض الذهب لن تكون بعيدة جداً ، وبعد ذلك بقليل أنزلت سفينة مشحونة بالأسرى حمولتها فى لشبونة حيث بيعوا رقيقا ، فعلمت

---

(١) يشير الأبحاث الحديثة إلى أن دون بدروكان الشريك الأكبر فى هذه المحاولة وأن له فضلا أكبر مما هو معروف حتى الآن .

الأوروبيين كيف تستثمر الأموال باسترقاق الإفريقيين وبذلك بدأت طبيعة الرحلة فى التغير .

ومنذالبدء كان الرأى العام فى البرتغال معاديا لهنرى، إلى حد أنه وجد صعوبة فى تموين السفن بالرجال . فتغير الآن كل شىء ، وأصبح ضغط المتطوعين كبيراً حتى اضطر إلى صرفهم عنه . وأدى هذا إلى رحلات المخاطرين التى سرعان ما أثبتت أن غارات الرقيق مربحة إلى حد كبير أكثر من الكشف الجغرافى . ولم يجعل هنرى فرص الربح العاجل تستهوى رجاله عن العمل الجدى . وظل يحافظ على اهتمام أمته حيا فى أذهانهم . وأكد لهم أن خلاص نفوس الوثنيين هدف من أهم أهداف أعمال الكشف ، وحصل من البابا لتاج البرتغال على كل الأراضى الجديدة التى تكتشف بين رأس بوجادور والهند . وهو الأمر الذى سوف يؤثر كثيراً إلى اقتسام إفريقيا وأمور أخرى فيما يأتى من القرون .

وفى سنة ١٤٤٥ أبحر نونو ترستام Nuno Tristam جنوبا وراء الصحراء ، واكتشف أرضا خصبة حيث كان الزنوج — الذين كان المسيحيون لا يعرفون عنهم أكثر من أنهم أرقاء لآخرين — يعيشون عيشة حرة . وشك كثيرون فى وجود حدود للصحراء . وفى أن اكتشاف أرض طيبة أخرى وراءها قد تعطى ثمراً طيبا لمكتشفيها ، أمر يثير الدهشة . وكان الاكتشاف الثانى الهام هو مصب السنغال وقد ظن أولا أنه النيجر الذى قال هيرودوت وآخرون أنه فرع غربى لنيل مصر . ولذا سماه مكتشفوه بالنيل ونقشوا هناك على شجرة ذراع هنرى وشعاره Talent de Bien faire (موهبة عمل الخير) ويعلق كاتب الحوليات على ذلك فيقول (أشك قطعاً فيما إذا كان قد ظهر بعد الإسكندر الأكبر وقيصر أمير فى العالم

ذهبت فتوحاته أبعد من هذا[1] .

وباكتشاف السنغال وصل البرتغاليون إلى السودان أرض المغاربة والزنوج .

(١) ليس اسم غينيا إلا اسم غانة محرفاً ، التقطه البرتغاليون من المغرب . والكاتب يرى هذا غير مقبول فاسم غينيا كان مستعملا فى المغرب وأوروبا قبل عهد هنرى بمدة طويلة فمثلا نجد على خريطة رسمها راسم الخرائط الجنوى جيوفانى دى جاريناو Gioranni di Garignano فى سنة ١٣٢٠ وكان قد حصل على معلوماته عن إفريقيا من مواطن من سجلماسة اسم غينيا وكذلك فى الأطلس الكاتالانى فى سنة ١٣٧٥ نجد أيضا اسم غينيا Ginvia . ونشير عبارة فى ليو إلى غينيا كتحريف لاسم جنى وهى أقل شهرة من غانا ، ولكن بالرغم من ذلك اشتهرت فى المغرب لمدة قرون بأنها سوق كبير ومركز للعلم . ويقول هذه العبارة (مملكة غينيا Ghinea ويسميها تجار أمتنا Gheneoa بينما يسميها سكانها جى Genni والبرتغاليون وشعوب أوروبا الأخرى Ghinea ولكن يبدو أنه من المحتمل أن غينيا أتت من أجويناو Aguinaou وهو اسم يطلقه البربر على الزنوج وكان لمراكش بوابة بنيت فى القرن الثانى عشر تسمى بوابة غينيا وهو اسم ظل موجوداً حتى انتهاء الملكية الحديثة .

والجنيه الذهبى البريطانى سمى بهذا الاسم لأنه سك أولا فى سنة ١٦٦٢ من ذهب استورد من غرب إفريقيا بواسطة الشركة الإفريقية لتجار لندن . (خطاب من رئيس الكتاب بالشركة الملكية إلى المؤلف) .

(١٢)

ليو الإفريقى

فى سنة ١٥١٨ استولى القرصان المسيحيون على سفينة عربية خارج جربة جزيرة اكلة اللوتس، بينما كانت تقترب من الساحل التونسى. وبين من كانوا على سطحها وجد مغربى ذكى ذكاء فوق العادة، ورغم أن سنه لم يكن قد تجاوز العشرين، فإنه كان قد سافر كثيرا فى بلاد كانت لا تزال مجهولة من أوربا. ولذا لم يعرض الشاب فى أسواق الرقيق، كما هو المصير المعتاد لجميع الأسرى، بل حمله القرصان إلى روما وقدموه إلى البابا ليو العاشر. مؤملين أن يحولوه إلى مصير أفضل مما هم مستطيعون أن يفعلوا به فى أسواق الرقيق فى بيزا وجنوة.

وكان البابا ليو العاشر أحد أفراد أسرة ميديتشى وابن لورنزو العظيم، وكان قد كسب ثناء معاصريه لأنه احتضن رجال الأدب، كما كسب احترام خلفائه لرعايته للفنون، إن لم يكن لشىء آخر — فكل من ادعى ذكاء عقليا رحب به فى حرارة بين حاشيته. وبالرغم من ذلك لم يكن هناك ما كان يبدو أقل احتمالا من أن شابا مغربيا يؤخذ من سفينة، سوف يصبح عضوا مكرما فى حاشية البابا، وأن اكتشاف البابا له يعد مساهمة للآداب والعلوم، وكان اسم الشاب حسن بن الوزان. ومن المحتمل أنه فضل أن يدعى الفاسى نسبة إلى مركز العلم الذى كان يدين له بتعليمه، ولما كان الشاب يتكلم الأسبانية فلم يكن من الصعب على البابا بأن يكتشف اتجاهاته الأدبية. وأهم من ذلك كثيراً علمه المدهش بدول إفريقية كان يعلم أن الوصول إليها صعب، كما لم تكن معروفة للأوروبيين بوضوح، عن طريق كتابات البكرى والإدريسى، فرد إليه

البابا حريته فى الحال كما منحه معاشاً ودفعه إلى اعتناق المسيحية . وفى عماده أعطاه اسمه جيوفانى ليونى ومنه أصبح اسمه ليو الإفريقى .

وعندما أسر ليو الإفريقى هذا، كان يحمل معه مسودة عربية للعمل الذى جلب له الشهرة (تاريخ ووصف إفريقيا والأشياء البارزة التى احتوتها) فأتمه باللغة الإيطالية فى سنة ١٥٢٦ بعد موت سيده بثلاث سنوات . وفى سنة ١٥٥٠ ، وقع المخطوط فى يد راموسيو Ramusio الذى نشره ضمن مجموعته المسماة (رحلات وأسفار) ، وترجمه إلى الإنجليزية جون بورى John Pory وهو باحث كان صديقاً لريتشارد هاكليت Richard Hakluyt ونشره فى سنة ١٦٠٠ .

ونحن لا نعرف عن حياة ليو إلا القليل فيما عـــدا رحلاته الإفريقية . فهنا وهناك من بين أجزاء أعماله نجد مفتاحاً لتاريخه المبكر ورحلاته خارج إفريقيا . ولكنها لا تساعدنا دائماً . فهو يذكر (أما عن نفسى — فحين أسمع مساوىء الإفريقيين يتحدثون بها أمامى أؤكد لسامعى أنى أحد أبنـاء غرناطة ، وحين أسمع شـعب غرناطة ينتقـد أذكر بأنى إفريقى) فمثل هذه العبارة تؤكد الإضطراب الذى وقع فيه والذى يقع فيه الباحث الذى يريد أن يعرف مولده . ولكن ثبت الآن بما لا يدعو إلى الشك أن ليو ولد فى غرناطة فى سنة ١٤٩٣ أو ١٤٩٤ من والدين مغربيين رفيعى المنزلة . وكانا من رعايا فردينانـ وايزابلا ، وشهد الحكم المسيحى فى أحسنـ صوره ، وأتى اليوم الذى سمم فيه الكردينال اكسيمنس Cardinal Ximenes عقل إيزابلا بقيادة الهرطقة التى تقول (إن حفظ العهد مع غير المسيحيين إنما هو كسر للعهد مع الرب) وعلى ذلك انضم الولد ووالداه إلى قافلة المثقفين المهاجرين الذين غادروا غرناطة إلى فاس وغيرها من المراكز الإفريقية للثقافة الإسلامية وعند وصولهم إلى فاس وجدوا

أنفسهم جزءاً من جالية كبيرة خرجت حديثا من أسبانيا ، واستقرت فى أعداد كبيرة فى المدينة وما جاورها .

وكانت مراكش فى حالة تدهور سياسى . فقد احتل البرتغاليون جزءاً كبيراً من الساحل آنئذ مؤملين أن يتقدموا منه إلى الداخل . وكان الجنوب فى يد أشراف السعديين وكانت فاس على وشك السقوط فى أيديهم . وفى نهاية القرن الخامس عشر كانت فاس لا تزال تتمتع بنشاط تجارى كبير ، وكانت فى ذروة شهرتها كمركز للعلم ، وكانت مساجدها ومكتباتها مقصد للطلبة من أجزاء كثيرة من العالم الإسلامى . فكان لا بد أن تكون المقصد الطبيعى للمهاجرين من غرناطة .

ولقى والد ليو نفس الإكرام والمكانة اللذين تمتع بهما فى غرناطة ، إلى جانب التسهيلات غير العادية لتأديب ولده على يد أفضل الأساتذة فى العالم الإسلامى . ومن هذه الفرص استفاد التلميذ إلى أقصى حد ، وسرعان ما أثبت ذكاءه الخارق وبدأ يكسب عيشه فى سن مبكرة ، حين حصل على وظيفة إدارية فى المارستان ، وهو مكان علاج الأجانب فى فاس ، ولكن لم تمض مدة طويلة حتى بدأ رحلاته التى كانت سبباً فى شهرته ، وكلما سافر من بلد إلى آخر فى المغرب قام بكثير من الأعمال بسبب درايته بالقانون . فعمل فى بعض الأوقات قاضيا ولكن فى معظم الأحيان كاتباً أو إدارياً للتجار وموظفى الحكومة ،ومن حين لآخر تاجر لحسابه الخاص . وفى أحيان أخرى خدم سلطانه كمبعوث سياسى . أو قضى وقته فى قرض الشعر وكانت هذه الحياة المتقلبة سببا فى قيامه بمخاطرات ذهبت به إلى حقول بعيدة ، فرحلاته الساحلية والداخلية العديدة فى صحبة التجار أذاعت اسمه فى طول البلاد البربرية وعرضها وأعطته معرفة واسعة بتجارتها .

وتظهر قصة رحلاته فى شمال إفريقيا بوضوح أن تجارة السودان لعبت دوراً هاما فى الحياة الإقتصادية للمغرب، فهناك إشارات كثيرة إلى تجار يقومون بحركة كبيرة إلى أرض الزنوج ، ويشير ليو إلى سلسلة من المدن تغطى طول بلاد البربر من المحيط غربا إلى طرابلس شرقا كانت تعمل فى تجارة عبر الصحراء . ومما هو جدير بالذكر أن أهم هذه المدن مثل فاس وسجلماسة وتلمسان وورجالا وغدامس كانت مدنا داخلية . وكانت التجارة فى يد وسطاء منعوا تجار الشاطىء الذين كان المسيحيون يتاجرون معهم من الإشتراك المباشر فى الحركة الصحراوية .

وكانت البضائع الرئيسية التى ترسل إلى السودان أوربية (وخاصة الأقمشة) وهى السكر من سوس فى جنوب مراكش والأوانى النحاسية والخيول والكتب ، وأهم البضائع التى تبودلت بها هى الذهب والرقيق والزبد . ويشير ليو إل هدية أعطاها له سلطان فاس كان معظمها يتكون من منتجات السودان : (أحضر خمسون رقيقا من الرجال ومثلهم من النساء من أرض الزنوج وعشر خصيان واثنا عشر جملا وزرافة واحدة وستة عشر قطا من قطط الزبد ورطلا من الزبد ورطلا من العنبر وأكثر من ستمائة قطعة من الجلود لحيوان معين يسمونه elant (نوع من التيتل) ويصنعون منها دروعهم ، وكل قطعة منه تساوى ثمان دوكات فى فاس[1] . وثمن العشرين رقيقا من الرجال عشرون دوكات للواحد ، وهو سعر خمس عشرة من النساء وكل خصى يعادل اربعين . وكل جمل خمسين . وكل قط مائتى دوكات ويبـاع رطل الزبد أو العنبر فى فاس بثلاث أكياس من الدوكات .

---

(١) يصنع الطوارق دروعهم من جلد التياتل ويقال أن قرونه كانت تستعمل أيام الإعريق اصنع الآلات الموسيقية .

ومن حسن حظ الأجيال التالية أن ليو الإفريقى شاهد بنفسه الدول التى كان يجلب منها الرقيق والخصيان والذهب والزبد .

وأهم حادثة فى تاريخ ليو فى نظر معاصريه — وربما لا تكون كذلك فى نظره هو — هى رحلته إلى السودان الغربى ، لأنها مكنته من أن يعطى أوربا أول تفصيلات تتعلق بداخل إفريقيا ، وكانت معلومات الناس عنه مضطربة حتى لم يستطيعوا أن يميزوا الحقيقة من الخيال . وكثير من المشاهدين المسلمين الثقاة كانوا قد زاروا هذا الجزء وسجل بعضهم ما شاهده . ولكن ليس فى تفصيل يرضى التشوق ، وكان هذا بسبب الإحتقار التقليدى الذى يكنه المسلمون للزنوج والبربر الأمر الذى عبر عنه ابن بطوطة وابن حوقل[1] وكان ليو دونهما فى ذلك وأسرع منهما فى التغلب على هذا النقص .

وكانت كتاباته ثمينة إلى حد كبير، لأنها أظهرت هذا الإقليم عقب وصول دولة صنغاى إلى قمة مجدها الإقتصادى عن طريق فتوحات اسكيا ، وقد سافر ليو إليها عقب فتح جيوشه لها . فكان بذلك قادراً على أن يضيف إلى كتاباته ذات القيمة الجغرافية الكبيرة ، صورة لأعظم النظم السياسية التى حققها الزنوج .

وكانت فرصة هذه الرحلة الهامة بعثة كان فيها ليو عضواً ، ورأسها عمه وكان قد أرسله إلى صنغاى شريف فاس مولاى محمد القائم مؤسس دولة السعديين ويبدو أن تاريخها كان ١٥١٠ عندما كان ليو لايزال دون العشرين .

---

(١) إذا كان ابن بطوطة وابن حوقل قد اظهرا مثل هذا الاحتقار للزنوج فليس معنى ذلك أن جميع المسلمين كانوا يكنونه . بل هناك أكثر من موضع فى التاريخ الإسلامى يشير إلى عكس ذلك . إذ كان بلال مؤذن الرسول حبشيا كما كانت حاضنته أم أيمن حبشية كذلك، وهناك حديث عربى يقول : (لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) .

ودار شك كبير حول الطرق التى سلكتها البعثة . لأن ليو — الذى لم ينس قط أنه كان يكتب وصفا لإفريقيا لا كتابا خاصا — يحدثنا قليلا عن تجاربه الخاصة ، ويبدو أنه كان ذا معرفة بطريقين من طرق القوافل الصحراوية ، طريق سجلماسة إلى تمبكتو عن طريق تغازة ، وهو الطريق الذى اتبعته البعثة طبيعيا عند ذهابها ، وطريق اغادس ثم توات فتلمسان الذى يشير إليه كثيراً ولذا يظن أنه كان طريق عودته .

وبعد أن عبروا اطلس مروا بسجلماسة التى كانت فى ذلك الوقت فى طريقها إلى التدهور ، ثم أوغلت البعثة فى الصحراء وكانت تغازة أول مكان توقفوا فيه لسبب أو لآخر ، ووصف ليو لها سيأتى بعد ولكن يكفى هنا أن نذكر أنه وجدها غير ملائمة إلى حد كبير جداً ، ولذا شكر الله هو وأصحابه حين وصلوا ولاتا فى أمان، وتركوا وراءهم أسوأ مخاطر الطريق . وفى ولاتا — التى كانت أقصى مركز لصنغاى فى الشمال، قابل ليو دعة السودانيين فى بلادهم للمرة الأولى . ومعظم الجوابين الأولين فى الصحراء سواء من المسيحين أو المسلمين سجلوا ارتياحهم عندما وجدوا أنفسهم بين الزنوج الأصدقاء الذين رحبوا بالغرباء فى رقة وسرور مخالفين لتجهم بدو الصحراء وكان ليو من بينهم حين كتب (هؤلاء الناس زنوج ويبدون الصداقة للغرباء) .

والطريق الذى سلكته البعثة بعد تركها لولاتة موضع شك ، ولكن يحتمل أنهم ذهبوا مباشرة إلى تمبكتو التى كانت فى ذلك الوقت مركز بلاط اسكيا ، ومعنى ذلك أنها المكان الذى تؤدى فيه البعثة مهمتها .

وللرحالة العارفين القادمين من الشمال بدت تمبكتو حقيرة المظهر، فلم تكن المنازل غير أكواخ مبنية من الحجر الجيرى مغطاة بالقش . بينما ظهرت المبانى التى أقامها الساحلى فى تناقض صارخ . (هناك يوجد مسجد فى حالة جيدة حوائطه من حجر الجير ثم قصر لأمير، مبنى هو الآخر بواسطة أرقى صناع غرناطة) ،

(وهنا أيضاً دكاكين كثيرة لصناع وتجار ، وخاصة مثل ناسجى الاقمشة التيلية والقطنية ، وإلى هناك يجلب التجار البربر أقمشة من أوروبا ، وجميع نساء المنطقة ـ فيما عـدا الخادمات ـ يسرن بوجوه محجبة يبتعن الاحتياجات الضرورية لهن ، والسكان وخاصة القرباء المقيمون هناك كثيرو الثراء إلى حد أن الملك الحالى زوج بنتيه إلى تاجرين ثريين . وهناك كثير من الآبار تحوى أحلى المياه .)

(وعندما يفيض نهر النيجر يحمل الناس مائه بواسطة أوانى خاصة إلى المدينة. ويوجد بها القمح والماشية واللبن والزبد فى وفرة كبيرة ولكن الملح نادر هنا ، لأنه يستجلب برا من تغازة التى تبعد خمسمائة ميلا. ولما كنت هناك رأيت حمولة جمل من الملح بيعت بثمانين دوكات .)

(والسكان ذوو طباع رقيقة وطبيعة مرحة . يقضون شطراً كبيراً من الليل فى الغناء والرقص فى كل شوارع المدينة . وهم يحتفظون بعدد كبير من الرقيق نساء ورجالا . ومدينتهم فى خطر كبير من الحريق وفى زيارتى الثانية حرق نصف المدينة فى مدى خمس ساعات ، وإذا استثنينا الضواحى لا يوجد فى المدينة حدائق أو بساتين قط .)

ولم تكن مهمة البعثة مع عامة الناس ، ولكن مع اسكيا الذى لم يأل جهداً ـ كما تأكدنا ـ فى أن يجتذب الشريف بثروته وقوته ، فمظاهر الترف والاحتفالات التى أحاط بها الحكام السودانيون أنفسهم تدل ولاشك على التبذير المطلق فى قصر الملك العظيم . ومهما كان الحال لم تبهر ليو هذه المظاهر البراقة أو عظمة القصر فقد كتب يقول :

(للملك الثرى فى تمبكتو أطباق عديدة وصولجانات من ذهب، يزن بعضها ١٣٠٠ رطلا وله قصر فخم أجيد تأثيثه ، وعندما ينتقل إلى مكان ما يركب جملا يقوده بعض النبلاء من رجاله ، وكذلك يفعل عندما يذهب إلى الحرب . وكل جنوده يركبون الخيول ومن يخاطب الملك يجب عليه أولا أن يركع

عند أقدامه ، ويأخذ من تراب الأرض ينثره على رأسه وأكتافه . وهى عادة يراعيها كل من لم يحى الملك من قبل . أو كل من يقدم من السفراء من قبل الأمراء الآخرين ، وهناك ثلاثمائة فارس وعدد كبير من المشاة الذين يرمون بالسهام المسمومة ، يلتحقون بخدمته ولهم دائماً مصادمات مع من يرفضون دفع الضرائب ، وكل ما يأخذونه يبيعونه إلى تجار من تمبكتو . ويربون هنا عدداً قليلا جداً من الخيول . والتجار ورجال القصر يحتفظون بعدد قليل منها يستعملونها فى السفر ، ولكن أفضل خيولهم يؤتى بها من بلاد البربر ، وعند ما يسمع الملك أن تاجراً قدم إلى المدينة ومعه خيول يأمر بأن يؤتى إليه بعدد منها ليختار أفضلها لنفسه ويدفع فيها ثمناً طيباً .)

(وهنا — يستمر ليو فيقول — أن الملك ينفق بسخاء على عدد كبير من الأطباء والقضاة ورجال الدين والفقهاء الآخرين، ويحملون إلى هنا مخطوطات مختلفة من الكتب المكتوبة فى بلاد البربر . وهى تباع بثمن أغلى من أى نوع آخر من التجارة وسكة تمبكتو من الذهب بلا ختم أو كتابة عليها ، ولكن فيما هو قليل القيمة يستعملون نوعاً من المحار يجلبونه من مملكة فارس وتساوى أربعمائة من المحار دوكات واحدا ، وستة وثلاثون من قطعهم الذهبية تزن أوقية .)

وقد وصف ليو مدينة تمبكتو وهى فى قمة مجدها ، فى وقت كان فيه اسكيا وحاشيته هناك ليسبغوا ثوبا من العظمة غير العادية على المظهر الكالح الذى تقدمه عادة . وبالرغم من هذا فمن الصعب أن نجد فى كلمات ليو أى تبرير لمظهر النشاط الذى أملى عليهم صورة العظمة الرومانتيكية . وقد يسمح لنا بأن نشارك ليو إعجابه الظاهر فى أن نجد هذا النشاط التجارى والثقافى المظهر الأول للحياة دائماً إلى حد أن يلفت نظره ولكن لا ليعترف كما فعل ليقول أن تمبكتو كانت مدينة فخمة . فإن السحر الذى أسبغته أوروبا بشدة لمدة

طويلة على هذه المدينة كان يعود جزئياً إلى بعدها، وإلى اشتراكها الوثيق في تجارة الذهب . وحين زارها رينيه كايه Rene Caillie بعد ثلاثة قرون، لم يخدع بل كتب (إنى كونت فكرة مختلفة تماما عن عظمة وثروة تمبكتو فلم تظهر لى عند النظرة الأولى غير مجموعة من المنازل ذات المنظر الكئيب مبنية من التراب) ومازال هناك من لا يستطيع أن يكتب عن تمبكتو بدون أن يعتريه حزن هستيرى .

وأقلع ليو عن تمبكتو بطريق النهر إلى ميناء مجاور هى كبارا Kabara حيث قابل شقيق اسكيا الذى كان أسود اللون ولكن أكثر إدراكا وإذا كان تخميننا عن سفره صحيحا ، فقد أبحر إلى جنى ونيانى التى قال عنها كالعادة أنها مالى .

وفى الوقت الذى زارها فيه ليو، كانت جنى قد أصبحت واحدة من مدن صنغاى منذ عدة سنين، ولكن أهميتها كسوق ومركز للعلم قد قاست قليلا. فبعد قرن تقريبا ، كان السعدى لا يزال قادراً على أن يصفها بأنها أحد أسواق العالم الإسلامى الكبيرة ، حيث يستطيع الإنسان أن يلقى تجار الملح من تغازه، وهؤلاء الذين حملوا الذهب من مناجمه فى بيتو Bitu[1] . ووجد ليو جنى مليئة بالشيلم والأرز والماشية والسمك والقطن . فيخبرنا (يبادلون قطنهم إلى التجار البربر بأقمشة أوروبا والأوانى النحاسية والدروع ومثل هذا من السلع الأخرى . وسكتهم من ذهب دون طابع عليها أو كتابة) .

ووجد ليو أنه بالرغم من أن اسكيا كان قد اضطهد ملك مالى إلى حد أنه (كان قادراً بالكاد على أن يحافظ على عائلته) وبالرغم من ذلك كانت هناك (قرية كبيرة تحتوى على ست آلاف عائلة أو أكثر وتسمى مالى . التى بها تسمى المملكة كلها ، وهى مقر إقامة الملك والمنطقة تنتج كثيراً من

---

(١) كانت بيتو اسما آخر لبندوكو Bonduku وهى منطقة فى شمال الأشانتى

القمح واللحم والقطن . وهنا كثير من الصناع والتجار فى جميع الأمكنة .
والملك يرحب بجميع الغرباء فى كرم والسكان أثرياء . ولهم كثير من الصناعات
وهنا أيضاً كثير من المساجد ورجال الدين والأساتذة . والعلماء يقرأون
محاضراتهم فى المساجد فقط لأنه ليس لهم كلية قط ، وشعب هذا الجزء يفوق
زنوج الأجزاء الأخرى فى الذكاء والمدنية والصناعة .)

ومثل كل مستكشفى السودان من المسلمين أوالمسيحيين سواء وصلوا إليه
عن طريق الصحراء أو بالطرق الخطرة القادمة من ساحل غانة أخذ ليو
تدريجياً بمرح السودانيين .

وأبحر مرة أخرى عن طريق النيجر واتجه إلى صنغاى الشرقية ولابد
أنه مر بتمبكتو فى طريقه . فوجد جاو عاصمة اسكيا (مدينة كبيرة
غير مسورة) .

(ومبانيها حقيرة سوى ما يقطنه الملك وحاشيته، فهنا التجار فائقو الثروة .
وهنا دائماً مصدر لعدد كبير من الزنوج يشترون الأقمشة القادمة من البربر
وأوروبا . كما أن هناك يباع الرقيق وخاصة فى مثل هذه الأيام التى يجتمع فيها
التجار وحيث يباع الرقيق الشاب ذو الخمس عشرة سنة بستة دوكات، وكذلك
الأولاد يباعون . وملك هذه المنطقة له قصر خاص يحتفظ فيه بعدد من النساء
والرقيق يحرسهم الخصيان ، وللمحافظة على شخصه يحتفظ بفرقة من الفرسان
والمشاة . ومن المدهش أن نرى كثرة التجار الذين يقدمون يومياً إلى هنا
وارتفاع أثمان جميع البضائع، فالخيول المشتراة من أوروبا بعشر دوكات تباع
ثانياً بأربعين وبعض الأوقات بخمسين دوكات للحصان الواحد . وأقمشة
أوروبية خشنة لا تباع بأقل من أربعة دوكات للقطعة الواحدة ، أما إذا كانت
جميلة نوعاً فإنهم يدفعون فيها خمسة عشر دوكات، والقطعة القرمزية من البندقية
أو تركيا تساوى هنا ثلاثين دوكات . والسيف يسوم بثلاث أو أربع قطع

ذهبية وكذلك الحراب والسروج والسلع الأخرى. ويباع البهار بسعر مرتفع، ولكن الملح أغلى من كل ماعداه فهو غالى الثمن جداً .)

ووجد ليو الذهب متوافراً فى جاو إلى حد أن الأهالى لا يستطيعون أن يبيعوا كل ما أحضروه معهم إلى السوق فيعودون بكثير منه[1].

وأكمل ليو رحلته شرقاً . فأتى إلى بلاد الهوسا التى كان اسكيا قد فتحها حديثاً — وإلى جوبر حيث شاهد شيئا من صناعاتها التى اشتهرت بها الهوسا فكتب يقول (هنا مخزن كبير للصناع ونساجى التيل وكثير من الأحذية المصنوعة على مثال تلك التى كان يصنعها الرومان الأقدمون. والناس متعودون على لبسها، والجزء الأكبر منها يحمل إلى تمبكتو وجاو) والعبارة التالية تصف بذر الأرز كما هى الآن فى سكوتو وكبي وستكون موضع تقديرنا حين نصل إلى أثر أعمال ليو على خريطة أوروبا .

واستمر ليو مسافراً نحو الشرق فمر بعد ذلك بأربع من ممالك الهوسا هى زمفارا Zamfara وكاتسينا Katsina وكانو Kano وزاريا Zaria، فوجدها جميعا قد تخربت من جراء غزو صنغاى الحديث لها ، تسحقها الضرائب التى فرضت عليهم ، ولأجل أرغامهم على الدفع أرسل اسكيا حكاما ظلموا الناس وأفقروهم،وهم الذين كانوا اثرياء من قبل . حقا ان بلاد الهوسا كانت دائما غنية، وكان غناها هذا على حساب النشاط غير العادى للزراع والصناع والتجار أكثر مما هو على حساب خصوبة التربة رغم أنها موضع التقدير .

ويذكر ليو أحد ملوك الهوسا الذى (ذبح فى أيامى بواسطة اسكيا ملك تمبكتو وأخذ أولاده ليصبحوا من بين خصيان الملك العديدين . والجزء الأكبر من السكان حملوا إلى حيث استرقهم الاسكيا المذكور) ، وذبح أيضا

---

(٢) هذه العبارة حذفها من النص الإنجليزى Pory ولكنها موجودة فى الترجمة الفرنسية التى قام بها تمبورال Temporal

أمراء كاتسينا وزاريا وزمفارا ، ولكن أمير كانو كان أسعد حظا . إذ لم يسلم إلا بعد مقاومة جبارة ، فأمن له احترام الفاتح ومنح شروطا كريمة ، فقد سمح له أن يحتفظ بشعبه على أن يدفع ثلث الضريبة لأسكيا ، وطلب منه أن يتزوج بإحدى بنات اسكيا ، وهو شيء نظن أنه كان تحية له .

وتابع ليو رحلته إلى الشرق أيضا فاتجه إلى بورنو التى لم تصلها جيوش صنغاى ، وهى تقع فى الطرف الجنوبى لطريق جارامانتس القديم إلى السودان . وأقل معابر الصحراء وعورة . ولذا يظن أنها لم تفقد اتصالها تماما بأسواق الشمال . وبالرغم من هذا كان معظم تجارتها مع الساحل البربرى أيام ليو فى الخيول . ورغم أن الذهب كان وفيراً إلى حد أن جعلت سلال الكلاب الملكية من الذهب ، فقد صمم أهلها على أن يدفعوا ثمن الخيول رقيقا ، وكان أكثر مما يحتاجون إليه بسبب كثرة حروبهم مع جيرانهم الضعفاء . فكانوا يدفعون خمسة عشر أو عشرين رقيقا للحصان الواحد . ولكن التجار البربر كانوا يفضلون الذهب أكثر من كل شيء وفى الأيام الأخيرة قدموا من أجل الرقيق فقط ولم يكونوا يتاجرون فى شيء آخر . ولم يكن فيما وراء عن بورنو مايجذبه . فبدأ رحلة العودة نحو الشمال ومن المحتمل أن تكون عن طريق أغادس .

وفى النصف الأول من القرن السادس عشر كانت أفكار الناس مشغولة جداً بالحوادث المثيرة التى كانت أبعد ما تكون عن إفريقيا . فقد ختم القرن باكتشاف كولومبس للعالم الجديد ، وكذلك بكشف طريق بحرى جديد إلى الهند والشرق الأقصى بواسطة فاسكو دى جاما ، وأعطى الكشف الأول إمكانيات واسعة لم تكن فى الإمكان حملها ، وبدا الثانى كمصدر ربح واسع أكيد . وفى مدى خمس سنين اتسع أفق الإنسان المتمدين إلى حد وجد معه أنه من المستحيل أن يلم به ، ولكن هذا لم يكن كل شيء . فقد افتتح القرن الجديد باكتشاف البرازيل وإلقاء النظرة الأولى على المحيط الهادى . وتأسيس إمبراطورية برتغالية فى الهند وإتمام وأول رحلة حول العالم .

حدث كل هذا فيا بين مولد ليو وكتابته عن رحلاته فى إفريقيا ، وهى التى تقارن بالحوادث الجغرافية الكبيرة التى عاش خلالها. وبدت له ولغيره كأنها من الحوادث الصغيرة . فلا يدهشنا إذن أن ظلت قصته مجهولة تماما حتى نشرها راموسيو فى منتصف القرن . وقبل نهاية القرن طبع كتاب راموسيو (رحلات وأسفار) عدة طبعات وأصبح ليو معروفا .

وفى نفس الوقت كان راسمو الخرائط يعيدون رسم خريطة إفريقيا على ضوء روايات ليو،وظل هذا الاعتماد قائماً وكاملا إلى وقت مجىء منجوبارك Mengo Park وغيره من مستكشفى إفريقيا لقرنين، ولسوء الحظ هذه العمل العظيم الذى قام به راسمو الخرائط بأخطاء جسيمة حتى لا تستطيع تقديم عذر لها وكانت أخطاء عظيمة لا تصدق .

ذكر هيرودوت أن نهراً يسير من الغرب إلى الشرق. يقسم إفريقيا كما يقسم الدانوب أوروبا،واعتقد أنه النيل الذى ذكره بلينى وبطليموس . وفى القرن العاشر كان ابن حوقل أول من زار السودان من الجغرافيين العرب وأكد عبارة هيرودوت أن النهر يسير إلى الشرق.وبعد قرنين ذكر ذلك الإدريسى العظيم الذى لم تر عيناه النيجر،ويبدو أنه خلط بينه وبين السنغال حين قال أنه يسير إلى الغرب،وفى القرن الرابع عشر استطاع ابن بطوطة أن يصرح أنه رأى النيجر يسير إلى الشرق . ولكن الإدريسى كان محترما كثيراً إلى حد أن كثيرين فضلوا ما رواه هو عن طريق غير مباشر ، على ما رواه غيره عن تجاربهم الشخصية . ومن هنا اعترى الناس شك كبير فضلوا عن الصواب . وكان لدى ليو الفرصة أن يبدد هذا الشك فينكشف معه أقدم أسرار العالم الجغرافى ، ولكنه بكل أسف فشل أكثر من الفشل حين كتب أن (النيجر يسير نحو الغرب إلى المحيط . وقد أبحرنا فيه مع التيار من تمبكتو إلى جنى ومالى) .

ليس هناك من تفسير مرض لهذا الخطأ الذى وقع فيه ليو حين ذكر أنه

ركب مياهه لخمسائة ميل أو أكثر . وربما دفع إلى هذا الخطأ عن طريق من وصفوا العالم من الرومان الذين (كما يخبرنا)ظنوا أن النيجر فرع من النيل . والذين كما نعتقد لا يرضون أن تهتز ثقتهم بالإدريسى عن طريق شاب مغربى أسير، ومهما كان سبب هذا الخطأ الجسيم فقد استمر راسمو الخرائط يجعلون النيجر يجرى غربا إلى أن ثبت خطأ ليو وذلك يوم سيجو الكبير فى سنة ١٧٩٦ حين أكد منجو بارك إنه يسير نحو الشرق .

وليس كتاب ليو (تاريخ ووصف إفريقيا) مدونة يومية . ولكن كما يذكر العنوان وصف لممالك إفريقية اجتاز المؤلف معظمها . وهو يكتب لقراء يبحثون عن معلومات عن إفريقيا لا لراسمى الخرائط، وعلى ذلك حين بدأ الأخيرون عملهم فى النص لم يجدوا دائما ترجمته عن أغراضهم سهلة . فبعض العبارات كانت تقرأ بطرق مختلفة بواسطة راسمين مختلفين ، وقلة الوضوح فى النص شاركت فى الأخطاء . ولكن اللوم يقع كله على صانعى الخرائط .

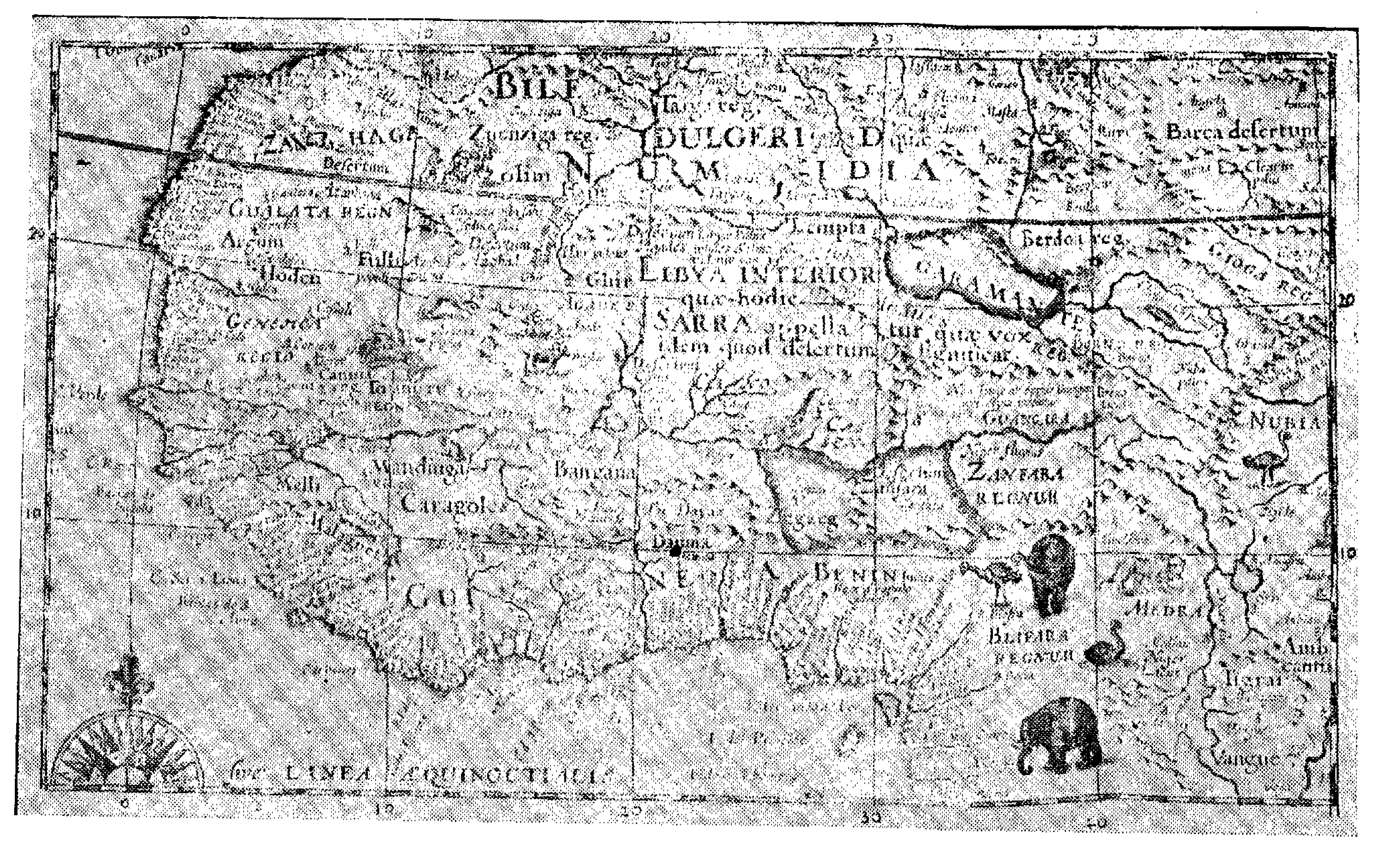
ذكر ليو أن فى إمارة جوبر Cobir التى هى من بلاد الهوسا، كثير من الأرز وفى مدة فيضان النيجر تغطى كل حقول المنطقة بالماء وحينئذ يبذر الناس الحب فى الماء فقط فأخذ راسمو الخرائط ذلك ليفسروه بأن فى جوبر مستنقعات واسعة بينها تراميزينو Tramizino على خريطته aigritis Palus فبدأوا حينئذ يشتبهون فى أن العبارة التى فى (ليو) تشير إلى بحيرة كبيرة كان قد أشار إليها فى قرن سابق دييجو جومز Diego Gomez أحد قوادهنرى البحريين فى مكان ما فى غرب إفريقيا وربما كانت فى ذهن من اخبره عن البحيرات الكبيرة . ديبو وفاجبين Debo & Fagbine اللتين فى شمال تمبكتو . وإذا بدأنا بخريطة جياكونو دى كاستالدى Giacono di Casteldi فى سنة

١٥٦٤ نجد بحيرة كبيرة أطلق عليها اسم بحيرة جوبر Lago de Guber تبدأ فى الظهور على الخرائط وظلت كذلك حتى نهاية القرن الثامن عشر [١] .

ليس هناك من شيء أقل عدلا لليو من أن نحكم عليه بما فعله راسمو الخرائط بنصه ، فكتابه (تاريخ ووصف إفريقيا) كان صورة لمعلومات أخذت لمدة طويلة وليس لها بديل لقرنين ونصف لكل من اهتم بإفريقيا كما هو اليوم فى حقل الدراسات التاريخية الضيق . فإذا غضضنا النظر بعطف عن خطئة المدهش عن مجرى النيجر فليس هناك من نقد لكتابه . من إشارته المتواضعة إلى بلينى حين قال (أنه أخطأ قليلا فى بعض التعليق على الأمور المتعلقة بإفريقيا وهى عمل أقل من أن يشين جمال عمل عظيم كهذا) .

---

(١) كانت البحيرة تسمى أحيانا سجسمس Sigisnes وأحيانا أخرى جواردى Guarde ، ولكن لماذا لم تشرح فى كل الحالتين. قد أطلق بلاو Blaeu فى سنة ١٦٥٩ سنكس Senex حوالى ١٧٠٠ اسم سجسمس على نصف البحيرة وعلى النصف الآخر جواردى. بينما ملك فير Fer فى سنة ١٦٩٨ ومول Moll فى سنة ١٧١٠ حاسة ناقدة أكثر من سابقية وربما ظنا أنه من الأفضل أن يقتربا من ليو فأعطى الأول اسم Mansis de guarde والآخر Bogs & Monsses de garde وبين دانفى Danville وروبرت Robert فى خريطتهما فى سنة ١٧٧٠ البحيرة ولكن لم يعطيا لها اسما .



شكل ٤ — خريطة إفريقيا كما ظهرت فى كتاب وصف إفريقيا الجديد لبلاو سنة ١٦٦٥

(١٢)

مولاى احمد المنصور

١٥٧٨ — ١٦٠٣ (٩٨٦ — ١٠١٢ هـ)

ليس ليو مديناً بشهرته إلى أسفاره التى لا تعتبر غير عادية لرجل مغربى، ولكن لما كتبه عن الممالك التى زارها . فعباراته الحية لم تكن مثيرة لمواطنيه (لأنهم — بخلاف المسيحيين — كانوا يعرفون كل شىء عن هذه الممالك البعيدة التى وصفها)ولم تأتهم زيارة ليو بجديد كانوا يجهلونه فى وقت كانت فيه التجارة عبر الصحراء على قدر من النشاط لم تبلغه من قبل .

ففتوحات إسكيا العظيمة أمدت صنغاى بثروة هائلة . فأملاكهم الواسعة التى امتدت من الغابات المطيرة فى الجنوب إلى الصحراء فى الشمال . ومن الهوسا شرقاً إلى المحيط غرباً كانت لها مواردها الطبيعية التى تفيض عن حاجتهم . فالتربة الخصبة التى يقوم بزراعتها فلاحون دائبو العمل تحت ظروف مناخية مختلفة اختلافاً كبيراً . ومناطق السفانا الممتدة التى تكفى قطعانهم الكثيرة العدد من الماشية والماعز والضأن . والعديد من الأنهار والبحيرات المليئة بالأسماك، كل هذا أمدهم بكميات لا تنفذ من مختلف الطعام ، ولأجل إرضاء مطالبهم الضرورية الأخرى كان عندهم أيضاً عدد من الصناع من أصحاب المهارة يصنعون ما يطلبون من ثروتهم المعدنية الضخمة . فهم لم يشعروا بالنقص قط بل كان لديهم أيضاً فائض كبير من الذهب والرقيق . وهم يستطيعون أن يمتلكوا كميات غير محدودة من الذهب ما داموا يسيطرون على موارده الرئيسية ، وكذلك من الرقيق ما داموا يستطيعون أن يغيروا على جيرانهم الضعفاء ليحصلوا على كل ما يريدون .

وكان استثمارهم لهذه الثروة الهائلة يهدف إلى طلب مزيد من الرفاهية

وهى تعنى لصنغاى بضائع البحر المتوسط ، وبما انصب بصفة مستمرة من الضرائب إلى جاو وتمبكتو استطاع الصنغاى أن يتاجروا مع المغرب على نطاق لم يكن قبل ذلك مستطاعا للشعب السودانى ، حتى ولا لماندنجو مالى أيام منسا موسى، إذ لم يحتج الشمال مطلقاً من قبل إلى مثل هذه الكميات من الذهب والرقيق . فبصفة مستمرة كانت قوافل الصحراء تعمل فى حركة دائبة لم تشهدها من قبل . واستقر على طول الساحل الشمالى لإفريقيا كما يخبرنا ليو — تجار يتاجرون مع السودان وفى كل مدينة سودانية عاش مغاربة مغتربون ويهود انهمكوا فى نفس هذه التجارة .

وفى نهاية القرن السادس عشر . حين كان الذهب لا يزال ينصب دون قيد إلى المغرب وحين كانت قصة ليو عن الممالك الغنية فى قلب إفريقيا لا تزال تقرأ على نطاق واسع فى أوربا تسلم المغرب فجأة مزيداً جديداً غير منتظر بتاتا من هذه الثروة .

ولا يروى لنا التاريخ كثيراً بما يعادل النكبة التى نزلت بالبرتغال فى سنة ١٥٧٨ فى موقعة القصر الكبير . فقد جرهم إلى الحرب مع مغاربة مراكش ملكهم الصغير ذو التجربة اليسيرة . دون سباستيان Don Sebastian ولم تكن هناك ظروف محيطة بالملك تدعو إلى الفشل ألا وهى متوفرة ولكن عظم النكبة التى تلت فاقت أقصى الإحتمالات. ففى مدى ست ساعات فى يوم من أيام أغسطس الحارة . أبيدت قوة برتغالية بلغت ستة وعشرين ألف رجل ، ولم ينج من الموت أو الأسر إلا أقل من مائة ولكن لم يكن هذا كل شىء فى نكبة البرتغال .

فإلى جانب فقدها لزهرة شبابها ، انتقلت سيادتها إلى أسبانيا كما انتقلت إمبراطوريتها الضخمة إلى يد فيليب المتعصب القاسى . هذه كانت نتائج المعركة المباشرة التى نظر إليها ادوارد كريزى E ward Crasy ،

ولم تغير معركة القصر مجرى التاريخ فى أوربا فقط ، بل انتشرت نتائجها إلى إفريقيا وامتدت إلى الصحراء ومدت يدها الملطخة بالدماء من فاس إلى النيجر وما وراءه .

وكان بين قتلى المعركة قائدا الجيشين دون سباستيان وعبد الملك شريف فاس . وليس أول نتائج المعركة المفجعة المرض المميت الذى أصاب الشريف الذى لم يعد يستطيع الجلوس على جواده فأدرك إنه رجل ميت . بل مات فى لحظة النصر بعد أن عين أخاه الأصغر خليفة له وهو مولاى أحمد الذى لم يكن قد بلغ التاسعة والعشرين من عمره وأضاف الشريف الجديد إلى اسمه لقب المنصور .

وقد كسبت الحرب للمغاربة صيتاً فى العالمين المسيحى والإسلامى . فاق كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد . وبالرغم من هذا . بدأ المنصور عهده مثقلا بالمشاكل . كانت المملكة منقسمة ، كما كانت دائماً إلى جماعات مستعدة لأن تنصر أى واحد من الثلاثة أو الأربعة الذين يدعون العرش ، والذين يستندون على إدعاءات أقوى من إدعاءات المنصور نفسه . ولذا لم يرحب الناس بارتقائه العرش وكل الفخر الذى كسب من هزيمة المسيحيين انصرف عن حق إلى أخيه المتوفى . ولذا أنكروا عليه النصرة التى يتمتع بها كل بطل شعبى . وأصبح ظاهراً أن الاضطراب — الذى كبحته يد أخيه الحازمة — قد ينبعث إلى نار فى أى لحظة ، فلم يكن هناك إلا قلة يستطيع أن يثق بهم . أقلهم سكان العاصمة . لأن الفاسيين كانوا يكرهون بيتهم المالك .

وكان هناك من الأخطار الثقيلة مايثقل عقل المنصور . إذ لم تكن أوربا لتسمح أن تمر هذه الهزيمة دون انتقام ، وكانت الأداة المحتملة للانتقام المسيحى جاره القوى فيليب ملك اسبانيا الذى لم يكن يفصله عنه إلا أميال

بحرية يسيرة . وكان الأتراك فى الجزائر أقرب من ذلك . وما زالوا يحقدون على المغاربة مقاومتهم القوية للانضمام إلى الإمبراطورية العثمانية . وكان الحقد يملأ نفوسهم من أجل الإنتقام للهزيمة الساحقة التى نزلت بهم فى ليبيانتو منذ سبع سنين ليس غير . ولذا لم يكن هناك من هلل للنصر الكبير ، بل فى كل مكان كمن الخطر الذى يهدده .

وبالرغم من هذا بدأت الوفود المختلفة من الرسل المهنئة تصل حاملة معها الهدايا الثمينة . ولكن معها أيضاً معاول الهدم ، وكان أولها من باشا الجزائر. وثانيها من البرتغال تطلب فك الأسرى ، وكذلك سفير وليم أورانج الذى دخل بعض رعاياه فى خدمة سباستيان ثم اليزابث ملكة انجلترا التواقة لأن تواصل التبادل غير المشروع للسلاح ، مقابل ملح البارود المراكشى ، فقد أرسلت سفيراً ، ولكن مما يدعو إلى الدهشة أنه لم يكن يحمل من الهدايا ما هو جدير بالتسجيل . ومع ذلك كان هناك فى القصر من يحبذ عقد معاهدة بينها وبين المنصور . وحمل سفير فرنسا هدية فخمة وهو يأمل عقد معاهدة صداقة بين المغرب والملك الخائن هنرى الثالث الذى كان يعيش دائماً بعيداً عن أى حليف معاد لأوربا المسيحية[1] . ولقى سفير ملك اسبانيا الإكرام أكثر من أى سفير آخر . وكانت هديته حجراً من الزمرد فى حجم اليد وزمردة فى حجم التفاحة . وكمية كبيرة من اللؤلؤ وجدها المنصور مرضية ومؤكدة لهذه الصداقة ، وكان السفير التركى أقل الجميع نصيباً من الترحيب ، إذ ظل ينتظر المقابلة وقتاً طويلا مما جعل السلطان مراد لا ينسى هذه الإهانة ، وبينما كان المنصور لا يزال يعتبر نفسه حاكما قوياً مكنته بضعة إجراءات سعيدة من أن يظهر حزما أدى إلى تقوية مركزه شيئا

---

(١) كانت أوروبا فى ذلك الوقت تعتبر مجرد تحالف ملك مسيحى مع ملك مسلم خيانة للعالم المسيحى ولم يكن حال العالم الإسلامى بأفضل من ذلك .

فشيئا . وقبل أن تمضى مدة طويلة أصبح مركزه على العرش قوياً إلى حد لم يعد هناك ما يهتم به أو يخشاه ، ولم تكن الشؤون الخارجية أقل من ذلك أثراً إذ مرت الأيام دون هجوم من أى ناحية سوى حملة تركية فاشلة استدعاها مراد قبل أن تصل هدفها فى مراكش ، وأصبح من الواضح أن خطر الإعتداء الأجنبي قد أصبح أقل مما كان يظن .

وأصبح المنصور قادراً على أن يتمتع بثمرات النصر منذ أن تخلص عقله من القلق الذى كان يتمثل فى فدية الأسرى المسيحيين ، ولم يكن هناك من يجيد حساب ذلك أفضل من المغاربة أصحاب التجربة الفريدة فى غارات القرصان . وليس من الممكن أن نحسب مقدار هذه الفدية ولكن ظلت خزائن الشريفين تفيض بالذهب الأجنبي لعدة سنين . إذ بعد أن بلغوا أقصى التبذير فى الداخل كان هناك من الذهب ما يكفى لأن يسد المطالب المالية للملوك المسيحيين المحتاجين . ومن بين هؤلاء كان ملك فرنسا والدون انطونيو المطالب بعرش البرتغال والذى أعطى ما يريد بفضل الحاح الملكة اليزابث .

وتركز أسراف المنصور الشخصي أكثر ما يكون على بناء قصر كبير متسع فخم فى مراكش ، استخدم فيه آلافا من المسيحيين . وقدمت السفن الكثيرة تحمل من الهند أثمن مواد الشرق لتزيينه . وأمدته إيطاليا وإيرلندا بالرخام اللازم لآلاف الأعمدة[١] وأحيط القصر بحدائق فخمة تتناسب مع فخامة الداخل حتى أصبح (البديع) كما أطلق عليه بعد ست سنين من المعركة فى مظهر صورة من العظمة لا تضارع[٢] .

---

(١) استناداً إلى العفرانى كان الإيرلنديون يبادلون الرخام فى مراكش بما يوازى ثقله من السكر .

(٢) دمر قصر البديع أو دار البديع مولاى اسماعيل فى سنة ١٧٠٧ .

وبالرغم من أن علاقات الشريف بجيرانه ظلت علاقات صداقة ، فإن الإستعدادات للحرب ظلت تشكل حاجة ملحة ، فالأتراك كانوا فى داخل قلوبهم يكنون العداء كما هو دأبهم . والقوى المسيحية . فيما عدا فرنسا — أعداء دائمون للاسلام لا يوثق بهم مطلقاً ، وكان فيليب يلح دائما من أجل المطالبة بميناء لاراش الصغيرة التى تطل على المحيط وهى الحارسة الطبيعية للطريق الغربى المؤدى إلى المضيق . وادعى هذا الميناء أيضاً الأتراك وكذلك فرنسا والأراضى الواطئة . فكانوا جميعا يكنون اهتماما سيئا بمستقبلها . وأكثر من ذلك كانت هناك إشاعة أن إنجلترا كانت تملك خططا تحوم حول الميناء الجنوبى موجادور ما داموا فى احتياج إلى السكر الذى كان مادة تجارتهم مع المغاربة .

تحت كل هذه الظروف استمرت رغبة المنصور الرئيسية فى المحافظة على جيشه دائما على أهبة الحرب ، وحصل عبد الملك على الخشب لسفنه والسلاح اللازم لجيشه من اليزابث العاهلة المسيحية الوحيدة المستعدة لتحدى الحظر البابوى على التجارة مع المسلمين فى المواد الحربية . وقد فعلت ذلك فقط من أجل حاجتها الملحة لملح البارود اللازم لصنع الذخيرة ، والذى كانت تحصل عليه فقط من المغاربة — وبالرغم مما فعلته لإخفاء دورها فى هذه التجارة غير المشروعة ، فقد عرف بها فيليب . وملأت المرارة قلبه حين تحطم الجيش المسيحى فى موقعة القصر بواسطة أسلحة مستوردة من انجلترا . ولذا اعترض بشدة عندما علم برغبة اليزابث فى إعادة العلاقات التجارية مع المنصور ، إلى حد أن اضطر الشريف إلى رفض طلبها . ولكن عودة التجارة كانت رغبة ملحة لدى المنصور من أجل تزويد جيشه بالسلاح وكانت تعادل رغبة اليزابث فى الحصول على ملح البارود ، ولم تمض مدة حتى عرفت اسبانيا وكل العالم المسيحى أن المغاربة يحصلون على حاجتهم من خشب السفن من إنجلترا وكذلك كرات المدافع والمجاديف بل وأشرعة السفن التى لم تصنعها من قبل .

وفى نفس الوقت . كانت الرغبة فى الحصول على هذه المواد الحربية من أجل الدفاع عن مراكش آخذة فى النقصان . فإن الحملات على فارس والإضطرابات الداخلية كانت منهكة لقوة الأتراك ، حتى أصبح من الواضح أن لاخطر منهم فى القيام بمخاطرة أجنبية جديدة . أما فى المواطن القريبة فإن اتحاد عرشى أسبانيا والبرتغال لم تكن له من العواقب ما انتظرها العالم كله ، والثورة فى الأراضى الواطئة كانت تبدو أقل انهاكا لفيليب كما أنهكت الحرب الفارسية قوى تركيا ، وعلى رأس ما واجه فيليب بركان الحرب مع اليزابث . ولذا لم يكن هناك ما يخشاه من أسبانيا أكثر من الأتراك . ولذا بدلا من تنقص مطالب المنصور من اليزابث فإنها أخذت فى الزيادة .

وكان سبب ذلك سر احتفظ به جيداً . فباستقرار العرش وزوال خطر الإعتداء الأجنبي، كان الشريف يخطط من أجل استعمال جيشه فى عملية جديدة مدهشة . فقد صمم على أن يغزو السودان ويسلب الصنغاى الجهلاء مصدر الذهب الذى كان ينصب على المغرب فى هذا الفيض الكبير . وإمكان القيام بهذا العمل لاشك قد جالت بخواطر المغرب قبل ذلك ، كما جالت بخاطر الأمير هنرى فى قرون سابقة . فبعد سنين طويلة من محاولات أجيد تخطيطها ، ولكنها غير مثمرة عرف البرتغاليون أنه من العبث الوصول إلى حقول الذهب عن طريق البحر فصمم المنصور على أن يصل إليها براً . وكانت مخاطرة جيش فى طرق صحراوية تنتثر عليها عظام الإنسان والحيوان التى تتركها قوافل التجارة الصغيرة تبدو لكل العقول ضربا من الجنون . ولكن المنصور كان قد فكر فى المخاطرة أكثر مما وزنها وقدرها .

(١٤)

تغـــــازة

كان التبادل الصامت مع شعب غير منظور ، ثم جهاد شعب غير منظور فى أن يرحل مع ذهبه بأى شىء إلا الملح ، هى المميزات البارزة لتجارة الذهب فى غرب إفريقيا ، هذه المبادىء الأساسية التى أملاها شعب مجهول بدائى إلى أقصى الحدود لابد أن تقبل دون أى سؤال يبديه كل من دخل فى هذه التجارة . كانت هذه هى القيود التى حددت أعمال الوسطاء السودانيين أصحاب الامتياز الذين كانوا يعرفون أين يذهبون من أجل تجارة الذهب وكيف يتعاملون حين يصلون إلى هناك وإلى التجار البربر الذين ينتجون الملح الضرورى الذى كانت تغازه هى المصدر الرئيسى له . بل اقتربت لتصبح الوحيد لأن ملح البحر الذى هوالبديل الوحيد،لم يكن يمكن الحصول عليه فى الداخل. وبالرغم من مركز تغازه المسيطر فى تجارتهوالتى أثرى منها كثيرون، واشترك فيها كثيرون آخرون ، فإنه لم يكن لها تاريخ سياسى . فقد جرت فى إنتاج الملح لا تزعجها الصحراء ولا السياسة .

ولابد أن نجد أن الإضطراب السياسى فى مكان هام جداً للتجارة كثيراً ما يثير الرغبة الشديدة لأمم كثيرة فى إمتلاكه،ولكن لم تكن دوافع المنصور هى الرغبة فى أن يضع حداً للهدوء التقليدى لتغازة ، وقبل أن نبحث عن الأهمية السياسية لما حل بها فجأة وعلى غير إنتظار ، يحسن بنا أولا أن ننظر ما كانت عليه أحوالها من قبل . ومن حسن الحظ أن ابن بطوطة زارها

كما وصفها كل من ابن بطوطة وليو الإفريقي .

فني القرن الرابع عشر — استناداً إلى كتابات ابن بطوطة — كانت تغازة (الاخير فيها — بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولاشجر بها . إنما هي رمل فيهمعدن الملح يحفرعليه في الأرض . فيوجد منه ألواح ضخام متراكبه كأنها قد نحتت . ووضعت تحت الأرض ، يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون مما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن انلي المجلوب من بلاد السودان ، ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بايوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ، وبمدينة مالى بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا ، وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعا ويتاعون به وفي قرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر . وأقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذبابا ومنها يرفع المساء لدخول الصحراء التي بعدها) .

ويصور ليو الإفريقي — وكان قد مر بتغازة في طريقه إلى السودان — صورة أوضح لهذه المنطقة المعزولة ولبؤس سكانها فيقول :

(في هذه المنطقة مخزن كبير للملح يحفر إليه،وهو هناك أثمن من المرمر . وهذا الملح يؤخذ من كهف معين أو حفر تقع عند مدخلها أكواخ من يعملون في مناجم الملح . ولما كان هؤلاء العمال جميعا من الأجانب فإنهم يبيعون الملح الذى يستخرجونه إلى تجار معينين يحملونه على جمال إلى مملكة تمبكتو حيث الملح نادر ندرة شديدة . ومستخرجو الملح ليس عندهم

أى طعام بل يأتى به إليهم التجار ، لأنهم بعيدون عن الأماكن المأهولة مسافة عشرين يوما ، إلى حد أنهم يهلكون جوعا فى بعض الأوقات إذا ما تأخر التجار عن الوقت المناسب . وأكثر من ذلك فإن الرياح الجنوبية الشرقية تعمى أبصارهم حتى انهم يعيشون هناك معرضين دائما للأخطار ، وقد عشت بينهم ثلاثة أيام اضطررت خلالها إلى شرب الماء المالح الذى يستخرجونه من بئر معينة ليست بعيدة عن مواطن الملح).

وفى القرن السادس عشر كانت المناجم لا تزال يستغلها مسوفة الطوارق بواسطة الزنوج من الرقيق

وبالرغم من بعد تغازة عن السودان وقربها من مراكش تبدو المناجم وكأن حكام مراكش او فاس لم يسيطروا عليها أبداً ومن المحتمل أن يكون هذا لايعنيهم كثيراً لأن المسوفة لهم أكثر من سبب يستطيعون به تعطيل تجارة يكتسبون منها كثيراً وإلى جانب أرباحهم من بيع الملح فهناك الضرائب والمكوس الأخرى التى تفرضها قبائل الصحراء على القوافل المارة ببلادهم[1] . وفى هذا الوقت كان المسوفة أتباعا لصنغاى وفى حدود ممتلكاتهم. وعلى ذلك تقع مناجم الملح فيها وقد سخطوا عليهم سيادتهم عليها.

وبالرغم من أن المغاربة لم يكن لهم من سبب للخوف على تجارتهم مع

---

(١) فى أيام ليو فرضت صنهاجة صريبة تساوى دوكات واحد من القماش على كل حمولة جمل تمر بأرضهم من تغازة وولاتا .

السودان من التوقف فإن امتلاك تغازة كان أمراً ثميناً فى نظرهم . فهى تعطيهم قدراً من التحكم فى أسواق الذهب ، وإذا كانوا لم يسيطروا على مناجم الملح فيحتمل أن يكون ذلك سبباً فى تدخلهم فى سياسة الصحراء ـ والتسبب فى إحداث غارات عاصفة على مراكش . ففى سنة ١٥٤٦ (٩٥٣ هـ) حاول والد المنصور ـ الشيخ محمد[1] ١٥٤٤ — ١٥٥٧ (٩٥١ — ٩٦٥) أن يحمل اسكيا اسحق — الذى كان يحكم صنغاى آنئذ على أن يتنازل له عن المناجم . فأجاب إسحق ان الإقتراح غريب من حاكم عظيم كالشريف . وأن اسحق الذى يوليه إهتماما ليس هو . بل لم يولد بعد ولكن اسكيا لم يقتنع بهذه الإشارة الخفيفة . بل أرسل ألفين من الطوارق يغيرون على درعه إحدى ولايات مراكش التى تقع عند سفوح جبال أطلس وإلى الغرب من سجلماسة . وأمرهم أن يسلبوها أكبر ما يستطيعون ، وان يصعدوا حتى أبواب مدينة مراكش إذا أمكنهم ذلك . ولكن المغيرين لم يتجاوزوا درعة ، وبالرغم من أنهم سببوا خسارة جسيمة فإنهم كانوا حريصين على أن لا يقتلوا أحداً ويبدو أن اسحق قد أمر بهذا الأمر غير العادى ، لأنه لم يرغب فى أن يثير حرباً مع الشريف . ونجح فى ذلك . ولكن بعد عشر سنين انتقم محمد لها . فقد أرسل جماعة للإغارة على تغازة ، قتلت حاكمها من قبل صنغاى وعدداً من الطوارق امسكوا بهم حاملين الملح على جمالهم .

وعندما ارتقى المنصور العرش فى ١٥٧٨ (٩٨٦هـ) كان اسكيا اسحق لا يزال حيا . ولكن اسكيا داود خلفه بعد ذلك بقليل ، وكانت قد مرت فترة طويلة من الهدوء

---

(١) يخطىء السعدى فيقول أن هذا الشريف هو أحمد بن العروجى ولكن هذا الأخير خلفه أخوه محمد فى سنة ١٥٤٠ بعد ارتقاء اسكيا اسحق بعام .

على تغازة ارتفع فيها قدر المغاربة إلى القمة من جراء النصر الذى حازوه فى موقعة القصر الكبير. فرأى السلطان أن الأمر يستحق محاولة القيام ببعض الخطوات المفيدة مع اسكيا . فاقترح على داود أن يترك له المناجم سنة ولعل الاسكيا تبين أن سلطان المغرب قد أصبح قويا إلى حد أنه يستطيع أن يستولى على تغازة إذا اراد . فاتفق معه على ذلك ووضع أساس علاقات صداقة بين الدولتين .

ولم يكد الحاج محمد خليفة داود يجلس على العرش لبضعة شهور حتى قدم سفير من السلطان إلى جاو يحمل هدية ثمينة لاسكيا الجديد ، فقوبل السفير بحرارة ، ورد بهدية من الرقيق (منهم ثمانون من الخصيان) وبعض من الزبد والمنتجات النادرة الأخرى وكانت الزيارة أبعد من أن تكون عملا من أعمال المجاملة، ولذا اعتقد ملك الصنغاى أنها ليست أقل من استطلاع حربى.

ومن المحتمل أن يكون المنصور قد بدأ برسم الخطة لغزو السودان فى سرعة بعد حملة تأديبية يرسلها إلى واحتى توات وجورارين ليجرب إمكانية تحرك إعداد كبيرة من القوات عبر الصحراء . فالغزوة على صنغاى تستلزم سيراً اطول فى الصحراء ولكن المنصور اعتقد أنه من الممكن القيام بها، وقد صمت العفرانى المؤرخ المغربى عن هذا الجزء من حكم المنصور ، ولذا كانت معلوماتنا قليلة عن التجهيزات التى تمت للحملة . ولا يستطيع الانسان أن يشك فى أن الثلاثة آلاف ياردة من القماش الإنجليزى التى وصلت إلى مراكش فى فبراير سنة ١٥٨٤[1] والتى كانت قد طلبت من أجل عمل أغطية الأسلحة النارية للجيش المنتصر قد طلبت من أجل هذه العملية التى يقوم بها المنصور .

واستناداً إلى السعدى ، لم يطل الوقت بعد عودة السفير من صنغاى ، حتى وصلت الأخبار إلى جاو عن جيش شريفى يبلغ عشرين ألفا قد خرج يقصد السودان . وأن قائده أمر أن يتبع طريقا دائريا عبر وادان فى جنوب

---

(١) هناك خطأ فى هذا التاريخ فالسلطان المنصور لم يرتق العرش المغربى إلا فى سنة ١٥٧٨

شرق موريتانيا (التى احتلها البرتغاليون مرة) ومنها إلى السنغال الأعلى ليستولى على كل المدن التى يستطيع الإستيلاء عليها ، ثم يهاجم تمبكتو ، وبالرغم من أن رواية السعدى ينقصها التأكيد وليس من السهل أن نقبل تقديراته عن قوة الجيش المغربى ، فليس هناك من شيء مستبعد فى عبارته التى تقول أن الحملة — فيما عدا فئة قليلة — قد هلكت فى الصحراء من جراء الجوع والعطش ، وقد يكون هذا سببا فى أن العفرانى لم يذكر شيئا عن حادثة كان من الأفضل لها أن تنسى .

وأرسل المنصور واحد من قواده ومعه مائتان من حملة الأسلحة النارية للاستيلاء على تغازة ، ووصلت الحملة لتجد أن معظم السكان الذين كانوا من الزنوج الرقيق قد هربوا ، فكان هذا فشلا كاملا لأن المناجم لا تعمل بغيرهم ولا فائدة من الإستيلاء عليها . وتأكد اسكيا داود من ذلك بأن أمر أن لا يعود احد من شعبه إلى تغازه . فتخلى المنصور عن المناجم التى ظلت مغلقة لأن ملك صنغاى لم يجرؤ على إعادتها لهم .

وكان إغلاق تغازة امراً دقيقا لسكان النيجر الأعلى — لأنها كانت لهم — وهم البعيدون عن الشاطىء — المورد الوحيد للملح . ولكنه قاد إلى اكتشاف المناجم الحالية المشهورة للملح مناجم تاودينى Taodeni بين تغازه وتمبكتو . ولكن مناجم تاودينى لم تكن لتسد المطالب العاجلة للسودانيين ، وقبل أن يمر زمن طويل اضطر ملك صنغاى أن يعيد العمل إلى تغازه ، وعندما سمع المنصور بذلك أمر بفرض ضريبة مقدارها مثقال من الذهب على كل حمل من الملح يستورد من السودان . ولكن هذا الأمر رفضه اسكيا الحاج محمود فى الوقت الذى كان فيه الشريف قد شغل بأمور خارجية مدة من الزمن . فضيع وقتا طويلا ، إذ كان كل من الأسبان

والأتراك يداومان على طلب لاراش ولكن لعب السلطان بكل منهما ضد الآخر، بل ذهب بعيداً حين وعد الملك فيليب بلاراش كشرط لهدنة تستمر عشرين سنة، ولكنه فسخ الاتفاق عقب أن وقعته أسبانيا مباشرة وأظهر مثل هذا من عدم الثقة فى معاملته لالزابث ملكة انجلترا حين تردد فى تنفيذ وعده بمساعدته لدون انطونيو، وبالرغم من هذا لم يضعف المنصور من تصميمه على غزو السودان وفتح صنغاى .

(١٥)

جيش الصحراء

فى سنة ١٥٨٩ عندما كان المنصور فى فاس يحاول عبثا أن يختم مؤامرته فى العاصمة الجنوبية ، وصل إليه البريد من مراكش يحمل خطابا . كان قد كتبه ولد القرنفل وهو زنجى من السودان. كان اسكيا اسحق الثانى قد نفاه إلى تغازه . ومنها فر إلى مراكش ولكنه منى بالخيبة حين لم يجد السلطان بها . فكتب إليه يقدم نفسه ، بأنه الأخ الأكبر لاسكيا الذى اغتصب منه عرشه، وطلب من المنصور أن يحتضن قضيته ووعده بأن يجزل له المكافأة على ذلك .

وبالرغم من أن ولد القرنفل هذا لم يكن أكثر من جاب، فإن خطابه زود المنصور بحجة وعذر ليبادر بغزو السودان، ولكن كان عليه أن يتحرك بحذر . إذ هناك حدود لما يجب أن يضعه من قيود على شعبه الذى يستفيد فائدة كبيرة من التجارة مع السودان ، ولابد أن هذه الحملة سوف تضر بهذه التجارة إن لم تحطمها ، واستناداً إلى رواية السعدى . قد كلفته هذه العملية المكروهة جيشاً ضاع كله فى الصحراء ومحاولة إرسال جيش آخر قد تدعو إلى إنفجار الروح الثورية التى ما زالت — كما أظهرت فاس حديثا — تفور تحت السطح، ولذا دعا السلطان رجال دولته والوزراء والحكام وزعماء القبائل الكبيرة إلى اجتماع يحصل فيه على موافقتهم على القيام بالحملة التى ينوى القيام بها . فأخبرهم أنه قرر أن يهاجم امير جاو سيد السودان من أجل أن يوحد قوة الإسلام تحت قائد واحد .وفتح السودان الغنى لا بد سيعطى القوة لجيوش الاسلام . وفى ذلك رفع لروح المسلمين الحقيقية ، وأخيراً ذكر أن

اسكيا اسحق تنقصه مزايا الملك الضرورية ، كما أنه ليس قرشيا . فليس له الحق فى أن يحكم .

دهش الحاضرون لذلك. وصرحوا دون مواربة بمعارضتهم للحملة وقرنوا معارضتهم بأسباب المعارضة ، فبين بلادهم والسودان صحراء واسعة . لا ماء فيها أو مراعى ، وطرقاتها غير صالحة لسير حملة كبيرة ، وبالإضافة إلى ذلك هناك الأخطار الأخرى التى تكتنف الصحراء وأهمها الطوارق . كما لم يفكر أحد من ملوك الأسرات الثلاث الماضية (التى حكمت المغرب) -رغم قوتهم- لحظة واحدة فى القيام بمثل هذه الحملة المخاطرة . ورجحوا احتمال الفشل . وختموا كلامهم قائلين (اننا نؤمل أن تسير جلالتكم كما سارت الأسرات الثلاث السابقة لأننا اليوم لسنا أكثر حكمة من آبائنا) .

فاحتقر المنصور مخاوفهم وقال :

إنكم تتحدثون عن أخطار الصحراء التى يجب أن نجتازها . مثل الوحدة القاتلة وقلة الماء والمراعى . ولكنكم نسيتم أن التجار الذين لا يملكون استعداداً كاستعداد الجنود يقطعون هذه الصحراء فى انتظام راكبين أو راجلين، ولم يتوقفوا يوما عنها وها أنا املك إستعدادات أكثر مما يملك هؤلاء، ولا بد أنى سأعمل نفس الشيء مع الجيش الذى سوف يبعث الخوف أينما يذهب، أما عن الأسرات السابقة التى لم تفكر — كما تقولون — فى القيام بمثل هذا المشروع، فأنتم تعرفون جيداً أن المرابطين شغلوا بغزو الأندلس ، وبالنزاع مع المسيحيين والموحدين كذلك شغلوا بالصراع مع طوارق صنهاجة وأخيراً بنى مرين الذين قاتلوا عبد الوديد فى تلمسان . ولكن طريق الأندلس اليوم مغلق أمامنا لأن أعداءنا الكفرة قد استولوا على أجزاء البلاد . ونحن لم نعد فى حرب مع تلمسان أو بقية الجزائر لأنها فى يد الاتراك . وأكثر من ذلك فأسلافنا وجدوا صعوبة كبيرة فى أن ينفذوا ما أريد أنا تنفيذه اليوم ، لأن

جيوشهم كانت مكونة فقط من الفرسان المزودين بالحراب وحملة الاقواس ولم يكن البارود قد عرف بعد . وكذلك الأسلحة النارية ذات الاثر المخيف . أما اليوم فالسودانيون لا يملكون إلا الحراب والسيوف . وهى أسلحة لا قيمة لها إذا ووجهت بالأسلحة الحديثة ، فسوف تكون أمامنا حرب سهلة ناجحة على هؤلاء القوم وننتصر عليهم . وأخيراً ، فالسودان أغنى من المغرب . وغزوها سيجلب لنا فوائد أكثر من محاوله إخراج الترك الذين يبذل لأجلهم مجهود كبير دون عائد كبير — لا تدعوا جبن أسلافنا يقودكم إلى إبعاد ما هو قريب أو تصعيب ما هو سهل .

وكان لـكلام السلطان أثر ظاهر على سامعيه . فسرعان ما كسب تأييدهم بل حماسهم للمشروع ، وأجابوا وإن كانت إجابتهم همساً (رغبة الأمير أميرة الرغبات) وبذلك أصبح السلطان قادراً على أن يضع التجهيزات الرائعة لحملته الكبيرة على السودان .

والمغاربة — كجميع الشرقيين — يعتمدون دائما من أجل النصر على التفوق العددى الهائل أكثر من اعتمادهم على كفاءة فرقهم وتجهيزاتها . وكان هذا سبب نجاحهم فى موقعة القصر الكبير ، ولكن حملة صنغاى تستدعى شيئاً آخر . فقبل الوصول إلى صنغاى هناك الصحراء التى يجب ان تعبر وكان هذا هو أصعب أجزاء الحملة، فإن ذلك منع استخدام الأعداد الهائلة، فالقوات الصغيرة أقدر على الوصول إلى صنغاى، فالحاجة هنا إلى قوة صغيرة ذات كفاية عالية وتجهيزات كاملة ونقل متوفر . وإذا ما تم الوصول إلى صنغاى فإن الكثرة العددية فى جانب الأعداء . وإذا كانت أسلحة المغاربة أفضل وخاصة فى الأسلحة النارية فهذا قد يصحح التوازن . ولكن إذا حدث اللقاء الأول فى غير صالح المغاربة فموقفهم سوف يصبح سريعا ميؤوسا منه . إذ ليس لهم إحتياطى يستدعونه ، ولا قاعدة يتراجعون إليها . فكل شىء يتوقف على

النصر الحاسم الأول ، على ما يمكن أن يقابلهم من عقبات عديدة كبيرة . ولا يمكن إدراك ذلك إلا بإرسال أفضل فرقهم تدريبا . وبالرغم من أخطار السير فى الصحراء ومخاطرة اللقاء الأول مع الأعداء فإن المنصور كان قد صمم على أن يكون كل ما يرسله إلى السودان سواء كان إنسانا أو حيوانا أو أسلحة من أفضل ما يملكه .

ولابد أن شيئا كثيراً كان يتوقف على اختيار القائد المناسب . واختار المنصور لهذا المنصب قائدا شابا خصيا هو جودر Judar ، وكان أسبانيا أزرق العينين يعود أصله إلى لاس كويفاس من غرناطة Les Cuevas أخذ أسيراً وهو طفل (لاشك فى إحدى غارات القرصان على الساحل الأسبانى) وربى فى القصر الملكى فى مراكش . وكان اختياراً مثيراً للدهشة حقا لأن جودر لم تكن له خبرة سابقة بمثل هذه الحملات — قد ظهر كجامع للضرائب بفضل أمانته وقدرته التنظيمية . وهى صفات ضرورية فى قائد قد يحتاج إليها سوف يكون بعيداً عن سلطة الشريف ما دام قد خرج إلى الميدان ولذا لم يكن هناك من أساس لهذا الإختيار سوى شباب القائد .

ورقى جودر فى الحال إلى رتبة الباشوية وكان تحت إمرته عشرة قواد ، أربعة منهم أسرى أوروبيون دخلوا فى خدمة السلطان سواء برغبتهم أو غصبا عنهم . وبلغ عدد أفراد القوة التى أوكل إلى جودر قيادتها أربعة آلاف من الأقوياء الذين اختيروا من بين أفراد الفرق لشجاعتهم وصلابتهم وحبهم للنظام . ومن هؤلاء الفان من المشاة مزودين بالأسلحة النارية . نصفهم من الأندلسين (المغاربة الذين هاجروا إلى مراكش) أو أسرى حرب فقراء عجزوا عن دفع فديتهم . وكذلك خمسمائة من الخيالة حاملى الأسلحة النارية (الصافى) ولكنهم أسرى حرب أيضا . والباقى يحتمل أنهم كانوا من أتراك الجزائر الذين دخلوا خدمة الجيش الشريفى . ثم

١٥٠٠ من الخيالة الخفيفة مزودين بالحراب الطويلة وكلهم من المغاربة. وتكونت المدفعية من ستة مدافع كبيرة وعدد من المدافع الصغيرة اثنان منها يحملان على جمال. وحاملو البنادق كانوا غالبا اوربيي المولد، أما زعيمهم فكان مسيحيا حرا استخدم بعقد طويل الأجل فى الجيش الشريفى[٢]. وكان هناك أيضا سبعون من الفرسان المسيحيين، منتخبين من بين أسرى الحروب ولابد أنهم كانوا من بين من نجوا من موقعة القصر الكبير والذين يؤملون أن يفتدوا فى يوم من الأيام، وعلق جودر أهمية كبرى على استخدام بعض الفرق المسيحية ربما كحرس خاص له ولكنه شعر بالخيبة حين رفض الشريف المائتين الذين طلبهم.

وتكوين الحملة بهذه الصورة يظهر لنا بوضوح عدم الثقة التى كان الشريف يكنها لمواطنيه كجنود، فمن بين الأربعة آلاف كان هناك فقط الف وخمسمائة من الخيالة الخفيفة من المراكشيين الوطنيين والباقى معظمهم من الأندلسيين والأسرى الأوربيين[٢]. الذين كثيراً ما كونوا العمود الفقرى للجيش، وكانت الأسبانية هى اللغة الرسمية التى استعملها جودر.

أما غير المقاتلين الذين صحبوا الجيش فكانوا ستمائة من الفعلة، وألف

---

(١) فى سنة ١٥٣٦ كان الفرنسيون هم الذين يجهزون المدافع للمغاربة (ليو الإفريقى ﺣ ٣ ص ٩٩١):

(٢) ليس من الضرورى أن يكون الأوربيون المنضمون للجيش الشريفى من أسرى الغارات. فاستناداً إلى جون هاريسون فسلما المنصور مولاى عبد الملك استقدم بعض الشبان الإنجليز الأشداء ليحلوا محل المغاربة وخصامهم، ولكنه بعد ذلك ندم وقال إنه لن يعيد عمل ذلك لأنه وجد الإنجليز أفضل من المغاربة. وكونهم مسيحيون يجعلهم يقفون إلى جانبه ويقيمون معه. ولكن المغاربة يتخلون عنه، إذ لديهم الحرية والفرصة ليعملوا ذلك (المتحف البريطانى. الكتب المطبوعة).

من قائدي الجمـال . وبلغت دواب الحمل ثمانية آلاف جملا وألف حصان . واستناداً إلى العفراني . بذلت عناية كبيرة في اختيار الحيوانات إذ امتطى الفرسان أفضل الخيول المنتقاة وفضلت الجمـال لقوتها وسرعتها .

وقد تبدو تسعة آلاف من دواب الحمل عددا كبيرا بالنسبة لأربعة آلاف مقاتل . ولكن يجب أن نتذكـر أنهم سوف يقطعون قرابة ١٥٠٠ ميلا، تتكون من عدة مراحل كبيرة في الوقت الذي يعتمدون فيه على الماء والطعام والعلف الذي تحمله الحيوانات هذا إلى قرب الماء ، علاوة على ١٨٠ خيمـة و ٣١٫٠٠٠ رطل عن ذخيرة البنادق . وما يوازى هذا الوزن من الرصاص وكميات من الخوذات . والطلقات . والأوتاد . والحبال . والمعـاول . والفؤوس . وأدوات أخرى، وإلى جانب ذلك طعام الجيش من القمح والشعير وكميات ضخمة من البلح المضغوط (العجوة).

ومصدرنا الرئيسي لمعلوماتنا عن جيش الصحراء واستعداده رجل أسبانى كان يعيش في مراكش ، وربما كان من رجال فيليب في القصر الشريفي . وما يخبرنا به دليل على أن استعدادات ضخمة قد اتخـذت لتكون القوة أفضل ما يمكن أن تجهزها الدولة سواء في الرجال أو المعدات .

وكان المنصور قد فكر أيضا في الإحتمالات التي قد تحدث في البلاد بعد أن تخرج الحملة إلى هدفها البعيد . فهناك الخطر الناجم من أحد جيرانه الأقوياء أسبانيا أو تركيا . إذا استداروا عليه بعد أن يعرفون أنه مشغول في حملة أخرى الإنسحاب منها مستحيل ، فإذا كان الأتراك قد طلقوا نهائيا فكرة التوسع البرى في إفريقيا إلا أن جانبهم لم يكن يؤتمن ، فالعلاقات بين مراد والمنصور كانت أكثر توترا . وتصميم المغاربة على أن يكون خليفتهم شريفا لا عثمانيا ، قد سبب المرارة في استنبول ، وبالرغم من ذلك كان من عادة

المنصور أن يرسل هدية سنوية إلى مراد . وأصر هـذا على أن يعتبرها ضريبة ، ممـا أزعج المنصور ولذا سرعان ما طلق هذه العادة مما سبب مزيداً من الضيق إن لم يكن من الكراهية التى يكنها الأتراك للأشراف .

ومن ناحية أخرى تحسنت علاقة السلطان بأسبانيا . إذ لم يعد هناك ما يخشى من فيليب ، بعد أن هزمت انجلترا الأرمادا . ولـكن منذ أن عرف أنه يأوى فى لشبونة اثنين ممن يدعون أحقيتهم فى عرش المنصور ، فهو لا يؤمن جانبه أكثر من مراد . فغزوة السودان قد تعطى فرصـة لأحدهما . فمن المحتمل أن يدبر إحدهما حملة بحرية على لاراش الأمر الذى كون خطراً جسيما . وربما كان سبب هذا طلب سفير السلطان فى لندن إذنا باستئجار النجارين وبنائى المراكب الإنجليز لبناء نوع من السفن الحربية فى وقت الحرب . وكان ذلك فى مارس سنة ١٥٨٩ .

وبعد ذلك بشهر . حدثت غزوة دريك Drake ونوريس Norris على لشبونة،وهى التى سببت عتاب الملـكة اليزابث للمنصور، إذ كان الأخير قد وعد بارسال المؤونة إلى الأسطول البريطانى ولكنه لم يفعل . وبالرغم من هذا فقد أرسلت اليزابث رسولا خاصا إلى مراكش يطلب مساعدة المنصور فى هجوم آخر على البرتغال ، كانت تديره فى الشتاء التالى . فاستقبل الرسـول ببرود ورفض الطلب . وبالرغم من ذلك جددت اليزابث طلب مساعدة السلطان لدون أنطونيو الذى لجأ إليها ، وفى ٢٣ يونيو سنة ١٥٩٠ (شعبان ٩٨٩ هـ) كتب المنصور يعتذر عن إهمال طلب المبعوث البريطانى على أساس انهماكه بالحملة التى سوف ترحل إلى السودان بعد بضعة أيام .

وفى ١٦ أكتوبر (١٥ ذو الحجه) وفى أكثر الفصول ملائمة لعبور الصحراء ، خرج جودر باشا من مراكش على رأس جيش الصحراء وكان منظراً ملأ الشريف بالفخر ، فبدلا من الفوضى التى تعودها الجيش المغربى عند سيره، شهد المنصور فرقا

منتظمة من الجنود المدربين المنظمين . بل أكثر الجيوش التى دفعتها المغرب إلى الحرب دربة . وتصميما وثقة فى النصر ليتم هذه العملية التى شغلت عقله عدداً من السنين بصفة مستمرة .

وقاد جودر جيشه نحو الجنوب عبر جبال أطلس إلى مقاطعة درعة وعسكر فى لكتاوا Lektawa حيث دار السكة التى أعدها المنصور للذهب القادم من الصحراء، ووجدت الفرق هناك أن ماينتظرها من المطالب وحيوانات النقل وقد جمعت من الريف الذى امتلأ بالقمح والبلح وحاجات المراعى . وهنا — على حافة الصحراء — استكملت كل الإستعدادات لسير الصحراء، وعندما اكتمل كل شىء ملئت القرب بالماء وحملت أزواجاً على الجمال. وبدأت المسيرة الكبرى، وأوغل الجيش فى الصحراء ، ومرت شهور دون أنباء من جودر، وفجأة برز من الصحراء مالك لجمال لاشك أنه طارقى ليضع أمام الشريف أنه كان يرعى جماله فى سلام بالقرب من أروان Arawan على بضعة أيام شمال تمبكتو حين ظهر جودر فجأة مع جيشه فى الأفق يقود دوابه . فلم تكن هناك أخبار لقيت ترحيباً أكثر من هذه، لقد أظهرت قصة الرجل أن جودر قد عبر الصحراء .

ولسوء الحظ لم تصلنا قصة سير جودر فى الصحراء . وليس هناك من شك فى طريقه . ولكننا لا نعرف شيئاً عما حدث خلال سيره . ولا عن الضريبة التى دفعتها الحياة البشرية . رغم أنه من المحتمل كما سنرى — أن خسائره كانت كثيرة .

وبقاء الجيش يجعل هذا النجاح متوقفا فقط على العثور على الماء لتعويض النقص الذى حدث فى القرب، فالاعتبارات الحربية الخالصة مثل سرية الحركة وعنصر المفاجأة لابد أن تكون تالية فى الأهمية لهذه الحاجة الملحة ، ولم يكن هناك من أمل فى الاقتراب المفاجىء لأن اعتماد جودر على الآبار أرغمه على أن يتبع طرق التجارة المألوفة فى هذا الفصل الذى تكثر فيه قوافل التجار .

وكان الطريق الوحيد هو ذلك الذى كان يسلكه تجار الذهب ويجرى نحو الجنوب من لكواتا إلى تغازة ثم إلى تغازة الغزلان ثم إلى تاوديني فولاتا ولم يكن لدى جودر أى اختيار فى أن يطرق هذا الطريق فى الجزء الأكبر من طريقه إلى النيجر . وفى تاوديني وما حولها ينحرف الطريق الرئيسى نحو الجنوب الغربى إلى ولاتا . واستمر جودر يسير نحو الجنوب متتبعا أقل الطرق أهمية إلى تمبكتو وهو الذى يمر بأروان حيث استولى على جمال بعض الناس .

وعندما وصل أروان — التى لا بد أنه استغرق شهرين على الأقل ليصل إليها — كان قد ترك أسوأ ما فى أخطار الصحراء ، لأن الماء والمراعى أصبح العثور عليها سهلا فى الجنوب كلما اقترب من النيجر .

ولا نعرف الحالة التى وصل عليها الجيش إلى أروان ، قوة بلغت خمسة آلاف أو ستة آلاف من الأشداء ومعها ما يقرب من ضعف هذا العدد من حيوانات الحمل . خرجت كجسم واحد لتسير سبعمائة ميل فى إقليم مملوء بالمخاطر . وكانت مصادر الطريق من القلة إلى حد أنها لا تكفى أقل ما يمكن من المطالب لبضع مئات من التجار الذين يسافرون عليها على فترات خلال فصل الشتاء . ومن تغازة واروان لم يكن هناك من مكان واحد فيه ماء يكفى ، أو مرعى يرتاح فيه جيش فى هذا الحجم . والمسافة بين تغازة الغزلان وتاوديني[1] لم تكن أفضل من تغازة . فكلاهما لا يكاد يفى بما يسد حاجة الحياة البشرية . وبين أماكن الوقوف الغفيرة هذه كانت مراحل من السير الطويل والوحشة المفزعة التى تقطعها جماعات صغيرة من التجار فى سرعة

---

(١) حديثاً فى سنة ١٩١٠ مات أكثر من خمسين تاوديني بسبب تأخر وصول القافلة التى كانوا يعتمدون عليها من أجل ضروريات حياتهم .

وخوف دائم من أن يجدوا الا بار التالية جافة، أو أن يجدوا أنفسهم مجهدين إلى حد أن لا يستطيعون معه الاستمرار فى السير .

وتعداد ابن بطوطة لأخطار السفر فى هـذا الطريق معروفة . وقد ذكر ليو نفس متاعب الطريق الذى سافر فيه بعد ذلك بأقل من قرن حين قال :

فى الطريق الذى يؤدى من فاس إلى تمبكتو توجد بضع آبار تحيط بها جلود الجمال أو عظامها . والتجار لا يطرقون هذا الطريق فى الصيف دون أخطار كثيرة على حياتهم . ففى أغلب الأحيان — لا سيما حين تهب رياح الجنوب — تطمر كل هذه الآبار بالرمال كما لا يجد التجار أثراً لهذه الآبار أو اشارة إليها . فلم يكن أمامهم إلا أن يموتوا عطشا . وحينئذ تتناثر جيفهم هنا وهناك تحرقها أشعة الشمس . وليس أمامهم إلا علاج واحد فى هذه الحالة وهو غريب . إذ كلما اشتد عليهم العطش يلجأون إلى قتل أحد جمالهم ويأخذون مافى بطنه من الماء ، ومنه يشربون ويحملون بعضه الآخر معهم . حتى يجدوا بئراً جديداً أو أن يقتربوا من الموت عطشا مرة أخرى . وفى الصحراء التى يطلقون عليها اسم ازواد Azaoad تمثالان من المرمر عليهما عبارة مكتوبة تدل على أن أحد هذين التمثالين يمثل تاجراً غنياً والآخر يمثل حمالا أو ناقلا للبضائع ، وقد اشترى التاجر الغنى من الحمال فنجانا من الماء بعشرة آلاف دوكات ولم يكن هذا الماء ليكفى أحدهما . لأن كلا منهما كاد يموت عطشاً . إذ ستنقضى فترة من الزمن لايجد فيها الإنسان نقطة واحدة من الماء، لأن الدليل قد ضل الطريق أو بسبب أن الأعداء قد قطعوا مجرى ماء البئر أو الينبوع ، وحينئذ تصبح كمية الماء التى نجدها جديرة بالاحتفاظ بها فالتى تكفينا لخمسة أيام لا بد أن نحفظها لعشرة[1] .

---

(١) من أجل وثائق حديثه نسبيا عن فقد القوافل فى هذا الطريق اقرأ ص ٢٣٦

ولدينا مصدر واحد غير واضح على أن خسارة جودر يحتمل أن تكون كبيرة . وهو عبارة محمود كعت التى كتبها فى كتابه (تاريخ الفتاش) وحين يقول أن من بين القوة الأصلية التى قدرت بثلاثة إلى أربعة آلاف من المقاتلة اشترك ألف فقط فى أول لقاء مع قوة الصنغاى . وبالرغم من احتمال استعمال جودر لكل رجل عنده فإن عبارة كعت لا تبرر ما ذكره بعض النقاد من أن باقى قوته قد هلك فى الصحراء . على أنه فى بعض السنين التالية — حين كسب المغاربة خبرة مناسبة فى نقل الجيوش عبر الصحراء — فقد طابور مكون من ١٧٠٠ رجل ثلث قوته فى الطريق إلى السودان[١] .

فإذا عرفنا ما نعمله من أجل أخطار الطريق وأى ضريبة تدفعها الحياة البشرية من جماعات التجار الصغيرة أو الفرق المقاتلة فى المناسبات الأخرى فمن الصعب أن نصدق أن جودر لم يقاس خسارة جسيمة فى الصحراء .

(١) هذا ما رواه لورنس مادوك Lawrence Madoc وهو تاجر بريطانى كان يعيش فى مراكش (انظر ص ١٨٠ فى الهامش) فمن الممكن أنه كان يشير إلى حملة جودر الأصلية وليس إلى طابور من الإمدادات خرج أخيراً .

(١٦)

غزو السودان

فى آخر فبراير (ربيع ثان ٩٩٩ هـ) بعد مسيرة عشرين أسبوعاً من تركه مراكش وصل جودر النيجر عند كارابارا Karabara بالقرب من مدينة بمبا Bamba الحالية وقد أجاد اختيار المكان، فلم يكن هناك مكان أفضل منه من الوجهة الحربية. إذ هناك يمكن اجتياز النيجر بسهولة أفضل من أى مكان آخر فى المنحنى. مما جعلها نقطة هامة من نقط التقاء طرق القوافل التى سيطر جودر عليها. وأهم من ذلك أن موقع كارابارا كان فى منتصف الطريق بين جاو وتمبكتو وأبعد من أن يصل إليها المقاتلون من كلتا المدينتين. وبذلك تمكن من أن يرضى جيشه الذى كان فى أشد الحاجة إلى الراحة. بل إلى إعادة تنظيمه قبل أن يدخل فى معركة كبيرة.

وكان الصنغاى فى أشد حالات الحيطة من نيات السلطان العدائية. ولكنهم كانوا واثقين من الصحراء كحاجز طبيعى للدفاع عنهم. ولم يخطر بعقلهم قط إمكان عبور جيش مغربى لهـــذه الصحراء. ولذا كانوا بعيدين عن أى إستعداد.

ولابد أن اسكيا اسحق سمع عن اقتراب المغاربة قبل أن يصلوا النيجر بفترة، ولكن الطريق الذى اختاروه كان يملى بأنهم مقدمون على الغزو من جهة الغرب. ولذا جهز جيشه لصد هجوم قد يأتى من هذه الناحية. وبعد قليل عرف أن المغاربة قـد تركوا طريق ولاتا عند اروان وأنهم يتقدمون نحو الجنوب. فأصبح من الواضح أنهم لن يهاجموا من ناحية الغرب ولذا

سحب قواته إلى جاو ودعا مجلس الحرب ، وكان كل شيء مضطرباً ، وظن البعض أن هدف العدو المباشر هو تمبكتو بينما أصر الباقون على أنه لابد أن يكون جاو . ولذا دعى مجلس المحاربين من كل أنحاء الدولة ولكنه انفض دون اتخاذ قرار حاسم .

واتخذ اسحق نفسه قراراً حاسماً ، ولـكنه كان أكثر تأخراً من أن يكون ذا أثر . فأرسل الأوامر إلى الزعماء فى الصحراء أن يطمروا الآبار التى يمكن أن يستفيد بها المغاربة ليجعلوهم يبحثون عن الماء عبثاً . ولم تصل الأوامر إلى الزعماء لأن الرسل وقعوا فى قبضة قطاع الطريق . كما أن الشعب لم يستجب الدعوة إلى حمل السلاح كما أمل اسحق،لأن الناس كحكامهم رفضوا ان يصدقوا إمكان مجيء حملة من الشمال ، كما لم يتصوروا أن الموقف كان خطراً كما صوروه له . ولـكن حين انتشرت الأخبار فى أنحاء الدولة إن المغاربة قد وصـلوا فعلا ، وأن هناك من رآهم عنـد كارابارا بدأ رجال الحرب يتجمعون .

هذا بينما كان جودر بعد أن أراح جيشه بضعة أيام عاد إلى الطريق وانحدر مع النهر إلى جاو، وقبل أن يذهبوا بعيداً هاجمه الطوارق ولكنه شتتهم فى سهولة ، وبعد قليل وجد بعض ضحايا قطاع الطريق من الطوارق وكانوا أربعة من الزنوج جرحى . وكانوا رسل اسكيا،ووجد المغاربة معهم الأوامر التى كانوا مكلفين بحملها بطمر الآبار . وإذا قدر لهؤلاء الرسل أن يصلوا أهدافهم لهلك الغزاة فى الصحراء إذ لم يكن أمامهم إلا فرصة ضيقة للهرب .

وشغل المغاربة بصد بضع هجمات محلية من بعض الذين قدموا فى قواربهم وهاجموهم ليلا ، وخوفا من هجمات الطوارق أعدائهم التقليديين كان الصنغاى قد بنوا معظم قراهم فى جزر فى عرض النهر . ولما لم يكن لدى المغاربة قوارب لعدم وجود الأخشاب اللازمة فى هذه المنطقة، فانهم لم يملكوا وسيلة يصدون بها هذه

الهجمات . ولا ماكان أشد منها ، ولما كانوا مهددين بنفاذ ماكانوا يحملونه من طعام، فلم يجدوا من وسيلة يخضعون بها الموقف سوى أن يستعينوا بقوارب من الجلد ليهاجموا بعض مخازن الحبوب فى هذه الجزر .

وعرف جودر — بعد أن سار أربعة أيام فى طريقه إلى جاو — أن اسكيا اسحق بدأ يقيم المتاريس فى الطريق ويستعد للحرب ، فأرسل إليه يدعوه إلى التسليم ليتجنب سفك الدماء ، ولكنه رفض العرض الذى اتخذ دليلا على الضعف ، مما أعطى الصنغاى بعض الثقة فى أنفسهم . وفى اليوم الثانى رأى جودر جيش الزنوج عند تنديبى Tondibi وهى تبعد عن جاو مسافة خمسة وثلاثين ميلا . فصمم على أن يشاغلهم فى اليوم الثانى .

وقدر محمود كعت ـ وهو أشد تحفظاً من غيره من مسجلى هذه الحوادث ـ جيش الصنغاى بثمانية عشر ألفاً من الفرسان و ٩٧٠٠ من المشاة. ويذكر السعدى أن أغلبية الجيش كانت مكونة من حاملى الأقواس بينما بلغ الفرسان — وهم حملة الحراب — عدة آلاف . ورغم أن الصنغاى مسلمون فقد كانوا يعتقدون اعتقاداً كبيراً فى السحر، ولذا ذهبوا إلى المعركة يصحبهم جماعة من السحرة . واستنادا إلى كعت ، كانت قوة المغاربة ألفاً من الصافى أو الفرسان . نصفهم أندلسيون ونصفهم من أسرى الغارات، وقبل أن تبدأ المعركة أراد الصنغاى أن يبثوا الفوضى بين صفوف مهاجميهم بأن جعلوا أمامهم قطيعاً كبيراً من الماشية ، ولكن المغاربة فتحوا صفوفهم ومرت القطعان دون أن تحدث ضرراً .

وبدأ المغاربة المعركة كعادتهم بالإحاطة بالأعداء من الجهتين ، وبدا منذ اللحظة الأولى أن هدفهم لم يكن موضع شك ، وبالرغم من التفوق العددى فإن الزنوج ضعيفى التسليح لم يكن أمامهم فرصة أمام الأسلحة النارية والنظام المتفوق الذى كان للمغاربة ، وكانت المقاومة الجدية الوحيدة من فئة من

المتحمسين الذين كونوا الحرس الأمامى. فقد ركبوا خيولهم وقد ربطوا أنفسهم إليها بأربطة من جلد كى لا يتحركوا واطلقوا سهامهم على المغاربة المتقدمين ، وظلوا كذلك حتى فنوا عن آخرهم. فلم تجد بقية الجيش بدا من الفرار تاركة وراءها كثيراً من القتلى ،فسلبهم المغاربة ما كانوا يلبسونه من الذهب[1].

وعبرت بقية الجيش المنهزم نهر النيجر إلى جرما Gurma فكان ذلك خيراً لهم . إذ لم يستطع المغاربة مطاردتهم لعدم وجود القوارب معهم . وتنفيذاً لأوامر اسكيا تبع أهالى المدينة الجيش فى هربه ولكن بطريقة عفوية مما دعا إلى غرق كثيرين .

واستقبل المغاربة بحماس فى جاو من التجار الأجانب والعلماء . وكثير منهم كانوا مواطنين لهم ، ولكن أقسى ما وقع عليهم من فشل لمرارة خيبتهم كان عندما وجدوا جاو مختلفة تماما عما كانوا يتصورون .

كانت تجارة الذهب والرقيق عبر الصحراء بمثابة دم الحياة لعدد من موانى البربر ومصدر ثروة لآلاف من التجار . فظن المغاربة أن السودان الغربى هو الدرادو Eldrado . وعاصمة صنغاى الشهيرة بمثابة مخزن رئيسى لثروتها . فكان جودر وجيشه واثقين من أنهم سيجدون جاو مدينة ذات مبانى فخمة تأخذ العين بمفاتنها . فسوف يكون استيلاؤهم عليها خير مكافأة لهم بعد سيرهم الشاق المجهد فى الصحراء، ولكنهم وجدوا بدلا من ذلك مجموعة من الأكواخ المبنية بالطين على مثال المبانى السودانية، وليس هناك من أثر لثروة كانوا ينتظرونها .

---

(١) سببت الترجمات المختلفة لرواية هوداس Houdas بعض الاختلاف فى تاريخ معركة تنديبى، فالسعدى يذكر أنها ١٧ جمادى وترجمها هوداس فى القرن التاسع عشر بأنها ١٢ أبريل والعفرانى يذكر أنها كانت فى السادس عشر من نفس الشهر وترجمها هوداس فى سنة ١٨٨٩ـ ١٦ فبراير وتاريخ الفتاش يذكر أنها فى الثانى من جمادى فترجمها هوداس فى سنة ١٩١٣ بأنها أول مارس .

بل أن مسكن الملك لم يكن ليتميز كثيراً عما يحيط بالقصر من أكواخ ، هذا إلى أن السكان كانوا قد حملوا معهم كل ما ظنوه ذا قيمة للمغاربة . ولم يكن هناك من أثر للذهب . وأشد ما أثار حيرتهم رؤيتهم مدفعاً واحداً يحمل علامة البرتغال ، لم يكن الصنغاى يعرفون كيف يستعملونه . وتمثالا للعذراء وصليباً[1] فكانت هذه هى المكافأة الوحيدة التى منحتها جاو لهؤلاء الناس نظير كل ما تحملوه فى طريق الجيش إلى صنغاى ، وللأخطار الكثيرة التى فصلتهم عن أوطانهم ولذا كانت خيبتهم شديدة .

ولم يكن مابلغ جودر وجيشه من أخبار كاذبة عن ثروة المدينة التى كانت معروفة لعدد كبير من مواطنيهم إلا نتيجة السرية التى غلفت دائماً تجارة السودان ، تخوفاً من أن يقطع الدخلاء على التجار أعمالهم ، لم يذكر هؤلاء التجار شيئاً عن بلاد الداخل التى كانوا يأتون منها بثروتهم . وأكثر من ذلك كانت جماعة التجار فى مراكش معارضة لمشروع حملة المنصور على السودان ، فكل نصيحة كانت تأتى من ناحيتهم كانت موضع الشك ولم يلتفت إليها . وكان فى إمكان السلطان أن يعرف من الرسول الذى كان قد أرسله ليستكشف له أمر السودان حالة مدينة جاو ولكن الأخير خاف أن يخدع سيده . إذ قدر أن سيده لن يصدقه .

وفتح اسكيا باب المفاوضة مع جودر ، إذ كان قد فقد عاصمته كما فقد الرغبة فى المقاومة ، وعرض أن يقدم طاعته إلى السلطان وأن يترك للمغاربة

---

(١) ربما تكون هذه الأشياء قد وصلت جاو عن طريق التجارة العادية من ساحل غانة نتيجة الاتصال بالبرتغاليين أو الهولنديين أو الإنجليز الذين كانوا يتاجرون معهم منذ قليل وقد اكتشف مثل هذا فى سنة ١٩٠٠ حين عثر على تمثال للحرب ذكر الارشايبى أنه كان من بقايا القرن الرابع عشر وهو صناعة إنجليزية من البرونز .

حق استيراد الملح والأصداف إلى السودان . وكان المغاربة يتمنون منذ مدة أن يسيطروا على تجارة الملح مع السودان لأنها كانت وثيقة الصلة بتجارة الذهب : وليس هناك من وثيقة تثبت أنهم رغبوا فى تجارة الأصداف ، ولكن لما كانت هذه الأصداف هى العملة الرئيسية للسودان فربما كانوا يريدونها أيضاً . وكان عرض اسحق هاما جداً ،وقبول المغاربة له يعطيهم سيطرة تامة على الحياة الاقتصادية للسودان الغربى كله .

وكان هم اسحق أن يجنب بلاده احتلالا حربياً غالباً مايكون عبئا لا يمكن لشعبه احتماله ، وقد يصبح التخلص من السيادة المغربية فى المستقبل أمراً مستحيلا . فعرض على جودر مائة ألف مثقال من الذهب (١٢٫٥٠٠ أوقية) والف رقيق على أن يعود الأخير أدراجه إلى مراكش .

وقبل الباشا العرض لساعته إذ كان يملك السلطة الضرورية لذلك . لأنه كان — كرجال جيشه — يشعر بخيبة الأمل . إذ لم يتبدد حلمه فى ثروة السودان فحسب ، بل بدأ المرض يتفشى بين أفراد جيشه ومات عدد منهم . فكانت رغبته الوحيدة أن يعود أدراجه بأسرع ما يستطيع ، ولكنه لم يكن يملك سلطة وضع الشروط مع العدو ، ولذا رفع عروض اسحق إلى السلطان فى رسالة عبر فيها عما قاساه رجاله فى الصحراء . كما وصف حالتهم المؤسفة وفقر البلاد التى فتحوها بهذا الثمن الغالى . ولم يكن هناك من حجة أمام السلطان تجعله يقبل العرض ولذا كان جودر قلقا فى انتظار الرد .

وظلت حالة الجيش المغربى فى تدهور ، ففى مدى أربعة عشر يوما مات أربعمائة ومرض الباشا نفسه . وضرب المرض بسهمه فى دواب الحمل وهى ما لا يستطيع الجيش أن يتحرك بدونها،ولما كان اسحق متشوقا إلى خروج الغزاة وإلى تخليص عاصمته منهم،فإنه نصح جودر بالانسحاب إلى مكان أكثر ملائمة من تمبكتو وعرض ان يسهل لهم رحيلهم بتزويدهم بعدد كبير من الخيول . وقبل جودر العرض وبعد أن سار تسعة وعشرين يوما بسلام دخل

إلى تمبكتو . وكان معظم أهلها قد هرب إلى الصحراء ولكن بقي آخرون وكان بينهم القاضي أبو حفص عمر .

وكانت تمبكتو أقل بعثاً على الخيبة من جاو ، إد كانت المبانى أفضل ولكنها كانت أيضاً من الطين وكان مبعث بعض الراحة فى نفوس القادمين مسجد سانكورى Sunkore الذى كان لايزال يسمو على كل شىء آخر. ولكن لجودر ورجاله الذين يعرفون المبانى الفخمة للكتبية فى مراكش لم تكن مبانى مسجد سانكورى الطينية الكئيبة لتقارن إلا بمبانى جاو . وكان جو تمبكتو يدعو إلى البراءة إذ كانت العاصمة الثقافية للسودان وملجأ الطلاب من بلاد بعيدة ، وطلابها كتجارها أفضل ما فيها ولما لم يكن لديهم ما يخشونه من المغاربة ، بقي التجار والعلماء فى المدينة بدلا من أن يلحقوا بالهاربين إلى الصحراء . فوجد المغاربة الحياة التجارية والثقافية هادئة لم يسدها الإضطراب ، ومظاهر الثروة لا تنقصها . وربما كان من المحتمل فقط أنه بسبب عدم رغبة الجيش فى بعث العداوة ، أن جودر لم ينهب المدينة . ومن المؤكد أنه لم يكن هناك اعتبار مطلقاً لهؤلاء الذين لم يهربوا فوجوهم المتنفخة ورفض قاضيهم البات فى أن يحسن إستقبالهم وغضب قواده الواضحة من الصورة التى تمت بها الغزوة بل هؤلاء الذين بدوا أقل تأثراً بها ، فالوحيدون الذين أرغموا على أن يقاسوا نتيجة إستقبال تمبكتو البارد للجيش هم تجار غدامس الأثرياء إذ خرب كثير من المصانع والمخازن لإقامة حصن أمر جودر بإقامته[1] .

---

(١) شغل التجار العرب فى غدامس فى ظهير طرابلس قرون عديدة مركزاً قويا فى تجارة غرب السودان حيث لا تزال لهم مخازن . ومدى انتشار أعمالهم يصورها جيداً تجارة توركودى Torkodi القديمة . فالقماش الذى كان ينسج فى كانو (إحدى مدن الهوسا) كان شائعا كعملة فى تمكتو ، وقد استورده تجار غدامس من كانو إلى غات وهى سوق صحراوية فى الصحراء الشمالية الوسطى . ومن هناك كان يتجه إلى عين صلاح ومنها جنوبا مرة أخرى إلى تمبكتو وهذا القماش كان يعبر الصحراء مرتين كاملتين بدلا من اتباع الطريق الأقصر والأكثر أمانا إلى النيجر .

وقد أحدث رسول جودر فى مراكش بما يحمله من أنباء عن تنديبى دهشة كبيرة بين المراكشيين،فبخلاف تقرير الجيش نجاحه فى اجتياز الصحراء لم تسمع البلاد شيئاً منذ خروجه إلى السودان منذ ثمانية أشهر ، ولم تحدث رسالة القائد سروراً للسلطان . بل احتقر الشروط التى عرضها اسكيا إسحق وانتقد بشدة عدم ترك جودر حامية فى جاو وعدم أخذه رهائن من إسحق ، ولم يصدق قصة القائد عن فقر صنغاى ، فمنذ قرون والذهب ينصب إلى الشمال عبر الصحراء فى كميات لا تدع مجالا للشك فى وجود مخازن ضخمة فى مكان ما فى السودان الغربى ، فصمم المنصور على أن يستبدل بجودر قائداً آخر أقل منه تساهلا وأكثر حزما . يستطيع أن يخرج من الزنوج ثروتهم وسر الذهب الذى يخرج من بلادهم .

وكان من الواضح أن فقد الرجال والأدوات فى السودان قد يستنفذ موارد الدولة قبل أن يضمن الذهب ، إذا استجاب الشعب لمطالب السلطان الثقيلة التى يريد أن يفرضها عليهم ، فلن تكون هناك أية سحابة ولو خفيفة من الشك تعكر التهليل الذى قابلوا به نصر تنديبى،فأصدر السلطان قراراً يفرض مطالب الجيش الجديدة ، ويعلن خبر الثروة غير المحدودة التى عثر عليها . ومن الطبيعى أن لا يشير القرار إلى مـدى الضحايا البشرية التى تكلفها وكان الحماس الجديد الذى بعثه القرار وقتياً لأن مبررات تعيين قائد جديد بدت غير مقنعة ، وقد سبب قلقهم عدم وجود ما يبرر عزل قائد ناجح كجودر ، وكذلك قرار تجييش جيش جـديد لا سيما وقد صـدر ذلك فى سرعة .

وفى دوامة القلق من أجل إخفاء مرارة خيبة الامل،اضطر السلطان إلى اللجوء إلى الخداع على نطاق غير عادى ، فاستناداً إلى التقرير الذى وجد انتشاراً حتى فى إنجلترا،أظهر السلطان للسفير التركى جفاء قاسياً لم يكن يقل

عن جفائه لإسكيا اسحق ، فلانه يعرف أن هذه الحادثة سوف تزيد من حسد السلطان العثمانى فأضاف السلطان كثيراً إلى مظاهر السرور المفتعلة التى حاول أن يلقيها على الأتراك .

وقد انقسم الرأى فى مراكش حول ما حققته غزوة السودان ،إذ رأى الشعب فى نصر تنديبي أملا بثروة هائلة ومستقبل مجيد للدولة ، ولم يشاركهم المثقفون هذه الثقة . وربما يكونون قد تأثروا بالتجار الذين يعملون فى تجارة السودان والذين كانت لهم مصادر للمعرفة أكثر دقة عن مصير الحملة لا تروق للمنصور ، إذ شعروا أنه دخل فى مخاطرة لا تتحملها الدولة . كما علموا أنه إذا كان قد استولى على أملاك ، فليست إلا أكثر قليلا من خط من النيجر بين جاو وتمبكتو . يحتاج إلى حامية كبيرة وتحصينات مستمرة لمقاومة الخسائر التى لا يمكن تجنبها سواء من المرض أو مخاطر الحرب الأخرى، فقد دلت التجربة على عظم الخسائر فى مثل هذه الأحوال ، فالطوارق سيداومون على أخذ ضريبتهم ثقيلة من الجنود أثناء اجتيازها الصحراء لا سيما وهى تصل مرهقة إلى الآبار . فسوف يشتتون قوتهم وأكثر من ذلك ، فالحاجة الرئيسية ستكون إلى حملة الأسلحة ومعظمهم أندلسيون وهم الذين اعتمد عليهم السلطان لضمان عرشه ، وكان أغلب هذه الفرق الهامة قد أرسل فعلا إلى السودان .

وكان أكبر ما أثار التجار ، تصميم المنصور على الحصول على ذهب السودان دون نظر إلى التكاليف ، فما داموا قد ألفوا تجارة الذهب فإنهم عرفوا أن حقول الذهب لابد أن تكون بعيدة ، وشكوا فى إمكان وصوله إليها . فلقرون سابقة كانت المناجم الهدف المثمر ، ولكن غير المثمر للتجار المغاربة الذين ما زالوا يجهلون مصدره ، وخافوا أن يكون تصميم السلطان على الوصول إليها سوف يؤدى إلى خراب الدولة أو على الأقل القضاء على تجارة صنغاى .

ومن الطبيعي أن تكون التجارة هي موضع الاهتمام الأكبر للتجار ، ففي الماضي كان الزنوج مستعدين دائماً أن يبادلوا بذهبهم الملح ومواد التجارة التي ترد من ناحية البحر المتوسط. ولكن إذا كانت المكافأة التي يتلقونها عن عملهم هي مصادرة الغزاة له ، فإنهم سوف يتوقفون عن إنتاج الذهب ، وعلى ذلك سيفقد المغاربة أهم أسواقهم مما يسبب الخسارة للسلطان ، بسبب أنه يعمل منفرداً كما هي العادة من أجل مصالح شعبه أينما يشعر بالحاجة .

وكان القائد الذي خلف جودر محمود بن زرجون Mahmud bn Zergaun قائد جميع أسرى الغارات في الدولة . وهو نفسه ابن اسير ربما كان أسبانيا أو برتغاليا وهو — كجودر — خصي جلب إلى القصر الملكي . وبالرغم من أن هذا الوقت من السنة كان أسوأ الأوقات لعبور الصحراء. فقد أمر محمود بالرحيل في الحال . واهتم السلطان كثيراً بسلامته ، اذ أمر بأن يجعل سيره ليلا فقط . فالحرارة شديدة والرياح تهب بشدة والماء مادة نادرة في الصحراء . وبالرغم من ذلك فقد وصل هو ومن معه وكانوا أربعين من الفرسان — إلى تمبكتو في أمان في أقصر وقت ممكن وهو سبعة أسابيع .

واثبت محمود باشا — وقد منح هذه الرتبة — نشاطه وحزمه ، فما أن تسلم القيادة من جودر ، حتى أخذ يعد جيشه للحرب في حملة بائسة بدون قوارب . فأمر أن يقطع عدد من الأشجار القليلة التي حول تمبكتو وتسوى الواحا كما أخذ جميع الأبواب وحلوقها من كل الأبنية المخربة ، فمكنته ذلك من أن يبني قاربين بعد يومين من وصوله . وترك حامية صغيرة في تمبكتو وخرج ببقية الجيش متتبعا الضفة اليسرى للنهر بحثا عن اسكيا اسحق، ولم يلبث أن لقى المقاومة من جيش اسكيا عند بمبا وهرب العدو أمامه وعبر النهر إلى جورما، ولكن القوارب مكنته من تتبعهم في النهر . واستطاع

مطاردتهم . فكان القضاء التام على جيش صنغاى ، وانفصل اسكيا عن قواته وقتلته قبائل الطوارق من قطاع الطريق . وتبع ذلك لجوء كثير للمغاربة إلى حد أن الملك الجديد الذى خلف اسحق فقد قلبه وقبل أن يخضع للسلطان .

وكانت مجاعة استمرت عاما ، ووجد محمود من الصعب إطعام جيشه لا سيما بعد أكل حيوانات الحمل التى كانت معه . وأرسل اسكيا الجديد الطعام استجابة لأمر الباشا كى يثبت حسن نيته . ثم استدعى إلى المعسكر المغربى كى يقسم يمين الولاء للمنصور . ولكن ما إن وصل هو ومن معه إلى هناك حتى قتلوا غدراً . وقد اعتذر محمود فيما بعد عن ذلك بأنه كان رداً على مذبحة قتل فيها أربعمائة من جنوده فى الصحراء حيث كانوا فى طريقهم إلى السودان .

وسرعان ما نظم محمود كيفية محاولة حكم صنغاى عن طريق حكم عسكرى مباشر . فعين ملكا جديداً عميلا ليحكم تمبكتو باسم السلطان ولكنه شعر بالخيبة فى تصوره قبول صنغاى هذا المظهر من السلطة التقليدية ، إذ رفضوا أن يطيعوا الملك الألعوبة وكانت نتيجة ذلك أن أتت الفوضى الإدارية فصارت أسوأ من ذلك فى سرعة غير عادية ، هذا فى الوقت الذى عينت فيه صنغاى الجنوبية — وهى بعيدة فى أسفل النهر ولم يدركها الغزو بعد — ملكا جديدا لنفسها . ومن ثم أصبح هناك ملك ألعوبة فى الشمال وملك آخر فى الجنوب .

وحينئذ أخرجت صنغاى — على حساب ثروة دولتهم — قائدا على جانب كبير من الشهرة هو اسكيانوح ، الذى نجح فى تبين مدى الإنهيار الذى أصاب قوى الدولة ، وسرعان صارع محمود بجيش قوى ، فكان

هـذا انتعاشا بارزا لصنغاى التى أصيبت بالتعفن فى كل وجه من أوجه لقائها بالغزاة ، عرفوا خلاله أن لديهم فرصة ضئيلة ضد الأسلحة النارية التى يملكها العدو . فإلى جانب كون نوح قائدا ملهماً فإنه ولد ليكون قائدا من قواد حرب العصابات . فعرف تماما كيف يستفيد من المزايا الطبيعية لبلده وكيف لا يترك فرصة واحدة لإيقاع الخسائر بالعدو إلا انتهزها فمكنه هذا من أن يحتفظ بالمعركة ضد عدو تفوق قواته بكثير فى مدى الأربع سنوات التالية .

ولم يضيع محمود أى فرصة فى محاولة ضرب القائد الجديد وكان نوح ينتظره فى دندى Dendi وهى منطقة مليئة بالأشجار تقع جنوب جرما وفى المعركة التى دارت سجل نوح إنتصارا ادبيا أذ شغل العـدو يوما كاملا ثم انسحب انسحابا منظما . وعلمته الموقعة أن الإقليم المفتوح أكثر فائدة له من المغاربة الذين أعطوا حقلا من النار يستطيعون منع عدوهم السىء الإستعداد من الإطباق عليهم وحين تعلم هذا الدرس الهام انسحب نوح نحو الجنوب إلى غابات بورحو Burgu .

وطارده محمود فى عزم وصعد نوح مع نهر مكون Mekon فى منطقة غزيرة المطر تكسوها المستنقعات المليئـة بالملاريا تختلف من الغابات الكثيفة إلى الغابات المدارية .

وإلى جانب هذه المزايا التى كانت فى صف نوح كانت المساعدة التي تلقاها من السكان المحليين . بالبرجاوا Burgara (أهل بورجو) وثنيون محبون للحرب ذو وخبرة طويلة بالإمكانيات الدفاعية الكبيرة لبلادهم .ولم يسبق لهم أن فقدوا إستقلالهم بالرغم مالاقوه من وقفات طويلة أمام ملك محارب قوى مثل سنى

على اسكيا الكبير[١] وقد كرهوا الصنغاى كما فعل بقية جيرانهم الشماليين جلابى العبيد، ولكن فى وجه العدو المشترك الذى قدم إليهم من وراء الصحراء لم يترددوا فى الوقوف إلى جانبهم .

فى هذه الظروف لا يدهشنا أن نجد محمود قبل إنقضاء مدة طويلة يأسف أن سمح لنفسه بأن يتورط فى بورجو ، إذ لم يكن للمغاربة تجربة ما فى القتال خلال الأشجار فكانوا أن وقعوا فريسة سهلة للحركات غير النظامية التى أتقنها أعداؤهم . فسواء كانوا فى المعسكر أو خلال السير لم يتمكنوا من الراحة ، إذ توالت عليهم الهجمات المفاجئة من جميع النواحى . سواء فى النهار او الليل حتى ذهبت قوتهم وتحطمت روحهم ، واضيفت إلى حالتهم البائسة عوامل الجو الرطب والأكل الغريب والماء الفاسد ، التى تكاتفت لتقتضيهم ضريبة باهظة من الرجال، كما قضى ذباب التسى تسى[٢] على خيولهم وكانت منغصاتهم هى نفس تلك التى وقفت فى وجه الاحتلال العملى لمنطقة الغابات بواسطة القبائل السودانية التى تعمل فى غارات الرقيق ، والتى اغلقت داخل غرب إفريقيا لقرون امام مراكز تجارة الأوروبيين على ساحل غانة فالغابات لا تخترق من الشمال كما هى من الجنوب .

ومضت سنتان قبل ان يرغم الإجهاد التام للجيش وانعدام قدوم المدد من مراكش ، القائد محمود على ان يتبين عدم جدوى الإستمرار فى القتال .

---

(١) شهد لوجارد الذى كانت له اتصالات شخصية مع البورجاوا بنجاحهم الحربى الذى يعزى أولا إلى معرفتهم بالسحر، وسمهم المميت الذى يغمسون فيه سهامهم ثم إلى حركاتهم الحربية وخاصة سيادتهم لفن حرب العصابات وحبهم لغزوات الليل (المجلة الجغرافية مجلد ٦ ١٨٩٥ ص ٢١٩) :

(٢) فى الأيام الحديثة أصبحت منطقة نهر ميكون خالية من السكان تماماً بسبب مرض النوم الذى تحمله ذبابة التسى تسى .

فأرسل رسالة إلى الشريف لا تختلف كثيراً عن تلك التى ارسلها جودر ولم تصدق. ولحسن حظه بدأ المنصور يتبين ان القتال فى قلب إفريقيا ليس اقل سهولة مما ظن اولا، هذا بالإضافة إلى ان تحمل محمود وصبره قد اكسباه الإحترام، فقرا حساب الباشا عن شروط جنوده والتقدير اليائس للموقف بمزيد من العطف والتفهم اكثر مما اظهره لجودر فى مثل هذه الظروف، فأرسل فى الحال إلى محمود قوة قوامها ١٥٠٠ من الفرسان ومثلها من المشاة وخمسمائة من الإحتياطى، وقفاها بفرقتين اخريتين صغيرتين قوامهما اربعمائة رجل.

وإذا ما وصلت هذه الفرق الجديدة إلى محمود، كان هذا قد فكر فى ان لا يضيع اى وقت آخر فى الإقامة فى بورجو، وفى نهاية سنة ١٥٩٣ (١٠٠١ هـ) انسحب على طول الضفة اليمنى لنهر النيجر إلى تمبكتو وبعد ان ترك حامية فى جاو.

(١٧)

سقوط صنغاى

يبدو ان الحملة الناجحة التى قادها المغاربة عبر الصحراء قد انهكت قوتهم وقدرتهم على التنظيم ، فحاجة السودان الملحة إلى القوة افقدتهم سريعا مـيزة الاسلحة النارية التى اعطيت لهم . فبدلا من ان يستغلوا الخلافات القبلية التى فرقت اعداءهم ، انصرفوا إلى معارضة ومقاومة كل من قابلهم . ونتيجة للضعف وسوء القيادة انقسم الجيش إلى حاميات صغيرة معزولة، فأخذت قوة الحملة فى التحلل وتحولت الحرب إلى مذابح وحشية تبعتها إنتقامات دنيئة .

وقد تكونت شعوب غرب السودان من خليط من العناصر ، فكثرة تعدد القبائل المتعادية والنابعة من اصول عديدة ، كذلك إختلاف العقائد الدينية واختفاء الحدود الجغرافية الطبيعية، كانت كلها تكون بعض العوامل التى تعاونت لترمى بالبلاد إلى الفوضى عقب إرتخاء اليـد التى كانت تمسك بالسلطة المركزية القوية .

وكانت النتيجة الطبيعية لهزيمة جيش صنغاى فى تنديبى هى إنطلاق الفوضى واعمال السلب على نطاق واسع ، فهروب الملك اسكيا اسحق وقواته الممزقة كانت بمثابة علامة للعناصر المتصارعة لتفقد رباطها وتنقلب إلى فوضى تشمل اجزاء الدولة الممزقة التى لم تشعر بعـــد بأثر مباشر للجيوش الغازية .

فالقبائل التى كانت خاضعة لوصاية صنغاى بهرها ما تمتعت به من حرية غير منتظرة ، فتركت نفسها على سجيتها إلى اقصى ما تملك فانقض الفولانى

والزجرانا على فلاحى الصنغاى فى منطقة البحيرات شمال تمبكتو ، فنهبت منطقة جنى الوافرة الثروة من طرفها إلى طرفها الآخر بواسطة (قطعان) قبائل بمبارا الوثنية وغدا الطوارق اكثر قوة ووحشية فى غاراتهم على المناطق المزروعة الغنية ، وكتب السعدى أن الفوضى أخذت محل الأمان ، والفقر مكان الثروة . والبؤس والنكبات والعنف عقبت الهدوء . وفى كل مكان افنى الناس بعضهم البعض . وانتشر النهب فى كل ركن ولم تترك الحرب الحياة أو الأملاك أو الأشخاص، وسادت الفوضى وانتشرت فى كل مكان بل انبعثت قوية إلى أقصى الدرجات .

وفى خلال العصور المدونة كان الطوارق دائما خطراً مهدداً للشعوب المستقرة فى منطقة وسط النيجر ، ولكنهم اكثر تهديداً لسكان تمبكتو . الذين كانت ثروتهم اشد ما يجذب محاربى الصحراء . وبسبب موقعها على حافة الصحراء كانت تمبكتو دائما فريسة سهلة لغاراتهم المفاجئة غير المنتظرة ، حتى لقد اصبحت عادية لجميع أعمال المدينة التى اصبحت تدار داخل البيوت أفضل من خارجها .

لم يكن الطوارق بطيئين فى الإستفادة من حالة الفوضى التى تبعت الغزو المغربى . فبينما كان محمود مشغولا بحروبه غير المثمرة على بورجو ، وصلوا إلى تمبكتو ونهبوها وبدأوا بأن أغاروا على الحامية المغربية، ثم تحولوا فجأة إلى جانب المغاربة ضد الأهالى . وكان الأخيرون قد تعودوا على استعمال السلاح دفاعا عن أنفسهم ، فقاموا فى قوة عارمة ضد الحامية المغربية التى لم يخلصها من الفناء الكامل إلا وصول قوة النجدة التى بلغت ثلاثمائة من حملة الأسلحة النارية بقيادة القائد مامى بن بارون Mami ben Baron الذى أرسله محمود إلى النيجر لإنقاذ تمبكتو . وكان مامى — ونحن لا نعرف أصله وإن كان يظن أنه أوروبى — أحد الرجال القلائل الذين

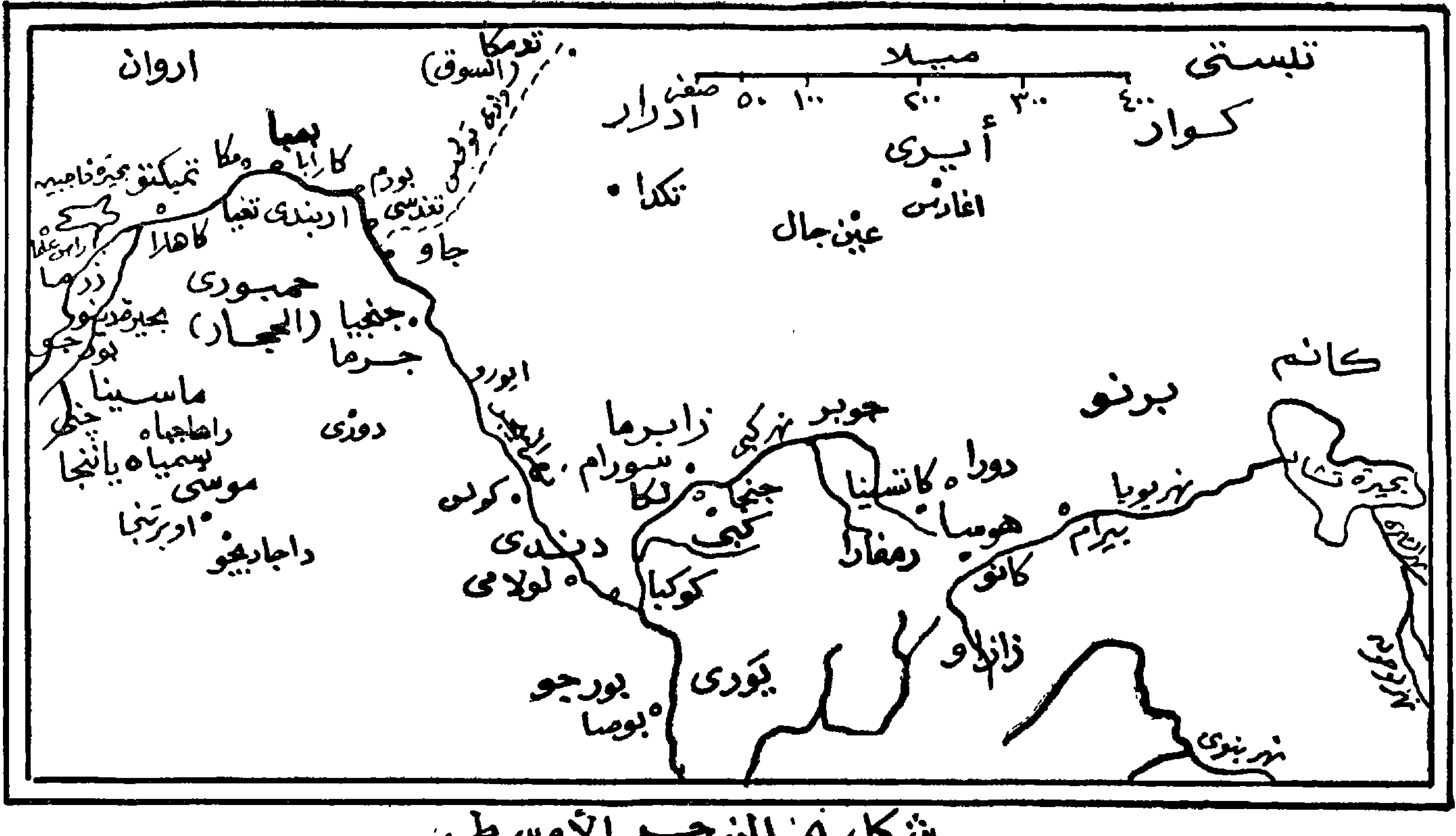
أرسلهم المنصور إلى السودان وأظهروا العطف على السودانيين أو الذين تبينوا الحاجة الى كسب ثقتهم . فبالرغم من أنه ذكر أنه يستطيع أن يقتل كل نفس حية فى المدينة ، فانه أظهر الإعتدال إلى حد أن عطفه بدا على سكان المدينة أكثر مما بدا على مواطنيه . وأصر على أن يدفع نقداً ثمن كل مايلزم جيشه من مؤونة ، بل اعتذر إلى أبي حفص عمر عما ارتكبه الجيش المغربى ، وكان هذا كله مختلفاً تماما عما لقيه الأهالى سيئو الحظ على يد الغزاة . إلى حد أن المرارة التى فرقتهم اختفت تماما . وعادت ثقة الجماهير وأقسم الناس يمين الطاعة للسلطان . وعاد الهاربون من الصحراء . وفتحت طرق التجارة وأصبحت الحياة فى المدينة عادية .

وكان العلماء والتجار فى جنى يرقبون الحوادث فى تمبكتو بقلق ، لأنهم عرفوا ان الحماية التى منحتها الأنهار والمستنقعات لهم لن تستمر طويلا . ورأوا معاملة مامى الكريمة غير المنتظرة لثوار تمبكتو ، فأسرعوا يقدمون خضوعهم وقبل منهم هذا الخضوع وحددت ضريبة المدينة بستين الف مثقال من الذهب[٢] .

وأدرك مامى أن لا أمل مطلقا فى اقرار السلام فى تمبكتو أو أى مكان آخر فى النيجر الاوسط ما دام الطوارق لم يخضعوا فأرسل ، حملة تأديبية تؤدب قبائلهم التى سببت هذه الإضطرابات ، وبمساعدة البدو الأصدقاء — الذين كانوا هدفا للثوار على ما يظن — قبض عليهم وقتل كل رجالهم وباع نساءهم وأولادهم رقيقاً . وسبب ذلك هبوطاً ملحوظا فى أسعار الرقيق حتى لم يعد العبد يساوى اكثر من بنسات قليلة . هذا بينما قامت فرقة

---

(١) وفيما بعد اتخذ ولد المنصور مولاى زيدان لقب ملك جاو وتمبكتو وجنى . ويظهر ذلك أن جنى كانت اكثر اهمية مما يوحيه دورها المعتدل فى تاريخ السودان المغربى .



شكل ٥ النيجر الأوسط

أخرى من طوارق صنهاجة القوية ثائرة على مامى وهجمت على إحدى الحاميات المغربية وأبادتها . ولم ينقذ الموقف إلا وصول نجدة مكونة من عشرين ألفا من مراكش . وحتى عودة محمود من الجنوب فى نهاية سنة ١٥٩٣ (١٠٠١ هـ) لم يكن المغاربة بقادرين على الإنتقام لأنفسهم حين أبادوا كل صنهاجة المجرمة .

وأعطيت الأوامر إلى محمود أن ينطلق بمحض حريته ليضع خطة دقيقة لنهب تمبكتو ، وبذلك لم يكسب شيئاً من الحملات وما سلمته جاو من فدية قليلة ذهب كله إلى جودر ولم يوجد فى قرى بورجو الفقيرة شىء مطلقاً . وأخيراً جاءت الفرصة لمحمود ليعتصر من تمبكتو كل ما يستطيعه ،فأرسل من يخبر السكان أنه سوف يفتش المدينة بيتاً بيتاً عن السلاح . فيما عدا بيت واحد هو الذى يملكه أبناء سيدى محمود الصالح أحد قضاة تمبكتو السابقين . فاندفع كل من يدعى القرابة إلى أحد أبناء هذا الرجل الصالح إلى البيت يضع فيه كل ما يملك من ثمين . لئلا يسرقه القادمون إذا ما ترك بيته لهم ، وبعد إجراء التفتيش دعى أبناء المدينة للاجتماع بمسجد سونكور ليقسموا يمين الولاء للسلطان وإذا ما انتهوا من ذلك طردوا . ثم دعى أبناء سيدى محمود، وأغلقت أبواب المسجد عليهم فى الوقت الذى فتشت منازلهم ونهبت كل ثروة تمبكتو ،واغتصبت نساؤهم وقتل كثير ممن سجنوا فى المسجد. ومن بين المنهوبات احتجز مائة ألف مثقال من الذهب للسلطان .

وقبل أن يسلب محمود تمبكتو كان الناس وقد يئسوا من العودة إلى المعاملة الحرة التى تلقوها أيام مامى، كما تركوا أيضا كل أمل فى الخلاص من الاضطهاد العنيف الذى تحملوه وفى نهاية سنة ١٥٩٢ (١٠٠٠ هـ) أرسل أبو جعفر عمر بشجاعة رسله إلى مراكش ليضع أمام المنصور صرخات شعبه المنهار طالبا الرحمة. ولدهشة الرسل استقبلوا فى القصر السلطانى استقبالا وديا ، وأعيدوا ومعهم وعد بأن

يصفح عن أخطائهم ، وصحبهم فى عودتهم قاض يسمى بوختيار[1] وصف بأنه ولد أمير مسيحى من بين أسرى الغارات، يحمل أمراً بحسن المعاملة لعمر وشعبه. ولكن عندما وصلوا إلى تغازة عرفوا أنهم خدعوا خدعة كبرى. إذ كان المنصور قد أرسل من وراءهم رسولا بأوامر تختلف عما حملوه . تقضى بالقبض على عمر وعلماء تمبكتو . وعرف الرسل أنهم وضعوا فى القيد . وبعض أشهر قليلة تقرر إرسال السجناء ومعهم أسراتهم وكتبهم وما يملكون إلى مراكش عبر الصحراء . ولما كانوا ينتمون إلى الطبقة المثقفة الثرية، فإنهم لم يتحملوا وعورة الطريق والرحلة التى أرغموا على القيام بها . لا سيما وأنهم كانوا قد أصيبوا بالضعف من جراء الأشهر التى قضوها فى السجن مثقلين بالسلاسل . كما أن عمر المسن قد أصبح مريضا .

وليس لدينا أية وثائق عما قاساه المتعبون أثناء سوقهم فى الصحراء . أو عدد من بقى منهم ، ولا يستطيع الإنسان أن يشك فى أن من ماتوا منهم كانوا كثيرين، لاسيما من بين النساء والأطفال، وبالرغم من صحته المعتلة وسنه الكبير فقد أكمل عمر الرحلة وكذلك أحمد بابا المؤرخ المشهور الذى جاء ذكره كثيراً والذى لم يبق من أعماله شىء .

وقد أثارت معاملة محمود باشا لصنغاى سخط بعض ضباطه . من بينهم أحمد بن الحداد أحد القواد الذين صحبوا جودر إلى السودان . وبعد القبض على عمر وصحبه أسرع هذا الضابط الشجاع وانسل سراً إلى مراكش من أجل أن يرفع إلى السلطان سلوك الباشا المشين . وتأثر المنصور كثيراً عند سماعه المدى الذى أساء فيه محمود استعمال قوته . ومن إندفاعه وقسوته ومن

(١) كان بوختيار يقود مددا عدده ألمان ومئتان . وقد أظهرت التجارب غبارة محاولة إرسال فرق كبيرة العدد معا عبر الصحراء . وسارت الحملة فى فرقتين منفصلتين ليستفيدوا قدر الطاقة من الماء اليسير والمراعى الفقيرة فى الصحراء .

عادته فى التصريح بأن السيف هو سلطانه، ولكنه فى نفس الوقت لم يبد أنه قد قد نوى أن يستبدل بمحمود أحداً حتى يصل عمر وصحبه ، لما علم من القائد أن حصته من الغنيمة كانت مائة ألف مثقال من الذهب . وعندما سمع ذلك أرسل فى الحال إلى السودان القائد منصور بن عبد الرحمن يحمل الأوامر أن يتسلم هذا النصيب من محمود ويقتله .

هذا بينما كان محمود الذى كان على أية حالة قائداً مهذباً فى الواقع ينفذ اتفاقه مع نوح بنشاط ملحوظ ، وكان كل مجرى النهر من جنى إلى جاو فى يد المغاربة . وكانت جاو فى يد جودر القوية وكان منذ أن عزل من القيادة العليا مداوماً على أن يظهر نفسه قائداً كفئاً . ولم يستطع نوح أن يوجه تهمة إليه ، فترك وادى النيجر وتقهقر إلى منطقة جبال حمبورى Hombori موطن التومبو Tombo وهى قبيلة محاربة عرفت ولا شك كيف تدافع عن استقلالها حتى القرن العشرين . ولم ترق هذه الحركة لمحمود لأن الدفاع عن جبال حمبورى كان سهلا كما انها بعيدة عن تمبكتو . فبينما كان الباشا يحاول إخراج نوح من موطنه الجبلى، تلقى تحذيراً رقيقاً من مولاى أبو فارس أحد أبناء السلطان عن المصير الذى سوف ينزل به ، إذا ما وصل منصور ورأى محمود أن الهرب مستحيل فشن هجمة صاعقة على العدو لقى فيها مصرعه النبيل . وهو ما كان يبحث عنه . وتبعه عدوه محمود إلى القبر بعد ذلك بقليل ، إذ قتل هو الآخر فى هجمة قادها منصور على معقل حمبورى .

وفى تاريخ الحملات المغربية لن تجد قائداً خدم دولة بمثل ما حدمها باخلاص كل من محمود ونوح ، فى خلال السنوات الأربعة التى كانا فيها على رأس الجنود كانت الحملة تسير إلى أهدافها بعزم من الجانبين ، وهو أمر لم يكن معروفا خلال الفترات الأولى من الحرب . وبالرغم من ان العار والموت منعا محمود من النصر النهائى . فإنه كان أنجح قائد مغربى وإن كان قد فشل

كا داري بسبب إندفاعه وقسوته . ولكنه — مثل من سبقوه وأغلب من تبعوه — كان الاستبداد مظهر حكمه الوحيد ولم يعرف غيره . وعلى المستويات المغربية كان قائداً عظيما وواحداً من قليل من الجنود المخلصين الذين كانوا فى خدمة المنصور، وكان موته أقل خطراً على المغاربة من موت نوح على صنغاى .

إذ على أثر موت نوح إنهارت المقاومة المنظمة ، وأصبح إنهيار دولة الزنوج الكبيرة حقيقة كاملة ، ولكن شعب صنغاى كان آخر من يسمح بذلك ، إذ أن روحهم لم تحطم وكراهيتهم للغزاة لم تذهب ، ولم يكن لدى المغاربة ما يجعلهم راضين ، إذ لم يعوض حملة اسلحتهم النارية رغم قلة عددهم، كما إنهارت مقاومتهم للأمراض المدارية وعدم كفاءتهم كا داريين ، وأكثر من هذا كله لإتساع الدولة التى حاولوا اخضاعها، ورغم أن أهل صنغاى قد أصبحوا صرعى فإن المغاربة لم يصبحوا سادة الإقليم إذ أن سلطتهم لم تتجاوز ضفتى النيجر الأوسط، وعلى طول مجراه لم يأت احتلالهم العسكرى بنتيجة فى السيادة الإدارية ، الأمر الذى بدونه يصبح الفتح والغزو لا يزيد عن أن يكون ادعاء .

والمطالب الثقيلة التى اقتضتها الحملة من مراكش لم تنته بموت اسكيا نوح . فبسبب بعض الإهمال غير المفهوم من السلطان تصارع كل من جودر ومنصور عن أى منهما يخلف محمود باشا . وعندما رفع الخلاف إلى المنصور أصبح الأمر اكثر سوءاً حين عين منصوراً قائداً عاما للحملة وجودر حاكما مدنيا . مما زاد من منافستهما وعداوتهما . ولم تنته الفوضى التى نتجت إلا بعد موت منصور ، وأغلب الظن أنه مات مسموماً بواسطة جودر ، ووقع نفس المصير للقائد الذى أرسله السلطان ليحل محل منصوراً ، فى الوقت الذى كان فيه جودر يمارس السلطة العليا فى السودان، وبالقرب منه يوجد منافس آخر

لا يستطيع أن يصل معه بسهولة إلى استقرار كما وصل مع الآخرين ، وهو القائد المصطفى الذى حكم تمبكتو لعدة سنين والذى كان مسئولا إلى حد كبير عن الإرتباك الذى حدث فى المدينة والذى لم يكن له نهاية. وآخر أعماله كانت محاولته أن يزيح جودر ليأخذ مكانه . ولما كان الأخير غير قادر على عزل منافسه اتفق معه أن يترك الأمر للجيش لتضع حداً له . وانحاز أفراد الجيش لجودر ولكن ما كان أكثر أهمية من قرارهم هو تحققهم الفجائى أنهم أصبحوا الآن أسيادها وهذا هو ما كلف مراكش السودان .

استخف جودر بالمصطفى ، وبدا له أن افضل مايستطيعه هو ان يطرح عنه سلطة السلطان وينادى بنفسه حاكما مستقلا. والواقع أنه لم تكن له مثل هذه الأطماع، بل كانت رغبته الوحيدة أن يترك وحده ليحكم البلاد بالطريقة التى يعتقد أنها تفيد اهتمام السلطان بينما كان الآخر يعتقد عدم جدوى إرسال قواد آخرين ليصفيهم جودر ولذا رضى بعودة جودر إلى المكانة العليا التى كانت له من قبل عندما عينه قائداً عاماً لجيش الصحراء . وهكذا كانت قصة علاقته بالخصى الأسبانى الذى استدعاه إلى مراكش ليحطم ثورة كانت تسبب له قلقاً كبيراً ، ولكن جودر ـ الذى أصبحت ثقته فى نفسه لا تقف عند حد ـ رفض أن يترك السودان حتى يصل حاكم مختص يأخذ مكانه . فأرسل المنصور قائدين مدنيين أحدهما برتغالى ، ولكن لما كان جودر لا يعتقد فى إمكانهما إثبات قدرتهما لمواجهة أى هجوم كان يعتقد أن مندنجو مالى يجهزان للبدء به ضد الدولة، فإنه رفض ان يسلمهما السلطة . فأرسل المنصور بعد ذلك عمار باشا وهو خصى برتغالى صغير السن كان قد ذهب قبل ذلك إلى السودان قائداً لفيلق من الف من المدد، فقسمه إلى قسمين كل منهما خمسمائة، وجعل كلا منهما يتبع طريقاً مختلفاً عن طريق الآخر كعادة الجيوش الكبيرة حين اجتيازها الصحراء ، ووصل الأولون إلى تمبكتو بسلام ولكن الأندلسين هلكوا حتى آخر رجل.

وبالرغم من هذه الحادثة، كان جودر غير مقتنع بما فيه الكفاية بأن يسلم السلطة لعمار واعادته إلى الوطن . وقد أرسل جاسبر تومسون Jasper Thomson —وهو تاجر بريطانى كان يعيش فى مراكش فى هذا الوقت— رسالة خاصة إلى أحد أقربائه فى لندن ينبئه بعودة جودر باشا إلى الوطن وكان تاريخ هذه الرسالة الرابع من يوليو سنة ١٥٩٩ يقول فيها .

(منذ ستة ايام وصل رجل نبيل من جاو يدعى جودر باشا، وكان قد أرسله الملك منذ عشر سنين ليغزو هذه الدولة . التى فقد فيها كثير من أبناء هذه الدولة (مراكش) حياتهم . وأحضر معه ثلاثين جملا محملة بالتبر . وهو ذهب غير نقى (وفرق السعر هو ستة شلنات فى الأوقية الواحدة بينه وبين الدوكات) وكمية عظيمة من الفلفل وقرون الوعول ونوعاً من الخشب للصناعة . تبلغ ١٢٠ جملا . وقدمها جميعاً إلى الملك . ومعها خمسون حصاناً وعدد كبير من الخصيان والأقزام والرقيق رجالا ونساء . إلى جانب خمس عشرة من بنات ملك جاو، أرسلهن ليكونوا محظيات للملك ،ويجب أن نلاحظ ان كل هؤلاء من ذوى الشعر الأسود الفحمى لأن هذا الإقليم ليس فيه غير هؤلاء[1]).

وقد قدر طومسون حمولة الثلاثين جملا ذهباً بـ ٦٠٤,٨٠٠ جنيها ولم يكد جودر يترك السودان حتى انفجرت غزوة المندنجو، واخمد الثائرون ولكن بكل صعوبة وبذلك تجنبت ثورة عامة للقبائل . وبالرغم من هذا فإن

---

(١) كان الفلفل من فلفل مالاجوينا أو الشيلى وأطلق عليه البعض اسم حبوب الجنة، ومن هذه الحبوب اشتق ساحل غانة اسمه ، وقرون الوعول ربما كانت قرون فرس النهر واحتمال أن تكون قرون غزلان غير مقبول لأن الغزلان كانت كثيرة فى الصحراء وقرونها ثمينة جداً فى مراكش .

الموقف لم يعالج تماما بواسطة عمار، إلى حد أنه استدعى وحل محله سليمان باشا : وكان آخر وأفضل من عينه المنصور فى هذا المنصب ،ويختلف عمن سبقوه فى أنه كان إدارياً مثقفاً ، وتبين حاجته إلى كسب ثقة السودانيين فنقل حامية تمبكتو إلى خارج المدينة ، وبذا جنب سكانها النهب والسلب اللذين كان الناس ضحية لهما لمـدة طويلة ، ولنفس الهدف أخضع الجيش كله لنظـام قاس لم يعرفه منذ أيام محمود ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح السودان أقل سخطاً وأكثر سلاما مما عرفه المغاربة، ولسوء الحظ كانت مدة هذ السلام الذى سـاد بين الصنغاى والمغاربة قصيرة وانتهت بوفاة المنصور فى أغسطس سنة ١٦٠٣ م (١٠١١ هـ) .

وحاول كل من أبناء المنصور الثلاثة الإستيلاء على العرش . فوقعت مراكش من نصيب أصغرهم زيدان الذى تغلب على أخويه ولكن بعد سنين من الحرب الأهلية،وقبله جيش السودان فى الحال خليفة شرعياً لوالده،ولم يفده هذا أو يفد الجيش فى شيء. إذ كان مشغولا إلى أقصى الحدود بالفوضى وعدم استقرار مركزه ، ولذا لم يفكر كثيراً فيما كان يجرى وراء حـدود الصحراء . كما أن فرقه المخلصة هنالك لم تكن لتفيده فى شيء من أجـل التغلب على مصاعبه الداخلية .

وكنتيجة لإستـدعاء سليمان باشا ، بعد موت المنصور مباشرة ، تدهور الموقف فى السودان إلى حد أن أصبح موضع شك أن تظل السلطة الشريفية مستقرة . إذ ثارت الطوارق والصنغاى والفولانى . ولم تسحق أية واحدة منها تماما بسبب الحالة المؤسفة التى وقع فيها الجيش .

إذ اهتم الجيش — الذى كان منقسما على نفسه — بالقتال بين فرقه المختلفة . اكثر من مقاومة اعداء دولتهم . وفى سنة ١٦١٠ (١٠١٨هـ) أخرج محمود

لونكو Mahmud Lunko خليفة سليمان بواسطة أحد قواده على التلمسانى الذى أعلن نفسه باشا من بالرغم من إرادة السلطان . واخيرا عندما شعر مولاى زيدان بنفسه آمناً ما فى الكفاية فى الداخل ، حاول أن يقيم الأمر فى السودان . فأرسل عمار باشا من جديد ليرى ما يستطيع ان يفعله[١] . فرأى عمار أن السودان يعج بالثورة والجيش عاجز عن السيادة على الموقف إلى حد أن قتل على التلمسانى لم يكن ذا اثر فى إعادة أى بادرة للنظام . وفى سنة ١٦١٨ (١٠٢٦هـ)حين وصل عمار إلى مراكش ليخبر مولاى زيدان صمم نهائياً على أن يخلى نفسه من هذه المهمة الغالية التى أغرق فيها المنصور بلده منذ ثمان وعشرين سنة[٢] .

وأصبح مغاربة السودان أسياد الموقف حين أصبحوا يختارون بأنفسهم حكامهم من الباشوات والقواد وأطاعوهم كما اشارت إليهم ميولهم . وعزلوهم عند أول بادرة. واختاروا أيضاً ضباطهم من بين الجنود الذين ارسلتهم مراكش، وإذا لم تجد من يملأ هذه المناصب اختارت من يشغلها من بين الخلاسيين الذى اطلقوا عليهم اسم ارما Arma وكان هدف كل قسم من اقسام الجيش الثلاثة ان يحتفظ لنفسه بمنصب الباشوية ليشغله أحد ضباطه ، وكان الهم الأول للباشا أن يرضى جشع القسم الذى يدين له بمنصبه ، والفرص التى اعطيت إليه ليربح ربحا شخصيا مهما كان الثمن . وأصبح السودانيون المساكين الضحايا الدائمة لكل أنواع التنكيل التى لم يستطيعوا

---

(١) كان يصحب عمار باشا إلى السودان رفيق فرنسى هو البحار بول امبرت Pual Imbert وسوف نشير إليه فيما بعد .

(٢) بالرغم من هذا ادعى الملك محمد الخامس فى سنة ١٩٥٨ أن حدود دولة تمتد حتى السنغال وتشمل تمبكتو .

الهرب منها . فإذا بدأ الباشا يشعر بنفسه غير آمن ، لا يتردد فى أن يدعو الطوارق لنصرته . وكانت مكافآتهم التقليدية إطلاق الحرية لهم فى نهب الزراع من الصنغاى ، وأدت الفوضى وعـدم الأمان تلقائيا إلى تدهور المدنية والمجاعات المخربة .

وظلت تمبكتو عاصمة المغاربة ومركز الملك الدمية الذى أصبح تحت رحمة الباشا . وبقيت الحاميات التى يقودها القواد فى جاو فى حالة مستمرة من الثورة وكذلك فى بمبا وفى جنى . ولأسباب دينية بحتة يحسن أن نظن أن سيادة السلطان كانت اسمية بحتة ولكن يعترف بها فى صلاة الجمعة حين يذكر اسمه فى الخطبة . ويبدو أنهم كانوا يرسلون له بالضريبة . ويخبرنا فرنسى عاش عدة سنين فى مراكش فى منتصف القرن أن ملك جاو — وهو يعنى ولا شك الملك الالعوبة — كان يكن احتراما كبيراً للسلطان إلى حد أنه أكد لنا (المتحدث) أنه يرسل بجزية إلى ملك مراكش ، ولكنى لم اصدقه إذ أظن أن الأمر لا يتعدى الهدايا . وفى سنة ١٦٦٠ م (١٠٧٠ هـ) حذف الباشا الحاكم محمـد الشتوكى Muhamed ech chetuki اسم السلطان من الخطبة ووضع اسمه مكانه . وبعد بضع سنين أصبح الأرما كما أصبح المغاربة فى حالة من الضعف سمحت لتمبكتو أن تقع فى أيدى البمبارا الوثنيين من سيجو . وكانت هذه هى الخطوة الأولى نحو انهاء السيـادة السياسية للمغاربة .

وفى هذا الوقت ترك السعديون الحكم للحسنيين . واضطر مولاى الرشيد ثالث خلفاء هذه الدولة الجديدة إلى أن يصرف جل مدته فى مصارعة المنافسين الأقوياء الذى أرادوا أعادة السعديين ، وكان أكثرهم خطراً هو على بن حيدر الذى اضطره السلطان الجديد إلى الهرب من البلاد تصحبه قلة من انصاره يبحثون عن ملجأ لهم فى السودان ، حيث دخل فى حماية ملك البمبارا

فى سيجو — بعد أن أهدى له عذرائين اندلسيتين — وأخذ سيد تمبكتو الجديد لساعته يجمع جيشاً خاصاً خرج به فى سنة ١٦٧٢ (١٠٨٢ هـ) يقصد مراكش لينتقم لنفسه من الرشيد . فوصل ليجد أن السلطان قد مات — ولم يكن هناك من سوء تفاهم بين على بن حيدر ومولاى اسماعيل الحاكم الجديد . والذى سبق أن اعتزل السياسة واستولى الأخير على جيشه الذى كونه على هيئة الحرس البرايتورى وبذلك أصبح العبيد الزنوج المشهورون أو البخارى Bokhari الذين قدر لهم فى الأيام الأخيرة — على مثال المماليك فى مصر — أن يكونوا اصحاب الأثر الكبير فى الحياة السياسية فى مراكش .

ووجد اسماعيل بسرعة أن هذه الثروة الزنجية — بسبب بعدها على السياسة المحلية — كالفرنجة البيض الذين كانوا فى الأيام الأولى ، عماد جيشه الرئيسى، فسر من ذلك إلى حد أن زاد من قوتهم بأن ضم إلى صفوفهم جميع الحارتيين Haratin الذين يمكن أن يجدهم ، ونسل الزنوج الذين أرسلهم جودر وغيره من الباشوات أسرى للمنصور . وشجع أيضا جيشه الأسود على إنجاب الأولاد الذين مرنوا منذ طفولتهم على الحياة الحربية . مؤملا أن تكون هذه الوسائل كافية لتحفظ قوتهم فأرسل ابن عمه أبو العباس أحمد إلى السودان ليرسل له المجندين وينظم امداده بجماعات منهم بصفة منتظمة .

ووصل أحمد إلى تمبكتو فى وقت كانت فيه الحياة غير محتملة لسكان المدن بسبب غزوات لصوص البرابى Berabish من الصحراء الغربية ضد من أهمل سادتهم من البمبارا حمايتهم ، ورحبوا بأحمد — الذى كانت تصحبه فرقة مناسبة — كمنقذ لهم ، وبعد أن طردوا موظفى البمبارا وباشر أحمد سيادته على المدينة باسم الشريف . وقضى بضع سنين هناك غزا فى خلالها استناداً إلى العفرانى — بعض الأقاليم المفقودة وبالرغم من ذلك يظن

أنه شغل نفسه بتجنيد الفرق السوداء للسطان، وفى عودته إلى مراكش ترك وراءه حامية لتحافظ على السلطة لسيده . ولكنها فشلت فى صد البمبارا فدخلوا تمبكتو واختلطوا سريعا بفرق الأرما .

وفى هذا الوقت ارتفع الأرما إلى مرتبة الضباط الأرستقراطية وتركوا لأمرهم إذا ما قاموا بدفع جزية معينة إلى سيجو ، فعاشوا بعد ذلك من بيع خدماتهم إلى الجماعات التجارية، إذ كانت التجارة لا تزال منتعشة ، وبالرغم من حالة الفوضى الضاربة كانت جالية كبيرة من التجار الأجانب تعيش فى تمبكتو يمثلون سوقا تجارية فى المغرب . واذا فشل التجار فى دفع الرسوم التى فرضت عليهم من الأرما أصبحوا بدورهم هدفا ، ولكنهم إذا دفعوا ما يطلب منهم حصلوا على ما يقابلها وبدأوا ينظمون انفسهم فرقا لحماية مصالحهم وقوافلهم . وحاجتهم — تحت حكم الإثنين من الرؤساء — كانت بالطبع مستديمة وكل قسم من اقسام الجيش الثلاثة له زبائنه المنتظمون الذين يستأجرونه كحرس لهم .

وبينما كان الأرما فى تمبكتو يعتمدون على التجار الأجانب الأثرياء كان جيش جاو يثبت وجوده فى وجه اخطار جديدة ،فمنذ السنين الأخيرة للقرن السادس عشر تعرضت الحياة القبلية المثالية فى وسط الصحراء للخطر — فطوارق كل أووى Kel Owi ، يساعدهم ماى إدريس علوما ملك بورنو، كانوا قد طردوا طوارق كل جرس Kel Gres من ايرى . وتسودوا طريق القوافل الهام الذى يربط الهوسابغات . وتحرك الأخيرون نحو الغرب إلى ادرار ايفوغاس Adrar of the Ifoshas يسوقون أمامهم العلوميديين Audimmiden وال كل تدمككت Kel Tedmkeket أقرباؤهم ولكنهم يعادونهم . واستقر الأخيرون سلمياً بالقرب من تمبكتو ولكن قوى العلوميديون احتلوا المراعى التى حول جاو واستولوا عليها

بالرغم من الحامية الأرمية التى تغلبوا عليها ، وبالرغم من أن الأرما استعادوا عاصمة صنغاى القديمة فإن قوة مقاومتهم أخذت فى الإضمحلال فالطريق من جاو إلى جنى كان يتسرب من أيديهم ، وفى نهاية القرن السابع عشر انتقلت جاو إلى يد العلوميديين ولم تسترد بعد ذلك قط . ووقع قواد جنى تحت وصايتهم المستمرة من البمبارا فى بعض الأوقات ومن الفولانى فى البعض الآخر ، وفى بعض الوقت نجح ارما تمبكتو فى الإحتفاظ بقدر من الإستقلال فى وجه الإعتداءات المتكررة التى شنها الطوارق لا البمبارا الذين يبدو أنهم فقدوا الإهتمام بالمدن ، وهاجمهم فى المرة الأولى العلوميديون ثم كل تدمكت ، وفى منتصف القرن التالى قاسوا على أيدهم الهزيمة التى لم يفيقوا منها ابداً .

وفى وقت سابق كان الأرما يتصاهرون تدريجياً إلى السكان الوطنيين ، وظلوا كعشيرة ارستقراطية يدل مظهرهم على ما بقى من المهاجمين المغاربة للسودان وهم الذين كانوا دائماً من الأوربيين وما زالوا موجودين فى تمبكتو وجنى ولكنهم لا يميزون إلا بصعوبة من بقية السكان .

وفى النيجر الأوسط . لا يزال الأثر المغربى يبدو ظاهراً فى الفخار والملابس وطعام الناس . ولكن أثرهم الباقى كان فى فن البناء الوطنى وخاصة فى جنى حيث تقدم فن البناء كما هو الآن فى السودان الغربى ، وكان الثمن الذى دنع لهذه الأرباح هو فقد جملة سلالات من الشعوب المحبة للحرية ولكل شيء من أجل السعادة البشرية . وحين ينسى كل شيء عن حديث الغزاة الأسبان يخبرنا السعدى ، أن السودانيين يظلون يتذكرون الأمر المخيف (قطع الرءوس) وتظل قصة الغزو المغربى تمثل أحلك حلقة فى تاريخ القارة .

(١٨)

السلطان الذهـــبى

شعر مولاى زيدان بن المنصور ١٦٠٣ - ١٦٠٧ (١٠١١ - ١٠١٦ هـ) وخليفته بالخيبة حين رأى قلة ماتركه له أبوه فى خزائنه وشكى بمرارة ما استنفذته غزوة السودان من مصاريف باهظة . وذكر أنها قضت على ثلاثة وعشرين ألفا من الجند ، ومات كل من عاد من السودان من جراء الأمراض التى حملوها معهم من هناك . إذ أظهرت خزائن أبيه الفارغة ماضيعته تلك الحملة.

وذكر السعدى مؤلف تاريخ السودان ، وهو الذى جاز إلى الرجولة فى وطنه تمبكتو خلال حملة الغزو ، أن ما استنفذ من الرجال والمعدات ذهب كله عبثاً .

وسخط كل من السلطان والسودانيين رغم اختلاف سبب السخط . وقد اخطأ كلاهما . لقد فشلت حملة السودان فى تحقيق أهدافها من حيث السيادة على مصادر الذهب ، ولكنها زادت من ثروة المنصور الوافر الثروة ، حيث لم يعد آسفا رغم أن قليلين شاركوه تضحياته . وبالرغم من ذلك فإنهم أطلقوا عليه اسم الذهبي .

وفى أيام العفرانى ، وهو الذى عاش بعد خمسين سنة من عودة الحملة ، نجد أن المغاربة مازالوا يتذكرون بالفخر الثروة التى انصبت إلى بلدهم كنتيجة للحملة .

(على أثر فتح ولاية السودان ـــ تسلم سلطان مراكش من تبر الذهب

ما أوقع الإضطراب فى الأتباع وأدهش المراقبين . ولم يعد المنصور يدفع مرتبات موظفيه إلا بالذهب الخالص ، ديناراً ذا وزن طيب ووقف على باب قصره ألف وأربعمائة عامل يضربون كل يوم قطع الذهب . وفى ناحية أخرى كانت له كميات من المعدن الثمين التى كانت تصاغ حلقات وحليا . وكانت هذه الكثرة من الذهب هى التى أعطت السلطان اسم الذهبى) .

وماذكره العفرانى مؤيد بشهادة الأجانب الذى كانوا يعيشون فى مراكش بينما كانت الحملة تسير إلى أهدافها التراجيدية ، ومن بينهم لورنس مادوك Laurence Madoc وهو تاجر بريطانى احتفظ بمكتبه الرئيسى فى لندن . وأنطونى داسل Antony Dassel أحد أفراد الشركة البربرية ، الذى أخبر بوضوح عن الحوادث فى مراكش . وهذا التقرير أرسل إلى لندن فى أغسطس سنة ١٥٩٤ بعد عشرة أيام من وصول القاضى أبو جعفر عمر إلى تمبكتو ومعه الأسرى الآخرون الذين أرسلهم المنصور مقيدين بالسلاسل عبر الصحراء :

[تسلمت خطابكم الأخير ووجدت فيه أنك تريد منى أن اكشف لك عن حالة تمبوتو Tombuta وجاجو Gago ربما لا تظن إنى انهمكت فى هذا العمل فى الوقت الذى تجد نفسك فيه قد توصلت إلى الحل الصحيح . وسوف تفهم أنه منذ عشرة أيام وصـــل إلى هنا كاهايا Cahaia أحد الأندلسيين عائداً من جاجو ومعه واحد من أعيان المغاربة . كان الملك قد أرسله من قبل مع القائد جودة (القائد محمود بن زرجون) وأحضروا معهم ثلاثين بغلا محملة بالذهب ، ورأيتهم بعينى قادمين إلى القصر . وهؤلاء أنفسهم ليسوا بفقراء بهذه الثروة إلى حد أنهم قدموا بغير أمر الملك . ولهذا السبب لن يدفع الملك لهم أجراً عن المدة التى قضوها هناك،ومن ناحية أخرى لم يجرأوا على أن يسألوا الملك أجرا ، وعندما رأى القائد جوده أن الكاهايا

الاندلسى لن يقيم فى جاجو معه ، فكر جيداً فى أن يرسل معه هذه البغال الثلاثين المحملة بالذهب ومعه خطابات توصية عرف منها الملك مقدار ثرواتهم التى حملوها معهم . وكان هذا سبب سخط الملك عليهم] .

ويبقى الآن فى جاجو القائد حموده والقائد جودر Jawdara والقائد اختيار (بو اختيار) ويوجد خمسة آلاف رجل معظمهم من (الفتيلة) أى حملة الأسلحة النارية والأقنعة على استعداد للرحيل من هنا فى آخر سبتمبر .

وكتب مادوك بعد ذلك فى نفس الشهر ثانية إلى راسل رداً على خطابه طالباً منه مزيداً من المعلومات عن نشاط المنصور فى غينيا .

[تبلغ ضريبة تمبوتو (اقرأ هذا الخطاب الثانى) ستين كنتالا من الذهب سنوياً . وهو مبلغ طيب كما تعرف. وضريبة جاجو سوف يظهر وسوف تعرفه فى الربيع حين يعود القائد حموده إلى وطنه وتأتى ضريبة تمبوتو بواسطة القوافل وهو — كما ذكرتُ لكم أعلاه — ستون كنتالا .

ويقول التقرير أن محمد (محمود بن زرجون) أحضر معه مثل هذا الكنز غير المحدود الذى لم اسمع بمثله من قبل . ويبدو أن عندهم ذهب أكثر من أى جزء آخر من العالم ، وقد استولى القائد على كل الإقليم أينما ذهب بدون قتال وهو يتجه جنوبا ناحية شاطىء البحر . وملك مراكش هذا يبدو أنه أكبر أمير فى العالم من جراء هذا المال إذا حفظه لدولته] .

وإذا كانت هذه البغال الثلاثون التى ذكرت فى رسالة مادوك الأولى حملت حمولتها العادية ، وهى سبعون كيلو التى يحملها حمار الصحراء العادى ، فالذهب الذى حملته على ظهورها يصل إلى سبعين ألف أوقية وسعر الذهب غير النقى مقدراً بالجنيه الانجليزى هو خمسون شلنا للأوقية.وعلى ذلك يحتمل أن تكون

قيمة هذا الكنز ١٧٥ ألفا من الجنيهات . وهى كمية كبيرة من المال فى هذه الأيام . وتقدير قيمة ضريبة تمبكتو السنوية بستين كنتالا من الذهب يصل إلى ١٥٠ ألفا من الجنيهات، وتقدر ضريبة جاو بحمولة ثلاثين بغلا أى حوالى ١٧٥ ألفا . ولكن دخل المنصور من البلاد المفتوحة كان غير محدود بالضريبة المدفوعة إليه سنويا .فمثلا يجب أن نذكر أن جاسبر طومسون البريطانى الذى كان فى مراكش حين وصل جودر عائداً من السودان،قدر الذهب الذى حمله الباشا معه ٦٠٤٫٨٠٠ جنيها وفى سنة ١٦٠٧ حين سادت الفوضى فى كل من مراكش والسودان عقب موت المنصور، لابد أنها هزت كميات الذهب الذى كان ينصب إلى الشمال إلى مراكش . فقد ذكر رجل فرنسي، أن هذا الكنز الذى يعادل ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيها كان ينتظر من جاو وتمبكتو وكله من تبر الذهب .

وتقدير كل واحد من هذه الأرقام لا بد أن يكون أكبر من أن يشك فيه ، ولكن فالمصادر التى استقيت منها لا بد أن تبرر التقدير فى أن السودان كان يدفع — لمدة سنتين على الأقل — كميات طيبة . من هذا الذهب الكثير الذى كان ينصب على الخزائن ، فاستطاع المنصور أن يزيد مصاريفه المبذرة التى أتاحها له من قبل انتصار المغاربة فى القصر الكبير فى بدايه حكمه . ولكن التجربة علمته أن يتصرف بحكمة ، فخصص الثروة الجديدة من أجل الحاجات الملحة للدولة أكثر من العظمة الشخصية . ولما كان لا يزال خائفا من جيرانه، فإن المنصور صرف مبلغا مناسبا فى تحصين وسائل الدفاع ضد الغزو والثورة، وعلى تحصينات لاراش — وهى التى بدت قد قويت بما فيه الكفاية. وفى فاس بنى حصنين هى البساتين والبستيون عمل فيهما الرقيق الأوروبى . ولكن ربما كان صرفه الحكيم هو مابذل لتحسين صناعة السكر فى سوس ومدها بالآلات . وهو — كخليفة لشعبه — ملزم بالصرف فى إسراف على المساجد والمدارس . ولكن زيادة تزيين قصوره الملكية لم تفته . فاستدار إلى اوروبا يسألها مزيداً من الصناع المهرة .

ومدى العمل الذى استخدم فيه البريطانيون فى مراكش أنه أثار اعجاب الكابتن جون سميث قائد فرجينيا المشهور ، وكان قد صادف أن زار المملكة بعد موت المنصور ببضعة أشهر، فكتب قوله : (أنه لا يوجد فى مملكة المنصور سوى عدد قليل من الصناع المهرة ، حتى لقد استدعى من إنجلترا صياغا وسباكين ونحاتين وصاقلى أحجار وساعاتية وبقدر ما يسر من عمل الصانع فإنه يعطيه عشرة شلنات أجراً يوميا علاوة على التيل والصوف والحرير وكل ما يكفيه من الطعام والأجهزة ، والإعفاء من الرسوم الجمركية على على ما يستوردونه . وذلك لندرة العمال المهرة فى دولته .

لا شك أن الساعاتية الإنجليز — يستخدمون فى ضبط الآلات البحرية التى يغرم السلطان بشرائها .واهتمامه بهم يبدو أنه نابع من قدرتهم التى أثبتوها فى الصحراء . فالغزوة المغربية والبؤس الذى تبعها أثارسخط سكان الصحراء إلى حد أن أصبح من الصعب العثور على الأدلاء . وعلى ذلك أرغم التجار والجنود المسافرون إلى السودان على استعمال الآلات الملاحية وقد صحب عمار باشا معه إلى السودان نجاراً فرنسياً — هو بول امبرت — وهو أحد الذين وصفوا مصاعب الرحلة الصحراوية فى هذا الوقت فقال

(حتى تعرف طريقك جيداً يجب أن تدون ملاحظاتك منذ شروق الشمس حتى غروبها، ويجب أن تقودك النجوم والبوصلة (إذا كانت هناك فرصة لذلك) وهم دائما يحرصون على أن يحملوا بعضا منها فى القافلة) وقد فعل ذلك من يفهم هذه الأمور مثل بول امبرت الذى كان نجاراً محبوباً وقد فتش عنه سيده حتى وجده .

وشبيه به رجل بريطانى كان يعيش فى نفس الوقت قال إن رحلة التجار إلى

السودان استغرقت ستة أشهر ، منها شهران يقضونهما فى اجتياز الصحراء الرملية حيث لا يقطن أحد كما لا يوجد بها طرق . ولكن يقودهم أدلاء كسائقى السفن فى البحار . يلاحظون سير الشمس والقمر والنجوم خوفاً من أن يضلوا الطريق، أما إذا ضلوا فالمجاعة تنتظرهم والموت من قلة الماء . وأجساد الموتى لا تفنى بل تصبح (مومياء) أو لحماً مقدداً طبيعياً أو صناعيا مثل تلك التى تأتى من الاسكندرية .

وفى سنة ١٦٠٠ كتب مراسل فى مراكش إلى إدوار رايت Edward wraight الرياضى البريطانى المشهور أن الزيارة المرتقبة لسفير مراكش للندن سوف تكون فرصة للربح من جراء شرائه للآلات .

ويستمر الكتاب فيقول (إن الملك مولاى همت (أحمد) شغوف بدراسة الفلك وعلم النجوم . ويقدر الآلات التى تستخدم لرصد مجرى الشمس والقمر وهى هنا نادرة إلى درجة كبيرة . فهناك مجال لك فساعتك أو مزولتك الخاصة أو جهازك الخاص بقياس خطوط الطول أو بالآلة المغناطيسية الجديدة أو استرلاب التى لها أهمية غير عادية وسوف يدفع لك فيها ثمن مجز) .

(ويمكن أن تصنع إطارا لبعض الآلات من النحاس أو الفضة تاركا مكاناً للكتابة العربية والأرقام، يكفى أن ترسم صورتها على ورقة وتدون عليها الأرقام اللاتينية والكلمات اللاتينية والأسبانية ، وهنا من يستطيع أن يحفر هذا كله بالعربية على الآلة إذا أعطيتهم بعض الإرشادات عن هذا الأمر ، والتجارب الحسابية سترضى السفير كثيراً . لا تتضايق من عرض ما تستطيعه فربما كان هذا لصالحك) .

(وآلتك المغناطيسية الخاصة برصد الدرجات ستصلح لرحلة سنوية يقوم بها البعض من أجـل الملك فى بحر الرمال ، حيث يجب أن يستعملوا الإبرة (البوصلة) إلى جاو وإذا سألت عن هذا الأمر واريتهم الآلات التى لهـذا الغرض فإن ذلك سيكون موضع الرضا) .

ولم يكن الذهب هو الوحيد الذى يؤخذ من السودان ويقدر تقديراً عالياً ، بل كانت هناك رغبة قوية فى طلب الرقيق والعاج والأبنوس والزبد وسوق جاهزة لأشياء أخرى كثيرة. وكان المنصور يحرص على أن يزوره الباشا دائما بكل هذه الأشياء ، إلى جانب الهدايا الفخمة التى أحضرها جودر، وقد أرسل محمود قبل ذلك ألفا ومائتى عبد ، نصفهم من الرجال والآخر من النساء إلى جانب أربعين جملا محملة بالذهب وكمية من الأبنوس والزبد وقطط الزبد . وعدداً من الأشياء الأخرى النادرة والمنتجات الثمينة وكان من بينها فيل كان يثير دهشة أهل مراكش[1] ويبعث سرورهم .

وإذا ما وجدت الدولة الثروة الجديدة مركزة فى يد السلطان وأتباعه ، أنكر على الشعب كل تعويض عن المطالب الثقيلة التى فرضتها الحملة عليهم ، ومخاوف التجار أن تحطم هذه الغزوة تجارتهم قد ثبت صحتها . بالرغم من أن الأعمال قد استؤنفت بمجرد وقف القتال ، ولكن شعر الجميع بخيبة الأمل من جراء فشلهم فى اكتشاف مصادر الذهب ، وظلت ثروة وانجارا كما كانت بعيدة عن أن تنـال . وبالرغم من هذا ومع فيض الثروة الذى ملأ الخزائن تدهورت التجارة المحلية ، ولم يستفد أحد غير التجار الأجانب لأن كل أدوات الترف التى احتاج إليها القصر كانت كلها أجنبية .

فتجار البضائع الأجنبية كانوا غالباً من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ولكن

---

(١) يدين ادخال الطباق إلى مراكش إلى حراس الفيل من الزنوج .

الإنجليز تسووا غيرهم ، وتمتعوا باحتكار التجارة المارة عبر سانتا كروز وراس جير (اجادير) وصافى، بينما أخرج المغاربة البرتغاليين فى سنة ١٥٤١، وأصبح البرتغاليون يتحكمون فقط فى أبواب سبتة وطنجة ومازاغان ، وقد شعروا بمرارة لفقد تجارة جنوب مراكش الغنية،وادعوا أنه فى ظل المرسوم الشهير للبابا اسكندر الرابع كان لهم وحدهم حق الإتجار مع إفريقيا ،فيما هو خارج البحر المتوسط .

وادى هـذا إلى معارضة الإنجليز التى انتهت باتفاقية تالية تنازلت فيها انجلترا عن ادعاءاتها فى غينيا ، حيث كانوا يتجرون منذ منتصف القرن السابق . ولكنهم رفضوا فى إصرار أن يتخلوا عن تجارتهم مع مراكش، وكانت مواد التجارة البريطانية هى ملح البارود والسكر من سوس ، ومن أجل تجهيزهما وجد المنصور أنه من الأفيـد أن يستخدم عمالا مهرة من الإنجليز . وفى خلال الحرب الاهلية التى تلت موت السلطان تدهورت زراعة البنجر كثيراً فكان ذلك على حساب انجلترا . ودخلت انجلترا فى تجارة الذهب . وريش النعام . والنيلة . وشمع العسل . والبلح . والخيول . والصقور . ومع الذهب — الذى كان طبعاً تبراً من السودان — ذهبت كميات من الفضة المراكشية التى كان اليهود المراكشيون يشحنونها إلى لندن لسك نقود الدولة[1] . وكانت البضائع البريطانية الرئيسية التى تشحن إلى مراكش هى الأسلحة وأدوات بناء السفن وللملابس البحرية (وكلاهما كان يستورد من أجل القرصان ولذا أدين هذا العمل من أوربا الكاثوليكية

---

(١) فى عهد الملكة فيكتوريا و فى أوائل أيام جيمس كان الممول الرئيسى للسكة البريطانية هو الذهب الأجنبى الذى استولوا عليه من الأسبان أو استورده التجار . وبعد سنة ١٦١٢ ثبت الملك جيمس من أجل ضمان ربح له من هذه السكة — سعرا أدنى للعملة الأجنبية والسبائك،والأخيرة وصفت بأنها ذهب بربرى .

وكانت تجارة السلاح التى أراد لها كل من اليزابث والسلطان أن تظل سرية ، عبارة عن علاقة شخصية بين الملكين . كما كانت بين اليزابث وعبد الملك — فكانت بمقتضى عقد أقام به المنصور مخزناً كبيراً لإنجلترا، وإلى جانب أنها كانت الدولة الأجنبية الوحيدة التى كان السلطان يدعى صداقتها فهى التى أدت إلى تحطيم الأرمادا الذى صنعه فيليب ملك أسبانيا ، وفى نظره كانت صداقة يجب تحطيمها واستغلالها .

فى سنة ١٦٠٠ وصل سراً إلى لندن موظف كبير فى قصر السلطان وهو السفير الذى أبلغ عنه ادوار رايت ليبيعه آلاته . وأسكنته الملكة هو وحاشيته المكونة من تاجرين ومترجم واثنى عشر خادماً فى بيت رجل عجوز فى المدينة ، وحين تشرفوا بالمقابلة الملكية أدهش السفير الملكة حين ذكر أنه قدم ليقترح أن تقوم هى والمنصور بهجوم مشترك على أسبانيا ، ويستوليا على أملاك فيليب فى الدنيا الجديدة والقديمة ويقتسماها . ولما كانت الملكة تشك فى قدرة الجيش السلطانى على أن يقوم بدوره فى مثل هذه الغزوة ، فقد ذكرها بغزوة المنصور الجديدة لغينيا ذات الستة وثمانين ألف مدينة .

ولما كانت الملكة لا تريد ان تفقد الكميات التى تحصل عليها من ملح البارود ، فإنها أجابت إجابة دبلوماسية أدت بالمغاربة إلى أن يؤملوا أن الوسائل سوف تتخذ لإجابة طلب سيده . ووجدت الملكة أنه من الأسهل عليها أن تبدى الميل إلى السفير ورفاقه من هذا الهدف المضحك . فبالرغم من الموافقة المرهونة والعداوة غير المستترة التى اثارها سلوك المغاربة غير المؤدب ، فإن التخلص من ضيوف الدولة الثقلاء قد استغرق عدة أشهر ، وبمرور الزمن ثارت الشبهات حول قدومهم الذى لم يكن إلا ستاراً لتجسس تجارى .

وكان اليوبرى يستعمل كلمة (الهبة) فى كل أنواع المساعدة التى يقدمها للملكة ولكن رغبته التى كنت تحت ستار رحلتهم العادية ، كانت أن يتعرف كيف كانت تسير التجارة ، وأى ربح كنا نحصل عليه من السكر كى يرفع سعره بما يناسب ذلك الربح .

وبعد أقل من ثلاث سنوات مات المنصور فى سنة ١٦٠٢ (١٠١٠) ودفن فى مقبرة فخمة ربما لا تزال تشاهد فى مراكش، وهو يدين بالظروف الحسنة لإرتقائه العرش ، وترك دولته غارقة فى الديون . وفى خلال حكمه الذى استمر خمساً وعشرين سنة هدد فى خلالها جيرانه المعادون له حدوده اكثر من مرة، ولكنه نجح فى المحافظة على استقلال دولته بل حافظ على الكرامة التى أسبغتها عليها موقعة القصر . بل أدهش أوروبا بالثروة التى كسبتها عملياته من السودان . وإذا كانت جميع مساوىء الحكم الشرقى قد لازمته ، فقد رعى الفنون رعاية غير عادية ، إلى جانب ميله للصناعات الدقيقة فقد كان كبير الإهتمام بالإختراعات العلمية التى ميزته — أكثر من أى شىء آخر عن معاصريه .

وقد رسم أحد الإنجليز وهو رو — بورشاس RO C- Purcbas[1] صورة غير سارة لأخلاق المنصور يقول فيها :

(لم يكن المنصور شديد الاستبداد بالنسبة لشعبه ، ولكنه أخفى قوته الاستبدادية بكثير من الرقة ، — وقد استطاع أن يوفر لنفسه مخازن مملوءة بالذهب بطرق مختلفة ، أولها استمرار حصوله على العشور من

---

(١) يعتقد أن رو بورشاس هذا هو الكابتن روبرت كوفرت Cadtain Robert

القرصان . وثانيها التجارة مع الزنوج ، إذ كان يشترى الملح من تغازه ليبيعه إلى جاو ليحصل على ثمنه ذهباً من هناك . وثالثها الإهتمام بزراعاته الخاصة وخاصة زراعة البنجر ، وقد تجاهلت رعايته للفنانين الأجانب . فمن أجل إعادة بناء قصره فى مراكش استورد الرخام الإيطالى وهو أغلى أنواع الرخام ، ودفع للعمال أجوراً عالية . أما عن توفير المؤونة لسرايه والإحتفاظ بعدد من النساء كما فعل أسلافه من قبل من أجل إظهار عظمته فشيء فاق كل حديث . فإن وسيلة إظهار الثروة والعظمة هنا هى الإكثار من النساء . وكان أكبر سروره هو أن يرى شعبه وقد رقت حاشيته وقللوا من عاداتهم البربرية . وأن تطير الصقور فى أجنحة خفيفة لمطاردة فرائسها .)

وعند وفاة المنصور سدد الأوربيون عيونهم النهمة نحو إفريقيا، كما حدث فى أيام الأمير هنرى منذ قرابة قرنين . كان منظر الذهب الذى ينصب إلى مراكش قد أدار عقولهم نحو إمكان الإستيلاء على مصادر هذه الثروة عن طريق البحر . ولكن أصبح الأمل الآن أقل بعداً ، والذهب كان يصل فى كميات لم يحلم بها من قبل ، ولذا كان المشروع أكثر احتمالا ، فساحل غانة أصبح معروفاً . كما أصبح الداخل معروفاً بفضل المراكز التى أنشأها البرتغاليون فيما بين رأس فردى وخليج بنين ، وأكثر من ذلك كان هناك بعض الذهب يتجه شمالا إلى أوربا من ناحية الساحل ولا سيما حصن سان جورج دى مينا البرتغالى وأستجلب الذهب إلى الساحل ، ولكن لم يكن أحد يعرف مصدره فى الداخل . وكل من كان يظن أن ذهب غانة وذهب مراكش يأتيان من مصدر مشترك وجدوا ما يشجعهم على هذا الظن فى كتابات ليو التى نشرها مارمول كارافاجال[1] فى (وصف إفريقيا) وانتشرت فى أوروبا،ولم يكن لدى العالم من جائزة يقدمها، أكثر من اكتشاف المصدر المخبوء للذهب . وكان ساحل غانة أفضل طريق له . وقد

(١) كان مارمول هذا إسبانيا ولد فى غرناطة وقضى سبع سنين فى إفريقيا رفيقا عند المغاربة .

رفع اقتراح بهذا إلى القصر الملكى فى أسبانيا فى سنة ١٥٩١ . فقد كتب ملشيور بلتونى Melchor Peltony من أرجوين على ساحل الصمغ (كما كان يدعى آن ذاك يقول (إذا أرسل الملك فيليب كل سنة سفينتين أو ثلاثا بقدر مناسب من التجارة، فإن جلالته يمكن أن يوقف المرور هناك ويحرم ملك فاس من هذه الكميه الضخمة من الذهب) وكان بلتونى يتاجر هناك وجد أنه يستطيع أن يحصل على ذهب كثير نظير أشياء تافهة ، ولكن لم يكن هذا النوع من المشاريع ليجذب انتباه فيليب إذا قورن بثورة اراجون والثورة الأخرى الكبيرة التى قامت فى الأراضى الواطئة .)

وقد عرف البريطانيون أكثر من غيرهم — بسبب مركزهم الممتاز فى تجارة مراكش الخارجية — كمية الذهب الهائلة التى تأتى إلى الدولة . وأكثر من ذلك عرفوا أيضا معلومات كثيرة عن تجارة غانة حيث هددوا — ومعهم الفرنسيون — تجارة البرتغال فى الذهب ولذا كان وضعهم أفضل من أى دولة أخرى — ليجمعوا ثم يعودون فيقدرون كل شىء عن تجارة الذهب . ولكن هذا كله لم يكن بكثير ، فمن مراكش أتت نفس القصة التى رواها هيرودوت وبعد موت المنصور وصف رو بورشاس Ro- Purchas كيف تعود المغاربة أن يحملوا ملح تغازة بعيداً إلى الداخل . (إلى نوع من الزنوج المشوهين الذين لم يكونوا يشاهدون مطلقا فى تجارة الذهب مع البرابرة أو أى غرباء آخرين . حيث كانوا يضعون ملحهم فى الحقل ويتركونه ، ثم يأتى هؤلاء الزنوج المشوهون ويضعون أمام كل كوم من الملح قدراً من الذهب يعتقدون أنه يساويه. ثم يعود المغاربة ، فإذا أرضاهم الذهب أخذوه أما إذا لم يرضهم تركوه فهو يزيد من الكومة بمقدار ما يعادل الذهب، وإذا ما عاد الزنوج وأعجبهم مقدار ما تركوا يضعون مزيداً من الذهب،

وغالبا لا يرضيهم لأن المغاربة يودون أن يعودوا إلى سيدهم بذهب كثير وهؤلاء الزنوج المشوهون أحسن الناس فى معاملتهم) .

وهؤلاء الزنوج المشوهون شىء جديد فى القصة ولكنهم — كما سنرى — ليس إلا خيالا من العقل المراكشى . فى سنة ١٦٠٣ اقترح هنرى روبرت، الذى كان ممثلا لشركة مغربية ثم أخيراً ممثلا للملكة اليزابث فى مراكش ، على الملك جيمس الأول أن يقبض على تجارة الذهب بغزو مراكش فكتب (إذا ملكتم جلالتكم هـذه الدولة فانكم تستطيعون أن تذهبوا إلى أقصى ما تريدون، فغينيا غنية فى الذهب والسلع الثمينة الأخرى) .

ولكن الإنجليز لم يفعلوا شيئا فى تجارة الذهب حتى سنة ١٦١٨ حين كون بعض التجار البريطانيين (شركة لأجل بلاد غينيا وبنى (بنين) لغرض كشف تجارة المغاربة الرابحة) .

وظن المخاطرون أن نهر غمبيا أفضل الطرق إلى مناجم الذهب التى كان يظن أنها بالقرب من جاو على نهر النيجر، ولما كان يظن أن السنغال وغمبيا مخرجان للنيجر فقد فكر الرجال فى أن تتبع أحد هذين النهرين من الساحل إلى الداخل يقودهم إلى مناجم الذهب .

وأول سفينة خرجت لهؤلاء المخاطرين هى كاترين التى قادها جورج طومسون الذى كان مهتما جداً بحكم خبرته الطويلة كتاجر سابق فى مراكش ، وربما كان أحـد أفراد عائلة طومسون التى عاشت فى المدينة . حمل أوامر بكشف المنابع العليا لنهر غمبيا على أمل كشف المناجم ، ولكن البعثة فشلت إذ بعد أن وصل إلى إفريقيا قبض البرتغاليون على السفينة

وقطعوا رقاب البحارة، وكان طومسون غائبا فنجا ليعود بعد ذلك بقليل بفضل أحد رجاله .

وأرسل المخاطرون مرة أخرى ريتشارد جونسون Riceard Jousou على (صهيون)، ودخل النهر متوقعا أن يقابل المغاربة القادمين من المغرب فى كل لحظة،ولكن لم يقابل أحداً كما لم يجد مناجم الذهب ، واعتبرت الرحلة فاشلة، وبالرغم من تأكيده عظم هذا الكشف المربح الكبير فإنه صمم على أن يقلع عن هذا العمل .

ولكن الناس ظلوا يعتقدون فى حزم أن غمبيا هى مفتاح سر تجارة الذهب، فبعد أربعين سنة أقلع بيتر موندى Peter Mundy بخمس سفن إلى نهر غمبيا وكان هدفه أن يتكشف من أين يأتى الذهب .

وبدت المسألة حتى هذا الوقت أبعد من أن تحل، وكان هناك كثير من الحقيقة فيما قاله جونسون عن السرية التى كانت تحجب التجارة ، إذ كتب أن المغاربة يزاولون التجارة بحكمة كبيرة إذ لم يكن يسمح لأحد منهم بذكره إلا الرجال ذوى الأهمية ، وكان طبيعياً أن تعانى التجارة عبر الصحراء من فوضى الحكم فى السودان ، ولكن يبدو أنها لم تتوقف تماماً فالرقيق والذهب أصبحا مادتى تجارة الشمال ولم يلبث أن دخل فيها العاج ايضاً[1] وظل الملح أهم مايستورد إلى السودان . ولكن كان معه كثير من الأقمشة الإنجليزية وقد كتب أحد التجار الإنجليز فى سنة ١٦٣٥/٣٦ أن أهل سوس لهم تجارة كبيرة فى البضائع البريطانية المرسلة إلى تمبكتو وجاو والأجزاء الأخرى من غينيا، ومن هناك يحضرون قدراً كبيراً من الذهب بينما

---

(١) كانت تجارة العاج سابقاً تعزى إلى الصحراء الوسطى لأن القاهرة كانت أهم أسواقها .

نتسلم نحن جزءاً كبيراً من بيع بضائعنا وفى سنة ١٦٣٨ كان الذهب لا يزال يشحن إلى انجلترا ولكن — كما ذكر جورج كارتريت George Cartreete قد يعتبرهذا الذهب كنزاً اكثر منه سلعة لأن الكميات القديمة التى كانت تحملها القوافل من جاو ايام مولاى احمد جد هذا الملك قد ضاعت من جراء الاضطرابات التى سادت الدولة وقبل نهاية العام كان احتياطى الذهب فى مراكش يتسرب لأن تجارة جاو فى الذهب قد توقفت .

(١٩)

وانجـــــارا

كان مصدر ذهب غرب إفريقيا سراً مكتوماً تماماً . وطالما بهر المتمدينين زهاء ألفي عام . وفى خلال نصف هذه المدة لم تنجح الجهود التى بذلت فى أن تكشف من أين يأتى هذا الذهب ، وأول من أعطى هذا المصدر اسماً كان الإدريسى فى القرن الثانى عشر، وكانت وانجارا التى قال عنها (مشهورة بسبب كمية ما تنتجه من الذهب ونوعه) وكان فى معلوماته صحيحاً دون ريب، لأنه سرعان ما وجد أن هذا كان من المعلومات الشائعة فى الداخل ولكن المعلومات لم تكن بذات قيمة بسبب أنه لم يكن هناك من يعرف كما لم يكتشف أحد أين كانت وانجارا هذه . وكان هذا معلوماً لفئة قليلة من الوسطاء الذى عملوا على كتمانه عن الدخلاء . وكما رأينا شغلت بالبحث عن وانجارا السفن المسيحية والجيوش المسلحة ، وكما كلف الملوك عروشهم والشعوب حريتها وآلافا من الناس حياتهم . وأخيراً لم يكن أحد منهم أكثر عقلا من الآخرين .

وبالرغم من أن أول إشارة إلى هذه التجارة تلك هى إشارة هيرودوت إلى فتيات سيرونيس وتجارة القرطاجنين الصامتة ، فإنه لم يشر مباشرة إلى مشكلة وانجارا . وكانت واضحة لأنها أظهرت أنه منذ أقدم العصور كان للتجارة ميزتان واضحتان ،صمتها والدور الهام الذى كانت تلعبه النساء . وهما تظهران أيضاً كيف أنه ليس من الذكاء فى شىء أن نتخلى نهائياً عن القصص الكاملة الخيال،حتى وإن كانت أقل القصص احتمالا عن هذه التجارة وأى شىء يظهر واضحا أكثر من القصة المسلية عن الفتيات اللائى يخرجن الذهب من بين ريش الطيور ممزوجا بالبينومين ، ولا شك أن انهماك النساء حتى فى هذه الأيام

السحيقة القدم في حزم تبر الذهب في الريش – كما يفعلن الآن — يثير الخيال بشكل لا يقاوم .

وبعد ألف وخمسمائة عام بدأ مصـدر ذهب غرب إفريقيا يشغل أذهان العرب ولكن في ناحية واحدة هامة لم تكن التجارة هي التجارة ، إذ أنها لهيرودوت كانت تجارة بحرية تماما ، أما للعرب فإنها كانت تجـارة برية جرت بين السودان والمغرب الأقصى . ومع ذلك كانت المساومة الصامته لا تزال أهم ما يميزها ، وظل اعتمادها على النساء كما هو ، فالتجارة البرية أو البحرية رغم مرور ألف وخمسمائة عام كان لها هذا الشيئان المشتركان ، مما يدل على أنهما كانا من أصل واحد ، هو أن كلا منهما كان يجلب تجارته من نفس حقول الذهب، ونحن مازلنا غير راغبين في أن نعرف أيهما كانت كذلك، لأننا لا نملك المفتاح الذى يدلنا على مكان تجارة القرطاجنيين من الساحل، كما لا يعنى قضيتنا الحالية أن نكشف أين كان مصدر هذه التجارة البرية ، وكما قال كل إنسان إنهـا وانجارا وكانت حاجتنا الأولى أن نتحقق من مـكان هـذه الأرض الغامضة .

كان الذهب ويزال يوجد في أجزاء كبيرة من غرب إفريقيا، ولـكن بحثنا عن وانجارا التى تمون عدة بلاد بكميات كبيرة من الذهب قد يشير إلى الأربع مناطق التى تحمل الذهب، وهى التى تعرف أنها كانت منتجة للذهب لمدة طويلة، وهى بامبوك Bambuk التى تقع بين السنغال الأعلى وأنهار فاليمى Faleme وبورى Bure عند ملتقى النيجر الأعلى بفرعه تنكيسو Tinkiso، ولوبى على الفولتا الأعلى، واشانتى فى داخل ساحل الذهب، ولما كانت بامبوك وبورى قريبتين من بعضهما وتفصلها عن بعضهما منطقة يوجد فيها الذهب أيضاً فإنهما يعتبران مكانا واحداً ولذا كان اختيارنا يتأرجح من بامبوك وبورى ولوبى واشانتى .

ودراسة الوثائق المبكرة للتجارة تمكننا أن نضيق اختيارنا أكثر،فاستناداً إلى كتابات المؤلف الوحيد فى القرن الثانى عشر (تحفة الألباب) نقول :

فى رمال تلك الدولة (غانا) يوجد الذهب . كنوز لا يمكن التعبير عنها فيها ذهب كثير،والتجار يستبدلونه بالملح فيأخذون الملح على الجمال من مناجمه ويبدأون من بلدة تسمى سجلماسة ويسافرون فى الصحراء — لكونها بعيدة عن البحر — ومعهم الأدلاء يرشدونهم بالنجوم والصخور،ويأخذون معهم مؤونة تكفيهم ستة أشهر وإذا ما وصلوا غانا يزنون ملحهم ويبيعونه مقابل وحدة معينة من وزن الذهب،وفى بعض الأحيان مقابل ضعفه أو أكثر من وحدة الذهب تبعاً للسوق والكمية)

ويؤكد كاتب أثر آخر ضرورة الملح للتجارة ويكتب ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر (وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر) .

ووانجارا بلد قليل الملح دائماً وظلت كذلك عدة قرون ولكنها لم تكن أيضاً بلداً بعيداً جداً كما يشير غموض كل ما جاورها، كونها جزءاً من غانا لم يكن مؤكداً وإن كان محتملا . وكانت يوماً من الأيام تابعة لمالى لأن سندياتا Sandiata فتحها،ولما حاول أن يحول سكانها حافرى الذهب من الوثنية إلى الإسلام، نكسوا آلاتهم ولم يعد الماندنجو ينتجون ذهباً وهذا دليل على أن وانجارا لا تقع جنوب السفانا السودانى إذ بينما غانا ومالى امتدتا شمالا إلى الصحراء وغرباً نحو الأطلنطى، لم تحاول أحداهما اختراق حزام الغابات الكثيفة الذى يفصل السافانا عن غابات المطر الساحلى فى الجنوب وأكثر من ذلك قال ياقوت أن حقول الذهب كانت على مسيرة عشرين يوما فقط من كومبى عاصمة غانا .

وقلة الملح فى وانجارا والدول القريبة نسبيا من أسواق السودان

الكثيرة يظهر بوضوح أنها لم تكن أشانتى،فمناجم الذهب هناك قريبة جداً من الساحل إلى حد لا يجعل الحصول على الملح مشكلة صعبة[1] . وكونها فى قلب غابة صعبة الاختراق يجعلها بعيدة جداً عن السودان وقريبة من الشمال ، وبالرغم من ذلك فكر المستكشف الفرنسي جوزيف دبوى فى سنة ١٨٢٤ شيئا آخر . إذ ظن ان إشانتى ومعها شريط ساحلى ضيق يجرى إلى شرقها أنهاواتجارا الوحيدة المعروفة لأهالى شمال افريقيا ، ويبدو انه من المدهش اننا قد استعمرنا فعلا هذه الدول عدة عصور فى الماضى دون أن نعرفها بالإسم،ولاشك أنه كان مخطئاً . ولم يعد أمامنا الآن سوى أن نميل إلى الناحية الأخرى وهى بامبوك — بورى ولوبى،فنى بداية القرن العشرين قبل أن يمس هذين المكانين أحد من الأوربيين كان لتجار الشاطىء أن يحصلوا على ملحهم من بعيد فى الصحراء من تاودينى وسكه عجيل . Sabka d,Igil وكلاهما كان علىمقربة من أسواق الذهب الرئيسية للزنوج، حيث تعود تجار المغرب أن يجتمعوا فى الأيام الماضية ، ولكن الفائدة تكمن فى بامبوك — بورى التى هى أقرب إلى كومبى القديمة وأسهل وصولا من لوبى إلى جنى وتمبكتو ، والفضل فى ذلك للنيجر . فنى وقت من الأوقات يحتمل إن كانت كلا من بامبوك وبورى خاضعتين لغانا، ومن المؤكد إنهما خضعتا لمالى، أما لوبى فإنها لم تخضع لأيهما . وإن بامبوك وبورى على خلاف لوبى كانا

---

(١) وأنه لم يكن قريباً إلى حدأن الوسطاء الحاسدون يستطيعون أن يتكروا الوصول إلى المناجم على التجار الأوروبيين الذين يعيشون على الساحل،فقد كتب وليم بوسمان فى نهاية القرن السابع عشر أن الأوروبيين الذين يعتقدون أن مناجم الذهب فى قدرتهم لبسو القليلين ونحن كالأسبان فى الهند الغربية ليس لنا أكثر من أن نعمل برقيقنا فبالرغم من أننا نعلم جيداً أن ليس لدينا الوسائل للوصول إلى هذه الكنوز كما لا أعتقد أن أحداً من شعبنا قد رآها من قبل فإننا نستطيع أن نصدق بسهولة حين يخبرنا أحد أن الزنوج ينظرون إليه كسر مقدس ويأخذون أكبر الحيطة ليبعدونا عنها.

غالبا جزءاً من دولة ماندنجو وهذا ظاهر . ووانجارا إلى جانب كونها اسماً لدولة — كانت اسماً عرف به شعب الماندنجو، وخاصة فرعا السوننكى والجاولا Jaula اللذان كان معروفين فى السودان الغربى . ففى المغرب وأوروبا كانت تجارة الذهب مقرونة بالماندنجو ، خاصة اللذين كانت ثروتهم مضرب المثل، فقد كتب بورشاس أنه لم يكن هناك دولة فى العالم أغنى فى الذهب والفضة من مملكة الماندنجو ، وقبل ذلك فى القرن الرابع عشر أشار إبراهام كرسك فى خريطته، إلى رحلة قام بها جيمى فرير Jaime Farrer طلبا لساحل الذهب ومملكة ماندنجو وذهبها .

وأقدم ما لدينا عن وانجارا ما ذكره الإدريسى بإيجاز عن وصفها، والتى قال فيها أنها جزيرة تبلغ ثلاثمائة ميلا طولا فى مائة وخمسين عرضا، يحيطها ماء النيل (النيل كما ذكره الإدريسى يسير من الشرق إلى الغرب مما يقطع أنه السنغال) ويغمرها الماء أغلب أيام السنة . ولكن عندما ينحسر الماء عن الزنوج ينتقلون إلى جمع الذهب فيتركونه وراءهم ويبقون هناك حتى يعود الماء إلى الارتفاع .)

ولم يكتب الإدريسى بنفس الثقة التى كتب بها ابن بطوطة وليو الأفريقى ، لأنه لم ير الممالك التى وصفها وبالرغم من هذا كان قد أنبىء جيداً ولكنه حين وصف وانجارا كانت معلوماته عنها ناقصة ، وإذا صح أن وانجارا هى مناجم ذهب بامبوك وبورى، فهذه المناجم ليست فى جزيرة ولكن البلد الذى تقع فيه تحوطها الأنهار ففى الشمال يوجد السنغال ، وفى الغرب يوجد فاليمى وفى الشرق يوجد النيجر وفى الجنوب يوحد تنكيسو الذى يقترب إلى حد أن يصبح واحدا ، وما زال العمل يجرى فى مناجم الذهب بنظام بين انحسار الفيضان وارتفاعه . أى من يناير إلى مايو تماماً كما وصف الإدريسى وأخيراً ما زال جزء من هذه الدولة يسمى جانجارا Gangara أو Gbangara أو

Cangaram أو Cwangara . وتؤكد بامبوك بورى أيضا ما ذكره لنـا الكتاب الآخرون عن التجارة،إذ ما زال السنغال يوفى كل مطالب النهر الذى كان مسرح التجارة الصامتة،وما زال النساء يحصلن على الذهب من الحفر التى يمكن أن تكون نفس الحفر التى ذكر ياقوت عمالها يعيشون فيها[١] ولكن لم تعد تجرى تلك التجارة الصامتة التى وصفها المسعودى قبل الإدريسى بوقت طويل،ولكن يبدو أنها استمرت حتى القرن الثامن عشر .

وفى كل هذه المناسبات لا يوجد مكان للشك فى أن بامبوك وبورى معا كونا وانجارا التى عرفها الجغرافيون العرب — وكذلك لوبى أيضا لها ماتستندعليه من ادعاءات لتعتبر كذلك.،هى ادعاءات لا يمكن استبعادها بسهولة، ويجب أن نذكر أن كاداموستو Cadamosto كان أكثر نجاحاً من أى قائد من قواد الأمير هنرى فى الحصول على معلومات من الأهالى ، وليس هناك من مثال أفضل من ذلك عن قصته عن تجارة الذهب فهو يخبرنا عن قوافل الملح التى تخرج من تغازه وتسافر جنوبا إلى تمبكتو فمالى حيث ينقل الذهب من ظهور الجمال إلى رءوس الرجال لأن المرعى لم يكن ملائما للحيوان . وليس هناك هذا الحيوان لأنها تموت كلها . وفى مالى تكسر ألواح الملح إلى قطع صغيرة . ويحمل كل رجل قطعة وحينئذ يكون الرجال جيشا كثيفا يسير على أقدامه وينقلونه إلى مسافات بعيدة . حتى يصلوا ماء وإذا

---

(١) أدى العمل الموسمى فى هذا المذهب القيصى — الذى كان ولا شك كثيراً فى بداية الفصل عنه فى نهاية الفصل السابق — إلى ظهور اعتقادات خاطئة منها أن الذهب — كما يقول ياقوت — ينمو فى رمل وانجارا مثل الجزر،واعتقاد آخر أنه ينمو كالمرجان،وثالث أنه ينتقل بطريقة غامضة تحت الأرض . ورابع هو القصة المشهورة عن ذهب وجد فى أعشاش النمل الذى (كما يذكر المؤلف الوحيد لـكتاب Librodel Conoscimiento) كان فى حجم القط وهذا النمل يظهر فى القرن الثالث عشر على خريطة هرفورد Herford الشهيرة .

ما وصلوا ومعهم الملح إلى الماء يتقدمون بهذه الطريقة ويكوم كل رجل ملحة على مجداف بعد أن يضع علامة عليه، ثم يتراجع جميع الرجال قرابة نصف ميل، ويأتى آخرون من الزنوج الذين لا يرغبون فى أن يرام أحد أو يكلمهم أحد ، وهم يصلون فى قوارب كبيرة يبدو منها انهم قادمون من جزيرة ، وإذا ما رأوا الملح يضعون قدراً من الذهب أمام كل كوم ويعودون أدراجهم تاركين الذهب والملح . وهكذا تجرى القصة كما وصفها هيرودوت ثم من بعده .

وبهذه الطريقة — يذكر — وفقا للعاده القديمة الطويلة — يزاولون تجارتهم دون أن يتكلموا أو يروا بعضهم أو يكلمون بعضهم، وبالرغم من أنه من الصعب تصديق ذلك ، فأنا أستطيع أن أشهد إنى حصلت على هذه المعلومات من تجار كثيرين من العرب أو الازنغاى (صنهاجة) وكذلك من أشخاص يمكن أن يوثق بهم .

وتختلف قصة كاداموستو عن الأخرى فى شىء واحد ، فالتجارة الصامته لم تحدث فى مناجم الذهب بل فى مكان كان الذهب يحمل إليه فى قوارب، ويقع فى منطقة التسى تسى ، ولكن هذه ليست بذات بال ، لأن كلا من بامبوك وبورى تقع فى منطقة الذبابة ويحمل الذهب من أيهما فى قوارب .

ويستمر كاداموستو فيصف ظهور المنقبين اللامعين عن الذهب استناداً إلى قصة ذكرها بعض الماندنجو الذين اصطاد أربعة منهم غدراً .

(وهم فاحمو السواد ، ذوو اجسام حسنة البنيان، وإليه كبيرة ، والشفه العليا حمراء تتدلى إلى اكثر من بضعة بوصات ، وهم يعلقونها على صدورهم فيبدو باطنها لامعا كالدم ، وقد ظننا ان شفاهم قد فسدت بسبب ان بلدهم احر من بلادنا) .

وبعد ذلك بما يقرب من قرنين، عاد آوروبى اخر هو ريتشار جونسون من غرب إفريقيا بقصة مشابهة ، فقد سار مع نهر غمبيا دون ان يكشف عن شيء هام ، لكنه عاد بنظرية جديدة عن التجارة الصامته مع شعب غير منظور إذ كتب يقول :

(وسبب ان هؤلاء الناس لايرون لأنهم ولدوا وشفتهم السفلى كبيرة جداً إلى حد ان تنقلب فتغطى الجزء الأكبر من صدرهم ، وتظل كذلك حتى إذا اتى الحر اللامح تعرضت للالتهاب والفساد ، حتى لم تعد لهم وسيلة للمحافظة عليها إلا بترطيبها بصفة دائمة بالملح ولهذا السبب يعتبر الملح ثمينا عندهم وبلدهم بعيد جداً فى الارض التى لا يعيش فيها أحد .)

وتشابه القصتين قريب جداً إلى حد ان احتمال تصديق الرجل الإنجليزى لقصة البندقى لا يستبعد،وكلاهما يشير إلى استعمال الشفة،وهو احد الأشكال المختلفة لما يلبسه النساء كثيراً فى داخل إفريقيا ، واتساع الشفة فى بعض الأحيان كبير حتى انه فى بعض الاحتفالات ترفع وتعلق تحت الذقن كما وصف كاداموستو وجونسون[1] والآن لا توجد هذه الشفاة فى بامبوك او بورى،ولكنها مازالت تستعمل فى لوبى ، وتلبسها النساء فى قبائل بيريتور Biritor ولوبى . وقد أدى هذا بالبعض لأن يذكروا أن مناجم الذهب التى وصفها كل من كاداموستو وجونسون كانت فى لوبى وأن لوبى تحب ان تكون هى وانجارا ، وهذه الحجة ليس من السهل دحضها . فقبل ان تستقر القبائل الإفريقية ايام الإدارة الأوروبية فكثرت هجراتها بسبب الولاء السياسى أو الاقتصادى فمن الخطر أن نحاول ترجمة الماضى فى عبارات

---

(١) فى المتحف البريطانى شفتان مأخوذتان من شفتى امرأة من قبيلة سارا فى تشاد وحجمها ١ر٥ ر٩١ر٦ بوصة تقريباً (من خطاب من مستر فاج Fagg فى المتحف البريطانى إلى المؤلف .

الحاضر، وليس من الحكمة ان نظن ان ما يمارس الآن كان يمارس فى الماضى. ففى لوبى مثلا بينما يبدو ان اللوبى مازالوا فى مواطنهم الحالية منذ القرن الرابع عشر، نجد جيرانهم البيريقور لم يصلوا إلى اماكنهم حتى القرن التاسع عشر، فليس من الحكمة إذن ان نظن ان الشفة كانت تستعمل فى لوبى وانها لم تستعمل قط فى بامبوك وبورى، وخاصة انها وجدت كثيراً فى منطقة تمتد عبر إفريقيا من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى، كما مورست بواسطة قبائل انتقلت بعيداً كما فى لوبى غينيا القريبة ومادى موزمبيق.

ولما كان كاداموستو لم يبحر إلى أبعد من ريو جراندى Rio Grandi وجونسون إلى نهر جمبيا فقط، فمن المستبعد أن يكون أحدهما قد سمع عن لوبى كما أن من المحتمل أن يكون كلاهما قد سمع عن مناجم الذهب فى بامبوك وبورى ويظن أن استعمال الشفة الإسطوانية فى الأقاليم الأخيرة فى أيامهم يبدو تدخلا عادلا أن نرسم صورة لما كتبوا.

وبالرغم من هذا فهناك من الأسباب الوجيهة ما يجعلنا نظن أن التجارة الصحراوية أخذت من لوبى بعض ذهبها الذى كان أبعد مما تشهد فى وانجارا.

ويرتبط كثيراً بأعمال الذهب فى لوبى كثير من الأبنية الحجرية المخالفة لأى شىء وجد فى أى مكان فى غرب إفريقيا، وكذلك أعمال الناس أقل بدائية من أعمال السكان الحاليين، ومعرفة بناة هذه الابنية مشكلة لا يلقى حلها ضوءاً جديداً على الأيام الأولى لتجارة الذهب. ومهما كان هؤلاء فهم ولاشك كانوا منتجين مهمين للذهب الذى لابد أنهم باعوه إلى أسواق السودان أكثر ما باعوه على الشاطىء. إذ يقع بينهم وبين الشاطىء حزام غابى لا يخترق، وفى قلب الغابة توجد حقول ذهب الأشانتى التى تكفى مطالب سكان الشاطىء.

وهنا يجب أن نتذكر أن ليو قال : أن الذهب كان فى بعض الأحيان كثيراً فى جاو ، إلى حد أن التجار كانوا يعودون إلى أوطانهم بثلث أو نصف ما حملوه إلى السوق. فهل كان هذا الذهب يأتى من بامبوك أو لورى ، لابد أنه حمل بواسطة النيجر عن طريق تجار من تمبكتو أو جنى وهى أسواق هامة يجب أن لا تهمل . وهؤلاء التجار عرفوا أعمالهم وعرفوا أن لا يغمروا أسواق جاو إلى حد الاضرار بمصالحهم ، فلابد أن التجار الجاهلين إلى حد أن يعملوا ذلك ، لابد أن يكونوا قد قدموا من مكان آخر . ويمكن أن يكون من لوبى البعيدة وكما نعلم هى مصدر هذا الذهب المحمول إلى جاو .

ومن الواضح إذن أن تجارة عبر الصحراء قد سحبت ذهبها من حقول كل من بامبوك — جورى — ولوبى . ونحن لا نعرف أيهما كان أكثر أهمية ولكن هذا لا يعنى كثيراً . وإن كان هناك مكان لبعض الشك فى أن الأولى هى وانجارا التى ذكرها جغرافيو العرب ويمكن أن تكون لوبى هى وانجارا فى الأيام المتأخرة .

ولكن الجغرافيين فى بحثهم عن وانجارا الحقيقية ، يذهبون إلى ما هو أبعد من مياه السنغال الأعلى والنيجر والفولتا ، وكان ذكر ليو لوانجارا فى الهوسا هو الذى أدى إلى اضطرابات جملة أجيال من راسمى الخرائط ، إذ كتب الأخير (جوانجارا التى تتصل من الجنوب الشرقى بزانفارا مزدحمة بالسكان ، ولها ملك يحكمها وله حامية تبلغ سبعة آلاف من حملة الأقواس وخمسمائة فارس ، ويحصل سنوياً على ضرائب كثيرة) . وقد يعنى هذا أن وانجارا تقع إلى الجنوب الشرقى من زامفارا أو أن زانفارا تقع إلى الجنوب الشرقى من وانجارا ، وقد أدى هذا إلى اضطراب راسمى الخرائط فنطقها بعضهم بطريقة ونطقها الآخرون بأخرى ولكنهم جميعاً — حتى نهاية القرن الثامن عشر — وضعوا وانجارا فى الهوسا إلى الشرق من مكانها ببضعة مئات من



شكل ٦ — إمارات الهوسا

الأميال . وعلى ذلك يزيدون من الضباب الذى يغلف السر الذى غلف الحقيقة[1] .

ولكن ليو كان عنده أكثر من ذلك ليقوله عن وانجارا إذ قال : (والسكان أثرياء جداً وهم على اتصال مستمر مع من يجاورهم . فإلى الجنوب تقع منطقة تذخر بالذهب ولذا كثيراً ما يسافر تجار وانجارا إلى المنطقة المذكورة الذاخرة بالذهب لأن الطرق وعرة وصعبة إلى حد أن جمالهم لا تستطيع أن تصل إليها فكانوا يحملون تجارتهم على ظهور العبيد) .

وتأكيد ليو لثروة وانجارا يظهر أنه ظن أنه يصف وانجارا التى ذكرها الإدريسى . ولكن هناك فرق ، فبينما كانت الأخيرة منتجة للذهب فإن وانجارا ليو كانت تحصل عليه من أرض أخرى إلى الجنوب فى بلد (الذباب) كما ذكر آخرون .

ولما كان ليو قد قدم من الغرب حيث رأى قدراً كبيراً من تجارة الذهب ،فوضعه لوانجارا حيث وضعها يثير الدهشة إلى حد كبير . فمن الخطأ أن يظن أنه نشأ من المعنى المزدوج لإسم وانجارا إذ كانت تطلق على الأرض والشعب.وفى الهوسا كانت هناك أماكن استقر فيها الماندنجو الذين كانوا يعرفون محلياً اسم وانجارا أو وانجاراوا . وفى القرن التاسع عشر — استناداً إلى بارت — كانوا التجار الرئيسيين لكاتسينا ، وهى ليست بعيدة عن زامفارا وربما كانوا أيام ليو شعباً هاما . وبينما كان ليو فى زامفارا ربما كان قد سمع عن الأماكن التى استقر فيها الوانجارا او الماندنجو فى

---

(١) حين خطط منجوبارك رحلته الأخيرة إلى النيجر انتظر أن يمر خلال نوب وكاتسينا قبل أن يصل إلى ونجارا وقد وضع مستر ريتر Retter واوزيل Gelzel على خريطتهم فى سنة ١٨٢٢ وانجارا مكان دلتا النيجر الحالية .

مكان ما إلى الجنوب الشرقى[1] وكانوا يتجرون فى الذهب الذى كان يوجد فى أماكن قريبة منهم وخاصة بالقرب من جوارى[2] . وربما ادى به هذا إلى ان يظن انه كان إلى جوار وانجارا التى ذكرها الإدريسى[3] .

وفى منتصف القرن السادس عشر كانت مشكلة حقيقة وانجارا على وشك أن تحل . ففى سنة ١٥٥٠ نجح بعض البرتغاليين فى الوصول إلى بامبوك ومناجم الذهب التى كانت تنتجه ولكن لم يعد أحد منهم ليروى لنا عما وجده .

وعندما اكتشف منجو بارك — فى بداية القرن التاسع عشر — حقول الذهب فى النيجر الأعلى وبعد بضعة سنين اكتشفت المنطقه بواسطة رينيه كاييه René Caillié لم يشر أحد منهما إلى أن وانجارا التاريخية كانت تقع هنا وهى التى بحث عنها الرجال فى اصرار لعدة قرون ماضية . وربما كان هذا بسبب انه فى هذا الوقت كانت حقول الذهب اقرب إلى

---

(١) من الناحيه أخرى كانت جوانجارا التى تقع فى الهوسا اسماً شائعاً لمكان فى شمال غرب الهوسا ، وقد ذكر كل من سير ريتشموند بالمر Sir Richmond Palmer وداتيل Danuel للمؤلف أن جوانجارا التى ذكرها ايو ربما كانت فى منطقة بحيرة كاتسينا شمال غرب زاريا .

(٢) اعتاد الزعماء المحليون حتى القرن العشرين أن يجعلوا نساءهم يغسلون الذهب فى ماء النهر حول جوارى .

(٣) فى مذكرات عن النتائج العلمية لاكتشافات منجوبارك للنيجر صرح جيمس رنل James Rennéll أن النيجر ينتهى إلى بحيرة فى الربع الشرقى من أفريقيا . وهذه البحيرات يبدو أنها تقع فى وانجارا وغانا . وهى ممالك يظن أنها تصرف فى شمال أفريقيا وهذه الخاتمة المدهشة التى وجدت قبولا واسعاً نشأت من اعتقاد راثل فى أن وانجارا التى ذكرها الإدريسى وليو كانتا شيئاً واحداً وأن مدينة كاتو التى فى الهوسا هى غانا القديمة .

ان تستنفذ، فقل إنتاجها[1] وبذلك انتهت أيضا التجارة الصامتة التى لا بد أنها افتت نظرهم .

وفى نفس الوقت ظـل المستكشفون والجغرافيون يتناقشون حول حقيقه وانجارا أو مكانها . فليون الذى لم يبتعد عن فزان فى محاولته الوصول إلى السودان عن طريق طرابلس سأل عنها . وما عرفه من المعلومات يظهر كيف كان سهلا عليه لأن يضلل بسبب انتشار الإسم، وكيف ان النـاس فى قلب الصحراء حتى القرن التاسع عشر ظلوا يقرنون وانجارا بتجارة الذهب الصامتة فهو يذكر لنا ان (وانجارا مكان لم نستطع بعد ان نحصل على معلومات اكيدة عنه . وعلى العموم يظن انه مكان منخفض يغمر بالمـاء فى بعض الأوقات . ويقول شخص انها على مسـيرة عشرين يوما جنوب تمبكتو وهناك من يصفها جنوب كاشنا Kachna (كاتسينا)، وكثيرون آخرون يؤكدون انها خلف واداى ، ولكن القصص المختلفة التى رويت عنها تجعل من المستحيل أن نكون أى فكرة عن موقعها الحقيقى ، أو عن وجودها

---

(١) فى بداية القرن التاسع عشر وجد جاكسون مازال يصنب إلى مراكش فى حرية . وما زال يعرف باسم ذهب وانجارا ويذكر (خواتم وانجارا الذهبية التوأمية) (وقصة امبراطورية مراكش لندن ١٨١٤ ص ٢٩٠) . وأخيراً أشار إلى فاتورة مؤرخة بسنة ١٧٩٠ مرسلة من تمبكتو إلى تاجر فى فاس تضمنت ..٥ جلدا مملوءة من تبر وانجارا و ١٠٠ سبيكة ذهب وانجارى . قضبان من ذهب وانجارا (قصص تمبكتو الهوسا لندن سنة ١٨٢. ص ٣٤٧) واستناداً إلى روانس كانت التجارة ذات أهمية يسيرة حتى منتصف القرن ومازال الذهب يغسل من المرتفعات بواسطة نهر فاليمى وافرعها وقد انهكت حفائره وبعد أربع سنين من التوقف عادت إلى الانتاج من جديد وبالرغم من هذا فشلت الجهود القليلة التى بذلت لاستغلالها وهناك عقبة ليست سهلة هى الحاجة إلى تحديد العمل بأربع شهور فى العام بسبب الفيضان الموسمى

والحق ان هناك ثلاثة اماكن تحمل هذا الإسم . اليس من المحتمل ان يكون هذا اسما عاما لستنقعات تقع وراء تمبكتو ؟ ويقال ان عاصمتها باتاجو Battageo وهى بلدة كبيرة ، كما يقال ايضا ان الذهب يوجد بالقرب منها استناداً إلى تحرياتنا ويسكن إلى القرب منها شعب غير منظور يقال أنهم يتاجرون ليلا . وهؤلاء الذين يقدمون للقيام بتجارة ذهبهم يضعون بضاعتهم فى اكوام ثم يتراجعون ، وفى الصباح يجدون كمية كبيرة من تبر الذهب قد وضعت امام كل كوم وإذا رأوه كافيا يتركون البضاعة ويأخذون الذهب . أما إذا لم يكن كذلك فيتركونهما معا حتى يضاف إليه مزيد من التبر الخام ويظن ان تجار الذهب هؤلاء شياطين مغرمون بالأقمشة الحمراء لأنها كانت أهم مواد المبادلة .

وبعد عدة سنين أدت تحريات مشابهة قام بها المستكشف الميجور ديكسون دنهام إلى هذه النتيجة النهائية . وكل ممالك الذهب ككل الناس القادمين من بلاد الذهب يحملون اسم الوانجارا .

(٢٠)

النيـــجر

منذ بداية القرن السادس عشر حتى نهاية الثامن عشر لم يقدم راسمو الخرائط مادة جديدة يزودون بها خرائطهم، ونادراً ما تمر سنة دون أن يحدث تقدم ما فى المعلومات الجغرافية، ولذا لم يكن هناك من عصر شهد علم رسم الخرائط تقدما أكبر من هذا العصر. وفى خلال الثلاثة قرون التى تلت رحلات ليو الإفريقى، لم تحدث منافسات ذات بال إلى خريطة داخل شمال إفريقيا. فدانفى D'Anville فى القرن الثامن عشر اعتمد على ليو كما اعتمد أوريليوس Ortelius فى القرن السادس عشر. وفى خلال هذه المدة لم يحدث أن وجد أحد يوافق أو يعارض عبارة ليو فى أن النيجر يتجه إلى الغرب، وقد أظهر أوريليوس النهر ينبع بالقرب من خط الإستواء من بحيرة النيجر ويتجه شمالا لقرابة ستين ميلا تحت الأرض حتى بحيرة برنو (بحيرة تشاد) ثم ينحرف إلى الغرب خلال بحيرة خيالية سماها بحيرة جوبر Guber ثم ينطلق إلى المحيط الأطلنطى حيث يصب بدلتا كبيرة، يكون نهرا السنغال والجمبيا فرعين رئيسيين منها. هذا بينما أظهر دانفى أنه ينبع من بحيرة تشاد (بحيرة برنو) ويسير غربا حتى وراء تمبكتو تماما وينتهى فجأة بالقرب من بحيرة غامضة سماها بحيرة مابريا Maberi التى ظن أنها منبع السنغال. وبين أوريليوس ودانفى كان التغيير الوحيد المادى هو ظهور شخصية نهر السنغال بينما كان النيجر أبعد الانهار عن الحقيقة.

ويعزى سبب بقاء راسمى الخرائط طول هذه المدة فى جهل جزئى بداخل إفريقيا إلى ابتعاد أوربا، فمنذ عصر الكشوف الجغرافية فى القرن

الخامس عشر. نشأ حاجز هو ثروة الأمريكتين والشرق التى بهرت أفكار الأوربيين فأفقد إفريقيا قوة جذبها. فالنهم الإنسانى الذى هو أعدى أعداء الكشوف الجغرافية لم يعد يتطلع نحو إفريقيا، ووجد الرجل العادى القارات الأخرى أشد جذبا لخياله. فرغم أن تجارة الذهب أخذت فى التضاؤل، ظل الأوربيون يتاجرون مع الساحل البربرى، وعلى نطاق أوسع مع ساحل غانة. ومع ذلك لم يختف الإهتمام بالداخل المظلم. ويعزى جهل الجغرافيا أساسا إلى فشل التجار الأوربيين فى أن يخترقوا الأرض سواء من موانى الشمال أو من الساحل الجنوبى.

ففى الشمال، بالرغم من تضاؤل تجارة الذهب استمر خوف الأوربيين من تحول الوسطاء المحليين، كما أنكر عليه أن يتخذ له مواضع أقدام فى الظهير، ولكن اختراق الداخل كان أشد صعوبة له، عن طريق تغيير مادى فى العلاقة السياسية بين أوربا والولايات البربرية.

ففى خلال العصور الوسطى كانت القرصنة الإسلامية والمسيحية هى الحالة السائدة فى الحياة الملاحية فى البحر المتوسط، ولكنها — كما رأينا — لم تكن لتعوق التجارة. ففى بداية القرن السادس عشر أنتهى عصر التسلح المشترك بسبب طرد العرب من أسبانيا وظهور الأتراك العثمانيين كقوة بحرية فى فى المياه الأوربية، واتخذ العرب المطرودون مواطن استقرار على طول الساحل الشمالى لإفريقيا، حيث بدأوا ينتقمون لأنفسهم بالإغارة على شواطىء أسبانيا، واقلاق السفن المسيحية وخاصة فى مضيق جبل طارق وممر مالطة، وهيأ لهم الشاطىء الإفريقى بخلجانه الكثيرة وانكساراته ما يفى بغرضهم، ونجحوا فى هدفهم بل وأكثر من ذلك فى مساعدة الأتراك الذين أصبحوا فى سرعة الشركاء السائدين فيما سمى فيما بعد بالمحنة المسيحية بفضل قيادة

اخوان برروسا المشهورين، وفى خلال بضعة سنين أصبح لكل ميناء فيما بين جربه فى الشرق وسالى فى الغرب أسطولها الخاص بالقرصان .

وفى خلال القرون الثلاثة التالية نجح أمراء القرصان فى إيقاع الإضطراب بكل تجارة البحر المتوسط ، وفى الإغارة على شواطىء أوروبا وفى استرقاق مئات الألوف من المسيحيين فى حرية تامة ، ولما لم تكن القوة الأوروبية بقادرة على تجميع نفسها والوقوف فى وجه الخطر المشترك ، فقد قنعوا بطلب الامان لسفنهم وإطلاق سراح مواطنيهم بدفع الجزية والفدية إلى القرصان بل بعثوا بممثليهم الدبلوماسيين إلى القصور الإفريقية لتنظيم هذه الأمور، ولضمان إطلاق سراح آلاف الرقيق من المسيحيين الذين تحملوا ذل تسيير السفن الإسلامية ،أو فقدوا قوتهم داخل الحمامات . ومن الطبيعى أن تعانى التجارة من جراء ذلك فى الوقت الذى لم ينكر على المغاربة حقهم فى البضائع الأوربية المصنوعة حين طلبوها .

وفى القرن السابع عشر كان استبدال الغليونات المربعة ذات الأشرعة الكبيرة بالسفن الصغيرة سبباً فى أن ينفتح أمام القرصان حقل واسع لغاراتهم، وساعدهم فى مغامراتهم البعيدة بعض رجال البحر من الإنجليز الذين استبعدوا حين انتهت أيام اليزابث العاصفة ، وأتى حكم جيمس الأول السلمى فلم يكن أمامهم إلا أن يعرضوا خدماتهم على القرصان لينقذوا أنفسهم من الموت جوعا . وإذا ما جهز القرصان بمراكب أفضل وبملاحين أكثر خبرة بدأوا يغيرون على شواطىء بريطانيا والدانمرك وإيسلنده . وفى أيام شارل الثانى استولى قرصان سالى على جزيرة لندى Lundy واقشعر أهل كورك Cork حين دوت أصوات المؤذنين فى مياه موانيهم الهادئة .

وبنمو القوة البحرية الأوربية قصر القرصان غاراتهم على مياه البحر المتوسط، وهناك ظلوا تهديداً قاسياً حتى ختام الحروب النابليونية . حين اتفقت الدول فى مؤتمر فينا على أن يوحدوا جهودهم ضد العدو المشترك ، وعلى شاطىء غانه كان الموقف أكثر صعوبة للأوروبيين ،ففشلهم فى كشف الداخل لم يكن يعزى إلى العقبات الطبيعية القوية والأنهار غير الصالحة للملاحة والغابات التى يصعب اختراقها والجو المميت ، بقدر ما تسبب عن العلاقة السيئة التى نشبت بين التجار البيض وسكان الشاطىء ،وفيما بين كشفهم لطريق الرأس وفقدهم إستقلالهم بواسطة أسبانيا ، كرس البرتغاليون جل نشاطهم وعملهم لاستغلال الهند ، حيث كانت انتصاراتهم أكثر ظهوراً ولمعانا ، رغم قصر عمره عن إفريقيا . وبالرغم من انهم اعتبروا الأخيرة (إفريقيا) كاستراحة فى منتصف الطريق إلى الهند ، فقد كانوا موضع الحسد من غيرهم ،لإدعائهم احتكار تجارة ساحل غانة لاسيما وقد أصبح هذا المكان مورداً للرقيق الذى يبعثون به إلى الهند الغربية ، وبموافقة الغرب فتح سوق للرقيق فى لشبونة وفى سنة ١٥٣٧ ، وتبادل هـذا السوق عدداً من الزنوج يتراوح بين عشرة آلاف واثنى عشر ألفا صـدروا إلى أمريكا عبر المحيط الأطلنطى .

وكان إهمال البرتغاليين لمواد تجارية هامة كالذهب والعاج والصمغ هو الذى جذب المنافسين من البريطانيين والفرنسيين ، ثم الهولنديين بعد أن تحرروا من حكم الأسبان . فدخلوا الحقل ، وقبل أن يمر وقت طويل أصبحوا سادته وشهد الساحل نشاطا كبيراً فى مجال المنافسة الدولية . ونمت الحصون التى بنيت لتكون سجونا للرقيق ولحماية القادمين من مذابح القبائل الإفريقية الغاضبة ، ولم تلبث أن تطورت حتى غدت قلاعا صممت بهدف مقاومة هجمات الأوربيين المنافسين ، وما فعله بربروسا للقرصنة فى

شمال إفريقيا فعله هوكنس Hawkineses بلايموت بعد ذلك فى نفس القرن لتجارة الرقيق فى غرب إفريقيا ، فقد تبينوا مقدار الأرباح الهائلة التى يمكن أن تزداد عن طريق التنظيم الدقيق وطرق العمل وكان هذا سبباً من أسباب شعبية التجارة ، وأعاد جون الابن تنظيم الحركة عبر الأطلنطى وخدم حاجات الأسبان المستوطنين فى الهند الغربية بكفاية لم يصل إليها الآخرون . وفى منتصف القرن الثامن عشر قدر عدد الزنوج الذين وصلوا أمريكا بمليون . وفى خلال القرن أرسلت إفريقيا مالا يقل عن ستة ملايين من الرقيق ، وعندما بدأت الحركة تضرب شعور الأوربيين حول نهاية القرن هبط عدد الرقيق المصدر إلى مائتى ألف .

وقد اعتمد تجار الرقيق على زعماء الساحل ليمدوهم بالأعداد التى يطلبونها ، وقد حصل عليه هؤلاء الزعماء من الداخل الذى كان على الدوام ميداناً لحروب الصراع القبلى ، وعندما بدأ المستكشفون الكبار فى السنين الأخيرة يشقون طريقهم إلى الداخل اكتشفوا أن طلب الرقيق على الشاطىء مازال ملحاً ، إلى حد أن القبائل التى تعيش على بعد مئات من الأميال من البحر كانت دائماً معرضة للغارات من أجل المحافظة على كميه الرقيق ، فعلى سبيل المثال أخبر السلطان بلو سلطان سكوتو وهى تبعد عن البحر بمسافة ستمائة ميل — كلاتون ان شعبه باع رقيقاً إلى اليوروبا ، الذين عادوا فباعوه بدورهم إلى المسيحيين .

وتعد تجارة الرقيق مسؤولة عن فشل الأوربيين فى الولوج إلى الداخل من ناحية شاطىء غانه ، وليس ذلك لسبب فظائع التجارة وكراهية الأهالى المرة للرجل الأبيض الذى خافوه . ولكن بسبب الخوف الطبيعى من زعماء الساحل الذين سوف يصبحون — إذا سمح للأوروبيين الدخول —

دخلاء يسرقون منهم مركزهم الممتاز المربح كوسطاء ، ولذا صمموا على أن يمنعوا الرجل الأبيض من كشف مصدر رقيقهم كما فعل تجار الساحل البربرى حين صمموا على إخفاء مصدر الذهب .

وإلى جانب معارضة الأهالى ، كانت هناك العقبات الطبيعية التى كان يجب التغلب عليها ، على طول الشاطىء كانت الأمطار شديدة الضغط . وقبل استعمال الكينين لم يستطع الأوربيون أن يحافظوا على أنفسهم[1] ولكن من أجل تجارة الرقيق تغلبوا بسرعة على هذه العقبات ولذا لم يتأخر طويلا كشف الداخل . وتبعاً لهذه الظروف السائدة اقتصرت أماكن استقرار الأوروبيين على شاطىء غانه خلال القرون السادس عشر والثامن عشر على الشريط الساحلى فكان هذا إلى جانب فشل الحضارة الأوروبية فى سحق أمراء القرصان فى الشاطىء الشمالى هى السبب فى الجهل بالسودان الغربى حتى نهاية القرن الثامن عشر .

ولحسن الحظ كان هناك من البريطانيين من تبين أن خريطة الداخل (ما زالت فراغا واسعا) وضع فيه الجغرافيون — استناداً إلى الإدريسى وليو الإفريقى — بيد مترددة أسماء — قليلة لأجزاء لم تستكشف بعد ولشعوب غير مؤكدة . فمجرى النيجر وأمكنة بدئه ونهايته بل حتى وجوده كنهر مستقل لم تكن شيئا مؤكداً ، ورغبة فى تخليص القرن من تهمة الجهل، رغب

---

(١) يعزى تفوق سالى فى أعمال القرصنة إلى التنظيم الكامل الذى خلفه آلاف المغاربة الذين استقروا هناك بعد خروجهم من اسبانيا ، فى سنة ١٦١٠ كانت غاراتهم على المياه الانجليزية الأولى من نوعها ، فى سنة ١٥٩٧ أرسل روبرت مسيل مثل غيره من مواطنيه سفينته (الحب الصادق) إلى مراكش اتعمل فى التجارة والقرصنة .

أفراد قليلون تلح عليهم الرغبة القوية فى زيادة رصيد المعرفة الإنسانية فى رسم خطة لجماعة تقوم باستكشاف داخل إفريقيا .

وتألفت فى سنة ١٧٨٨ فى لندن جمعية لكشف داخل إفريقيا ،هى التى عرفت باسم الجمعية الإفريقية ، وتحت الإدارة القوية لجماعة صغيرة من رجال العلم ، كان السير جوزيف بانكس Joseph Banks أكثرهم ظهوراً ، بدأت الجمعية العمل بجمع المعلومات التى تستطيع الحصول عليها عن الداخل من القناصل البريطانيين والتجار الوطنيين .

وكانت نتائج هذا الاقتراب الغريب غير العملى لهذه العملية الكبيرة قليلة، إلى حدان أهملت ، وتقرر إرسال المستكشفين ، وكان أولهم جون ليديارد Johnledyard من أجل البحث عن النيجر عن طريق مصر ، ولكنه مات فى القاهرة قبل أن يبدأ رحلته ، وحوولت محاولة أخرى من طرابلس بواسطة لوكاس فشلت أيضاً ، فقررت الجمعية أن تكون المحاولة القادمة من الغرب ولكن رجلهم الميجر هيوتون Houghton لم يكد يبدأ رحلته من غمبيا حتى فقد حياته بعد عبوره لفاليمى .

وعند هذا الحد الذى بدا فيه أن الجمعية لن تصل مطلقاً إلى هدفها، تقدم شاب اسكتلندى لايزيد عن العشرين من عمره،هو منجو بارك وعرض خدماته التى قبلت فى الحال ، وأرسل إلى غمبيا يحمل تعليمات أن يشق طريقه إلىالنيجر ويتتبع مجراه من المصب حتى المنبع ولا حاجة بنا لأن نقيد القصة المعروفة عن كيفية وصوله إلىالنيجر بعدسنتين قضاهافى مخاطر لانهاية لها،وهىصعاب كانت كفيلة بتحطيم رجل أقل بطولة منه ، وفى العشرين من يوليو سنة ١٧٩٦ عندما إقترب من سيجو عاصمة بمبارا رأى (بسرور بالغ) الهدف الذى يقصده

من رحلته والذى ظلوا يبحثون عنه . نهر النيجر العظيم يلمع تحت شمس الصباح وعرضه يبلغ عرض النيمس عند وستمنستر وهو يتجه إلى الشرق .

ولم يقنع بما وصل إليه، إذ رغم صحته العليلة وموارده المجهدة، استمر بارك فى رحلته وصمم على مزيد من المعرفة عن النهر العظيم الذى كشفه . فكتب (ممزقاً بالمرض مرهقاً بالجوع والتعب نصف عار وبدون أن يحمل ما كان ذا قيمة تنقصه المؤونة والملابس والمأوى) (تبينت أن فى محاولة الوصول إلى جنى ما سوف يفقدنى حياتى لا لهدف ، ولسوف تموت معى اكتشافاتى فكان الهدف مظلماً) .

ولذا عاد فى طريقه نحو الساحل، ولكنه كان مريضاً إلى حد انه شك فى إمكان وصوله، وإذا كان قد عاد فالفضل فى ذلك إلى العناية التى بذلها له تاجر زنجى يجمع الرقيق ليبيعه إلى الأوروبيين فى غمبيا. فظل تحت عنايته المستمرة مدة سبعة شهور عادت إليه صحته فى ختامها. وكان وصوله إلى إنجلترا — بعد أن غاب عنها قرابة ثلاث سنين ونصف حتى لقد اعتبر ميتاً — مثيراً فى حد ذاته، وأثارت اكتشافاته لنهر النيجر حماساً شديداً فى إنجلترا بل خارجها أيضا، ونشرت مذكراته — التى كان ينتظرها العالم فى شوق عن كيفية وصوله إلى حل احد إسرار العالم الجغرافى القديمة — فى عام ١٧٩٩ مصحوبة بمذكرات طويلة عن النتائج العلمية للبعثة، كتبها الميجور جيمس رنل عضو الجمعية الجغرافية الملكية وأكبر جغرافيى هذا العصر . وإلى جانب إعادة بناء جغرافية السودان الغربى على ضوء الاكتشافات الجديدة دخل رنل بشجاعة إلى مشكلة نهاية النيجر، إذ كتب أن إعادة قراءة الإدريسى والمؤلفين العرب الآخرين فى الظروف المتغيرة، تقودنى أن أصرح أن لا مكان لشك فى أن جوليبا Joliba أو النيجر ينتهى إلى بحيرات فى الربع الشرقى لافريقيا، ويبدو أن هذه البحيرات تقع فى وانجارا وغانا، واعتبر هاتين الدولتين بمثابة مصرف شمال أفريقيا ، الذى تنتشر فيه مياه النيجر انتشاراً واسعا مما

يجعلها عرضه للتبخر، وهذه النظرة التي لم تكن جديدة والتي يسندها ثقة عظيم هو رنل وجدت قبولا واسعا بالرغم من إنها كانت بعيدة عن الصدق، كما تبدو لنا غامضة، وكان هناك بعض العذر لخطأ رنل. وقد نشأ هذا الخطأ مبدئيا من خطأ وقع فيه ليو حين وضع وانجارا في منطقة الهوسا التي أشاعت الاضطراب — كما رأينا — بين الجغرافيين مدة ثلاثة قرون. فظن رنل أن وانجارا التي ذكرها الإدريسي والتي ذكرها ليو شيء واحد. وقبل الاعتقاد السائد أن مدينة كانو التي في الهوسا كانت حقيقة في غانا القديمة[1] وبناء على هذين الفرضين الخطأ لم يكن مدهشا أن يفشل رنل في محاولته إيجاد المواءمة بين جغرافيي العرب في العصور الوسطى والاستكشافات الحديثة.

وبينما كان بارك يستكشف النيجر، كان هناك شاب ألماني آخر هو فردريك هورنمان يحاول الوصول إلى النيجر عن طريق القاهرة. وآخر ماسمع عنه هو يوميته التي أرسلها إلى الوطن من مرزوق في فزان المؤرخة في إبريل سنة ١٨٠٠، ولكن علم فيما بعد أنه نجح في هدفه وأنه وصل إلى نوب Nupe على النيجر الأدنى حيث مات، وضاعت بذلك وثيقة عن أهم الرحلات في تاريخ الكشوف الجغرافية، وأثارت هذه اليوميات التي أرسلت من فزان، تعارضا جديداً حول نهاية النيجر بإحياء النظرية القديمة عن التقائه بالنيل، وبالرغم من هذا فإن رنل — الذى كان له أن يقاتل هرطقة جديدة تقول أن النيجر هو الكونغو الذى لم يكن يعرف عنه سوى مخرجه الواسع — أقنع نفسه أن هورنمان قد زودنا بدليل جديد عن إنتهاء النيجر عن طريق التبخر في مملكة وانجارا.

وعوات الحكومة البريطانية — تدفعها الجمعية الأفريقية — على أن تبذل يداً، بإرسال حملة إلى الساحل الغربي للوصول بحراً إلى نهاية النيجر. وقبل

منجو بارك — الذى كان قد أخلد إلى حياة الخمول كطبيب محترف فى بيبلس Peebles — منصب القيادة و بنى خطته على أساس أن يأخذ طريقه إلى سيجو، وهناك يبنى قاربا يبحر به فى النهر مخترقا ممالك الهوسا ونوب Nupe و كاسنا (كاتسينا) إلى مملكة وانجارا ، وإذا كان النهر ينتهى هناك،فسيعود عن طريق النيجر،أو عبر الصحراء أو بواسطة النيل أو خليج بنين،وإذا صح أن النيجر هو الكونغو فإنه سيتتبعه حتى مصبه . وأبحر منجو فى يناير سنة ١٨٠٥ — يصحبه زميلان اسكتلنديان وخمسة من الصناع البحريين الذين كانوا سيبنون له قاربه وإذا ماوصل إلى جورى Goree لحقت به فرقة مكونة من ضابط وخمسة وثلاثين رجلا من الحامية البريطانية وبحريان . ودليل واحد من الماندنجو هو الذى قبل أن ينضم إلى الحملة .

والفرقة البيضاء التى أضعفتها الأحوال السيئة التى لم تعد تفضلها حياة الحاميات فى المداريات، أثبتت فى سرعة ادعاءات قاسية كان بارك مسروراً بالتخلص منها،وبدأ الأعضاء سريعا فى الشفاء من الحمى والدوسنطاريا، وقبل مرور وقت طويل، أصبح كل واحد يائسا إلى حد أن لم يبق غير تصميم بارك القاطع على أن يحافظ على تحرك الحملة نحو أهدافها، ولم تلبث الحملة أن وصلت باماكو على النيجر فى الوقت الذى كان جميع الصناع وثلاث أرباع الجند قد ماتوا، وقاوم الباقون حتى وصلوا سنساندنج Sansanding ،حيث بدأ بناء القوارب وحيث أرسل بارك آخر رسائله فى نوفمبر سنة ١٨٠٥، التى قال فيها (آسف لأقول أن من بين الأربعة الأربعين أوروبيا الذين رحلوا جميعا فى حالة صحية طيبة خمسة فقط أحياء . وبالرغم من ان جميع الأوروبيين الذين معى سيموتون ، وبالرغم من أنى نصف ميت فما زالت أثابر ، وإذا لم أنجح فى الوصول إلى الهدف من رحلتى فإنى سأموت عند النيجر) .

وكما عرف كل العالم فإن القدر تقاضى الثمن الكامل الذى كان بارك

مستعداً لأن يدفعه ثمنا لفشلة. وحمل الرسالة — آخر خطاب لبارك إلى زوجته — إلى الساحل دليل أمين من الماندنجو، وقد ارسل بعد ذلك بمدة ليعود ليبحث عن سيده. فعرف أنه بالرغم من المعارضة القوية التي أبداها الوطنيون في الطريق فإن بارك وثلاثة معه من البيض بقوا ليتبعوا النيجر لألف ميل، ونجحوا في الوصول إلى شلالات بوسا، ولما وجدوا الضفتين قد غطاها الوطنيون الأعداء، لم يجرؤ أحد منهم على النزول، وربما خافوا أن لا يتحمل قاربهم اندفاع المياه البالغ القوة، فإنهم واصلوا سيرهم إلى المنحدر وهلكوا، وظن البعض أن المظاهر الوحشية التي أبداها الوطنيون المسلحون عند الضفتين، لم تكن أكثر من تحذير الرجال البيض عن الأخطار التي كانوا يندفعون إليها، ولكن في مقابل هذا يجب أن نذكر تصميم الأهالي في الأيام الأخيرة على تجاهل الحادثة تماماً .

وكانت رحلة بارك الثانية فشلا تراجيديا بكل معنى الكلمة ، إذ لم ينج أحد من البيض من الموت، وبالرغم من هذه الخسارة الجسيمة والمسافة الكبيرة التي سارتها، فإنها لم تلق ضوءاً جديداً على نهاية النيجر، ولسبب سوء التقدير في أن بوسا تقع على بعد ثمانين ميلا من تمبكتو بدلا من ثمانمائة فإنه لم يتبين اتجاه النهر أو احتمال نجاح بارك ، وفي نفس الوقت فإن النظرية التي تقول بأن النيجر والكونغو نهر واحد — كانت لا تزال محتملة يؤيدها ثقة المستكشف العظيم.

ومن بين الكثيرين الذين تأثروا بشجاعة منجو بارك، والذين اهتموا بمسألة النيجر، رجل اسكتلندي ذو عقل متسائل هو جيمس ماك كوين James Mcqueen الذي عاش في جزائر الهند الغربية، وتحت رعايته عدد من الزنوج الأرقاء من بينهم بعض الماندنجو وبعض الهوسا ومنهم حصل على كل المعلومات التي يمكن أن يدلوا بها عن النيجر . وبمقارنة هذه المعلومات التي عرفها من الأوروبيين والتجار الأفريقيين في الشمال وتجار الساحل الغربي وصل إلى نتيجة أن النيجر يمكن أن ينتهي فقط في خليج غانة . ولكن العالم الذي كان

قد انخلع قلبه من جراء الفواجع المتكررة فى حقل الاستكشافات ، لم يكن مستعداً ليسمع تعاليم النظريين الجالسين على المقاعد المريحة ، ولذا ضاعت كل نتائج مجهودات ماك كوين التى كانت تغطى حقلا أوسع من النيجر .

وفى سنة ١٨١٦ حاولت الحكومة البريطانية أن تجرب نظرية أن النيجر والكونغو نهر واحد، حين أرسلت حملة إلى كل من النهرين ووصلت الحملتان إلى نهاية مفجعة دون أن يلقوا نوراً جديداً على المشكلة،وبعد سنتين أرسلت الحكومة حملة إلى الداخل عن طريق طرابلس ، كان على رأسها الكابتن ليون ولكنها لم تصل إلى أبعد من فزان ، وكان اشتراكها الوحيد فى المشكلة هو النتيجة التى وصل إليها ليون وهى التى تقول أنه عن طريق أو آخر تتصل هذه المياه بالنيل الأعظم إلى الجنوب من دنقلة[1] .

وفى سنة ١٨٢١ أرسلت الحكومة حملة أخرى من طرابلس ، يقودها ميجور ديكسون دنهام Dexon Denham ومعه الملازم هيوكلابرتون Hugh Clapperton والدكتور أودنى Oudney ، وبعد تأخير استمر شهرين فى مرزوق حيث بذل كل جهد لمنعهم من التقدم، وصلوا إلى تشاد حيث كانوا يؤملون أن يجدوا على الأقل مفتاحاً يحل مسألة النيجر . فقد كشف دنهام (أن قلبى فى داخلى معلق على الأمل لأنى إعتقد أن هذه البحيرة هى مفتاح للهدف العظيم الذى نبحث عنه) وخرج كلابرتون وأودنى ليكتشفا أرض الهوسا وليبحثا عن النيجر فى الغرب . ومات أودنى بالقرب من كاتاجوم Katagum ،ووصل كلابرتون إلى كانو حيث أخبر أن النيجر أو كوورا Kworra كما كان يسمى فى جزئه الأدنى — يتجدر إلى البحر فى مكان يسمى ركاح Rakah فى منطقة اليوروبا. التى زارتها سفن المسيحيين. ولكنه وجد الأهالى

---

(١) كان لدى الحملة أمل فى أن تسمع شيئاً عن بارك الذى اعتقد البعض أنه لايزال حياً عند السلطان (تمبكتو) من أجل كفاءته فى الجراحة .

غير متصلين بالنهر، بسبب تخوفهم من إعطاء أية معلومات سوف يستعملها الأجانب للاستيلاء على بلادهم .

ومن كانو سافر غرباً إلى سكوتو عاصمة محمد بلو Mahemmed Bello الزعيم المسلم أو الزعيم الروحى لكل حكام الهوسا من الفولانى، فرحب به هذا . ويقول كلابرتون أنه وجده ملماً جداً بأحوال البريطانيين ويرغب منهم فى أن يرسلوا بسفنهم إلى ركاح لفتح طريق التجارة مع دولته . كما كان راغباً فى أن يرسلوا إليه قنصلا وطنيا ليستقر فى سكوتو ، ووعد كلابرتون أن يساعده فى الوصول إلى ياورى Yawri ونوب من أجل كشف النيجر . ولكن لسوء الحظ مازال العرب الذين كانوا يعيشون معه يلحون عليه حتى غيروا رأيه، لأنهم رأوا بوضوح أن فتح البلاد للتجارة البريطانية — وهو الامر الذى فهموه من رحلة كلابرتون — لن يؤدى إلا إلى الإضرار بمصالحهم . ولكن كلابرتون أبان لهم فى وضوح أن ثمن الصداقة البريطانية هو إنتهاء تجارة الرقيق ، التى كان الفولانى يعتمدون عليها ولذا لم يعمل شيئاً من أجل إزالة المصاعب التى وضعت أمامه .

وبناء على طلب كلابرتون حصل بلو على خريطة لمجرى النيجر الادنى، وبالرغم من أن السلطان قال أن النهر يجرى إلى البحر عند فنده Fundah وهى بلدة تقع قريبة من مينائه ركاح . بينما بينت الخريطة أنه يصب فى النيل، فقد اكد هذا ما سمعه دنهام فى برنو، ولكن كلابرتون ظل ثابت الاعتقاد أن مصب النيجر سوف يوجد فى نهاية خليج غانة . ولما وجد أنه من المستحيل عليه الوصول إلى مزيد من النجاح ، فقد أتصل بدنهام فى بورنو وعاد معه إلى إنجلترا .

وفى سنة ١٨٢٥ عاد كلابرتون إلى ساحل غانا موفداً من قبل الحكومة، ليبحث عن النيجر الأدنى من هناك ، وصحبه أربعة من الأوروبيين ، كان أحدهم خادما له

هو ريتشارد لاندر ، وعند الساحل لم يجدوا أحداً يعرف شيئاً عن ركاح أو فنده اللتين قال عنهما بلو أنهما ميناءان فكانت خيبة لهم . فنزل فى باداجرى Badagry وأقلع إلى الشمال . وكان أحد رفقاء كلابرتون قد نزل فى ويداح Whydah وانقطعت أخباره . ومات أثنان عقب تركهم لباداجرى وبقى لاندر وحده فسافر معه شمالا عبر مدينة اليوروبا الكبيرة أويو Oyo أو كاتنجا Katanga إلى النيجر فوصلا إلى بوسا .

وقد أثرت الرحلة خلال الحزام الغابى على صحتهما ولم يفدهما مناخ كانو وسكوتو اللتين زاراهما فيما بعد، فى استعادة قوتهما ،لا سيما كلابرتون .وكان الاستقبال البارد الذى لقياه فى سكوتو من جراء إنتشار أشاعة تقول أن البريطانيين ينوون عزل الفولانى سبباً فى أزدياد صحة كلابرتون سوءاً ، فمات فى أبريل سنة ١٨٢٧ ، ورغم أن النتائج التى وصل إليها كلابرتون كانت أقل من تلك التى وصل إليها بارك ، فإن اشتراكه فى المعرفة الإنسانية لم تكن أقل أهمية ، ففى رحلتيه اللتين أظهر فيهما عزما غير عادى وشجاعة فائقة، اجتاز القارة من طرابلس إلى ساحل غانة فكان أول أوروبى وصل إلى السودان الغربى من الجنوب .

وعاد لاندر وهو مضعضع الصحة ، إلى كانو ومن هناك توجه إلى فنده نقطة إلتقاء النيجر ببنوى،حيث عزم على أن يقلع متتبعاً النهر إلى نهايته، التى ظن — كسيده — أنها لا بد أن تكون فى خليج بنين . وعندما اقترب من النهر وكله أمل فى أن يصل إلى حل أكبر المشكلات فى هذه الأيام منع من مواصلة السير، فعاد ادراجه.وفى الحقيقة أنه وصل إلى الساحل عند باداجرى دون أن يعلم شيئاً جديداً عن النيجر وأخذ طريقه إلى إنجلترا .

كانت الرحلة غالية الثمن من حيث النفوس البشرية التى ضاعت،ومخيبة فى نتائجها .وتبخرت الأمال فى قيام علاقات تجارية مع الفولانى كما لم تلق سوى أضواء قليلة جديدة على سر النيجر . إذ مازال هناك كثيرون يرفضون قبول

نظرية إنتهاء النهر فى خليج بنين بالرغم من تأكيد كلابرتون لذلك . بسبب الإعتقاد أن هناك سلسلة من الجبال الجرانيتية تمنع طريقه . واعتقد فى هذا الرأى الجنرال السير روفان دونكين Sir Rufane Donkin دون اعتبار لما حققه المستكشفون الكبار أخيراً فى هذا الحقل، واستناداً إلى ثروة كبيرة من الكتابات القديمة صرح أن النيجر لابد أنه يصب فى البحر المتوسط فى خليج سرتس ، وكان هذا شيئاً كثيراً حتى لمجلة كوارترلى ريفيو The Quarterly Review التى ظلت حتى هذا الوقت تناصر بحماس ، كل نظرية جديدة حول النيجر . فأنهالت التهكمات على الجنرال الذى أجاب بكل كلمة فى كل لغة، ولكنه صمت أخيراً بسبب الوصول إلى الحل النهائى للمشكلة الأمر الذى توصلوا اليه فى العام التالى .

كان ريتشارد لاندر شغوفا بأن يعود إلى إفريقيا ليكمل العمل الذى بدأه وهو فى خدمة كلابرتون ، دون أن يكون مزوداً بأية ميزة سواء فى تعليمه أو مولده . فدخل فى خدمة الحكومة بعد أن وعد بمكافأة قدرها مائة جنيه بعد عودته ، ومرتب ٢٥ جنيها لزوجته خلال غيابه . وأبحر إلى إفريقيا بصحبة أخيه جون الذى رفض تناول أى نوع من المكافأة ، وكانت الأوامر التى حملها لاندر تقضى بأن يشق طريقه إلى بوسا ، ومن هناك يتتبع النهر حتى فنده . حيث يرى إذا كان يأخذ مجراه إلى بحيرة أو مستنقع، وإذا نجح فى هدم خرافة وانجارا القديمة فله أن يتتبع النهر حتى البحر أو يعود شرقاً إلى بحيرة تشاد .

وصل الأخوان الى بوسا فى منتصف سنة ١٨٣٠ ، ومن هناك تتبعا النهر إلى مكان التقائه ببنوى . ولكن الأيبو أسروهما، وحين استعادا حريتهما شقا طريقهما إلى البحر عن طريق النهر وعادا الى انجلترا فى يونيو سنة ١٨٣١ وأعانا حل المشكلة التى استعصت على العالم لمدة طويلة .

وفى نفس الوقت وصل مخاطر آخر هو الميجور جوردون لاينج سكوت Major Gordon Laing Scot إلى تمبكتو فى أغسطس سنة ١٨٢٦، إذ كان الموقف الدقيق فى السودان الغربى قد أثار اهتمام العالم المتمدين ، وقد بدأ رحلته من طرابلس ومنها إلى غدامس فعين صالح حيث هاجمه الطوارق ، فكاد يموت من جراء ما أصابه منهم ، ولكنه لم يلبث أن قتل بيد الفرقة التى صحبته، وضاع كل ما كان يحمله من أوراق، وجهل العالم كل ما تم عن هذا المستكشف ورحلته التى كلفته حياته ، وكان على الناس أن ينتظروا طويلا حتى يطفئوا شوقهم إلى تمبكتو .

وبعد موت لاينج بعام ، بدأ رينيه كاييه René Caillié (وهو شاب فرنسى ذو أصل متواضع من ريو نونى Rio Nunez) رحلته من أجل تحقيق الأطماع التى كانت تساوره بكشف المدينة الغامضة، فتنكر فى زى عربى وشق طريقه إلى جنى، ثم تتبع النهر فى قارب حتى وصل إلى تمبكتو بعد عام من تركه للساحل . وقد شعر بالحزن حين رأى المدينة أقل رومانتيكية مما كان يؤمل هو ورفاقه، إذ يذكر (كونت لنفسى فكرة مختلفة تماما عن عظمة وثروة تمبكتو . ولكن المدينة لم تكن — عند النظرة الأولى — شيئا سوى مجموعة من المنازل سيئة الشكل مبنية من الطوب اللبن . ولم يكن هناك أثر أو علامة لمعبد ليو الفخم) . والقصر الملكى الذى بناه أفضل عمال غرناطة) ولم يكن هناك مما وصفه ليو سوى ندرة الملح ، ووجد كاييه أن التجار المغاربة مازالوا يجمعون الثروات بتصدير الملح من تاودينى لقاء البضائع الأوروبية من مراكش وتونس وطرابلس . ثم عاد إلى وطنه عن طريق الصحراء عبر أروان Arawan وتغازة ، بصحبة قافلة تضم ١٤٠٠ جملا، تحمل الرقيق والذهب والعاج والصمغ وريش النعام والأقمشة ، الى تافيلت Tafilelt فى جنوب مراكش وبعد أن

قاسي الحرمان القاسي الذى كاد من جرائه أن يموت، ووصل إلى فاس ومنها عاد إلى فرنسا حيث وجدت قصته ما كان يؤمله من اهتمام .

وبالعثور على حل لمشكلتي مجرى ونهاية النيجر ، وباكتشاف أن تمبكتو لم تكن إلا مجموعة من الاكواخ المبنية من الطين ، تبخر الإهتمام بغرب إفريقيا، ونسى الناس هذه المساحة الواسعة التى تضم الجزء الأكبر من مجرى نهر النيجر التى كان من الواجب أن يستكشف ، والحق أن الأجزاء الأبعد من إفريقيا مازالت سراً ينتظر الاكتشاف أكثر من أى جزء اكتشف فى الغرب، كان لا يزال يكتشف الزمبيزى وبعد قليل تكتشف مساقط فكتوريا بينما كان كراب kraph وربمان Rebmann يكشفان الغطاء عن العالم الذى يقع على خط الاستواء ، ولكن قممه مغطاة بالثلوج ومن هنا نما سبب للاعتقاد إنه فى قلب القارة التى ظن أنها مسرح لجفاف لا نهاية له يوجد بحر داخلى كبير .

وبينما كانت أنظار العالم المتمدين مركزة على المستكشفين الشجعان الذين يجوبون نصف القارة الجنوبى ، وصل إلى إنجلترا غير ملحوظ من أحد مسافر متعب كان قد قضى خمس سنوات محفوفة بالمخاطر فى داخل الجزء الشمالى الغربى من إفريقيا . وهو الدكتور هنرى بارت Henry Barth وهو شاب ألمانى لم تجذب اتجاهاته الظاهرة كمستكشف انتباه أحد .

كان بارت ومواطنه الدكتور أوفروج Overweg أعضاء فى بعثة يقودها جيمس ريتشاردسن James Richardson الذى كانت الحكومة البريطانية قد أرسلته إلى طرابلس فى سنة ١٨٤٩ من أجل التفاوض فى عقد معاهدات تجارية مع زعماء الداخل. وفى منتصف الطريق عبر الصحراء ، افترق الرحالة على نية الالتقاء ثانية فى السودان ، وقاد بارت الطريق إلى ايرى حيث قضى بعض الوقت فى اغادس ، واستمر فى رحلته جنوباً إلى الموسا وتبين هدفه البعيد

بزيارة كانو عاصمة إفريقيا الوسطى. كما أطلق عليها، ووصل إليها أخيراً وهو يكاد يكون مفلسا، فاضطر إلى أن يقترض من الأمير ما يكفيه من الأصداف ليتمكن من الوصول إلى برنو، وقبل أن يصل إليها سمع عن موت ريتشاردسن فتسلم هو قيادة الحملة ، فكان أول واجباته أن يعقد المعاهدات التجارية مع سلطان برنو، ووجد بارت أن رغبة أهل برنو فى الاتجار مع أوروبا من أجل الحصول على الأسلحة النارية يشوبها الخوف من عداوة البريطانيين لتجارة الرقيق وهى التى يطلبون الأسلحة النارية من أجلها .

وخرج بارت ليبحث عن بنوى الأعلى ، أكبر روافد النيجر ، إذ لم يكن يعرف عنه سوى جزؤه الأدنى، فوصل إلى يولا Yola ولكنه وجد الفولانى المحليين قد قابلوه بعداوة اضطرته إلى أن ينسحب فى سرعة ، ولكن اكتشافه لبنوى الأعلى — الذى وصفه بأنه ساعة من حياته تدعو إلى أكبر الفخر — كان هاما بل أهم من أى فرع آخر للمعرفة للجغرافية .

وبعد أن اكتشف كل ما حول بحيرة تشاد — حيث شهد بعض فظائع تجارة الرقيق والبؤس الشنيع الذى تسببه هذه التجارة — وجد نفسه مفلسا مرة أخرى ومضطراً إلى أن يتخلى عن عزمه فى السفر شرقا إلى النيل ، وفى اللحظة التى كان فيها يتجهز للعودة إلى إنجلترا، تسلم على غير انتظار بعض رسائل من اللورد بلمرستون وبعض الدولارات الكافية، وقد اقترحت هذه الرسائل عليه أن يحاول الوصول إلى تمبكتو بدلا من الاتجاه إلى الشرق ، فكان هذا الاقتراح غير المنتظر هو الذى حفز بارت بشدة . وسرته فكرة المتابعة فى الحقل المجيد الذى سلكه منجوبارك ، ولكن كان عليه أن يحاول محاولته منفرداً إذ مات أوفروج قبل أن يبدأ رحلته التى قدر لها أن تكون رحلة خطرة .

وقاد بارت طريقه إلى زندر وكاتسينا وكانو وسكوتو، ثم إلى جواندو حيث عثر على نسخة من كتاب تاريخ السودان المشهور ثم أقلع إلى صاى حيث عبر

النيجر ، ودخل فى منطقة منحنى النيجر التى كانت فى حالة صراع حطرة من جزاء الحرب التى نشبت بين فولانى ماسينا المتعصبين ،وجيرانهم الطوارق والعرب، فبالرغم من أنه اتخذ اللباس العربى، فإنه لم يحاول أن يخفى أنه مسيحى ، والفولانى لم يكونوا مطلقا فى حالة تسمح لهم أن يتسامحوا مع مسيحى فى وسطهم، ولذا لم يجد دائما إلا الاحتقار ، فكان ثمنا لأمل وحيد هو الوصول إلى تمبكتو ، ونجح فى ذلك ولكن بعد أن ظل يعرض حياته للخطر بصفة مستمرة ، وعندما وصل كانت صحته قد انهارت ، كما لم يكن وصوله يعنى الأمان، لأن الناس سرعان ما اكتشفوا مسيحيته ، ولحسن الحظ كانت تمبكتو لا تزال مدينة توقر العلم ، وكان دفاع بارت الروحى عن إيمانه ومعرفته العميقة بالديانة الإسلامية قد أكسبته عطف المثقفين والمواطنين أصحاب النفوذ ، وأيضا حماية البكاى El Bekkai الذى دان له بوصوله سالما . وكان هذا البكاى شيخ الكونتا Kunta العربية وهم الذين كانوا — وحلفائهم البرابش والطوارق فى مركز السيادة بالنسبة للفولانى ، وكانت المجهودات الأكيدة التى بذلها الأخيرون ليستعيدوا سيادتهم للمدينة بدت على وشك أن تنجح وفرصة ذهبية لتهدئتهم ليس من السهل إهمالها ولكن عندما طلبوا تسليم هذا الكافر لهم رفض البكاى طلبهم .

وقضى بارت معهم ثمانية أشهر فى تمبكتو وماحولها، وبالرغم من القلق الذى سببه وجوده . فقد جمع معلومات عن المدينة وتاريخها،وفى خلال هذه المدة رفض البكاى بشدة ، دون مراعاة لأى اعتبار لمصلحته الشخصية ، أن يسحب حمايته للمسيحى،وقد حاول الفولانى أكثر من مرة أن يقبضوا عليه حيا أو ميتا . وبعد ست سنوات عندما كان المحارب التوكولورى المنتصر الحاج عمر يهدد تمبكتو، أرسل البكاى بعثة عبر الصحراء إلى طرابلس يطلب مساعدة الملكة فيكتوريا التى كانت كما ذكر له بارت — أقوى ملكة فى أوروبا . واليوم يرقد جسده

فى مقبرة أقامها الفرنسيون لتخليد ذكرى خدماته للحضارة، وكنصير للمستكشف الألمانى، وعندما استطاع أخيرا أن يهرب من تمبكتو ليبدأ رحلة العودة، سافر بارت عن طريق النيجر إلى الهوسا التى وجدها — كما ذكر هو — أكثر الأماكن ملائمة ليقيم بها أجنبى أكثر من كل البلاد والتى زارها فى أراضى الزنوج .

وواصل بارت سيره شرقا إلى بورنو، وعبر الصحراء إلى طرابلس، وعاد إلى إنجلترا فى سبتمبر سنة ١٨٥٥ ، وفى خلال الخمس سنين التى غابها عمل أكثر من أى أحد من أسلافه ، ليحقق سر قلب إفريقيا الشمالية ، ولكن ما حققه بارت من نجاح لم يفد إنجلترا إلا قليلا ، فعند عودته إلى لندن استقبله اللورد بلمرستون واللورد كلارندون بالعطف ، فكان هذا العلامة الوحيدة للاعتراف بجهوده ، الذى أظهرته الحكومة التى خدمها بكل إخلاص والتى لم تصرف على بعثته سوى ألف جنيه، ووفاء لدينه كافأته الجمعية الجغرافية الملكية بأعلى تقديراتها ، وحقا لقد استحقها ولكن اسم بارت ظل مجهولا للعامة ، فقيام البعثة وجد بعض الذكر فى صحافة لندن، ولكن عودة الرجل الوحيد الذى نجا لم يشر إليها قط . إذ كان الإهتمام بغرب إفريقيا قد أصبح ضئيلا جداً عند نشر مذكراته (رحلات واستكشافات فى شمال ووسط إفريقيا) فذهبت دون أن يتنبه إليها أحد[1] حتى كأن هذه المجلدات الخمس التى وصفت فى جهد تفاصيل كل مظهر للحياة فى أجزاء غير مستكشفة ، لا توازى شيئا فى عالم أدب الجغرافيا الاستكشافية وتبدو بعيدة عن أن تصدق إلى حد أن رجلا كانت حياته فى خطر مستمر استطاع أن يجمع منفرداً وثيقة على أصدق ما يكون صورة مما يعد ثروة جغرافية وبشرية وتاريخه عن ممالك وشعوب لم

---

(١) طبع الناشرون ٢٢٥٠ نسخة من المجلدات الثلاث الأولى ، وألفاً فقط من المجلدين الآخرين (من خطاب من شركة لونجمان وجرين وشركاهما إلى المؤلف) .

تكن قد عرفت حتى الآن، والنتائج الجغرافية الخالصة لأعمال بارت حققت له شهرة دائمة ، فإلى جانب أنه هو الذى استكشف بنوى الأعلى، فإنه كان اول من وصف النيجر الأوسط الذى لم يره أحد إلا بارت، ووصف بدقة متناهية أنهاراً وجبالا ومدنا كان أغلبها غير معروف من قبل ، ولكن لسوء حظه لم يستكشف ما يكفى لأن يثير اهتمام أناس كانوا مشغولين بحقول أخرى . وظلت حتى استطاعت أجيال لاحقة أن تعرف أن هنرى بارت هو الذى رفع الحجاب نهائيا عن شمالى غرب إفريقيا أكثر من أى مستكشف شهير قبله .



(٢١)

عـــثمان بن فوديو

استمرت الفوضى التى ترتبت على الحملات المغربيـة على النيجر الأوسط حتى القرن التاسع ، عشر فى الوقت الذى تحرك فيه مركز الإهتمام السياسى شرقا إلى الهوسا ، وهو الإسم الذى يطلقه شعب الهوسا على بلادهم . بينما يعرفون هم باسم الهاوساوا ، ولكن يعرفون عادة بالهوساس أو الهوسا . وهو اسم لغتهم التى يبدو أنها خليط من الزغاوة والتمبجاغ Taghawa and Timajagh مخففة بالعربية .

وسكان الهوسا من أصل مختلط ، وبالرغم من أنهم أصحاب لغة واحدة وثقافة مشتركة ، لم تقم بينهم مطلقاً وحدة سياسية ، فالدم المغربى يجرى فى عروقهم بالرغم من أنهم زنوج المظهر . وتقول الأساطير كيف أن بطلا بربريا هو أبو يزيد قدم من بورنو إلى المدينة القديمـة داورا حيث ذبح الثعبان المقدس وتزوج من الملكة . ومن هذا الاتحاد نشأ مؤسس إمارات الهوسا السبع داورا Daura وكانو Kano وزازاو Zazaw أو زجزج Zegzeg وجوبر Gobir وكاتسينا Katsina وبيرام Biram ورانو Rano ، وأصغر الولايات وهى كبى Kebbi ونوب Nupe وجوارى Cwarj ويلوا Yelwa وايلورين Ilorin وكوارارافا Kwararrafa وزامفارا Zamfara التى كانت تعرف باسم بانزا بوكوى Banza Bokwoi أى السبعة غير الشرعيـة ، وكانت داورا دائماً تعتبر المملكة الرئيسية واعتبرتها الأخريات دائماً أكثر أماكنهم قداسة .

والتشابه كامل بين قصة أبو يزيد قاتل الثعبان وقصة ذا اليمين Za Aliamen ذابح صنغاى إله النهر ، فكلا الأسطورتين ذات أصل فى حملات البربر أو الزغاوة للسودان . ويحتمل أنها ألفت فى القرن العاشر . فالزغاوة كانوا ملثمين أو طوارق أتوا من الغرب ، وجعلوا من أنفسهم طبقة حاكمة أرستقراطية فى السودان من حدود إتيوبيا إلى السنغال ، وما زالوا إلى الآن يحتفظون بهذا الإسم فى وادای فقط إلى الشرق من بحيرة تشاد ، وفى هوسا وما حولها من أقاليم دندى وبورجو حيث عاش عدد من الصناع المشتغلين بصناعة المعادن والجلود ، ويحملون جميعاً إسم زوجوران زوجو Zogoran Zugu أو زوجورما Zugurma أو زوروماوا Zaromawa وجوامبي Jawambe ، وكانوا مختلفين عن بقية السكان الذين كانوا من الزغاوة ، وادخال الحصان وكذلك فن حفر الآبار بالصخور يعزيان إليهما .

ويبدو أن الزغاوة الذين غزوا الهوسا — وهم الذين يطلق على نسلهم اسم هابى Habi — هم الذين اتخذوا من جوبر عاصمة لهم لنبلهم ، ولذا استقر هناك الايماجيفان (الارستقراطية) وربما كان هذا دليلا على أن الساراكونا Sarakuna وهم الأسرة الحاكمة فى جوبر كانت لهم علامة مميزة تحت إحدى عيونهم وهى تسمى تاكن كازا takinkaza وكانت توجد تحت أعين بعض فراعنة مصر ،وبالرغم من هذا فإن الجوبراوة كانوا محتقرين من الهوسا الاخرين .

ومصدر هام من مصادر تاريخ الهوسا حوليات كانو Kano Chronicles ، وهى تسجل حكم ثمان وأربعين من ملوك كانو من الباجودا Bagoda الملقبين بالسارکی (٩٩٩ — ١٠٦٣) إلى محمود بلو (١٨٨٣ — ١٨٩٢) . واستناداً إلى الأساطير المتوارثة أنشئت كانو بواسطة صناع

الحديدالذين عرفوا باسم اباجازاوا Abagazawa وهو اسم قبلى ما زال مستعملا فى كانو بواسطة عائلات الحدادين الذين مارسوا حرفتهم لأجيال غير محدودة وباجودا أول ملوك الهابى كان ابنا لداورا قاتل الثعبان .

ودخل الإسلام إلى الهوسا فى القرن الرابع عشر واعتنقته كانو عن طريق الوانجاراوا Wanjarawa أو المـاندنجو ، القادمين من مالى ، وبالرغم من أن ثقافة الهوسا تأثرت إلى حـد كبير بالإسلام وخاصة فى نظام الحكومة وإدارة القضاء إلا أن الأهالى لم يتحرروا تماما من معتقدات أسلافهم القديمة ، ولذا تسربوا إلى الوثنية وأمن بها كثيرون — كما يفعلون الآن فى المعتقدات الوثنية القديمة ، ومن المحتمل أن كانو وصلت إلى أقصى قوتها تحت حكم محمـــد رمفا Rinfa (١٤٦٣ — ١٤٩٩) الذى أصبح — كما كان اسكيا الكبير — تحت تأثير المغيلى . وحوالى سنة ١٦٠٠ — بعد غزو صنغاى للهوسا مباشرة — أصبحت كل الدولة تابعة للكاورارافا Kawararafa أو الجوكون Jukons من حوض جونجولا بنوى Gongola Benue الذين احتلوا كانو فترة من الزمن ، وحوالى سنة ١٦٨٠ طرد البورنو الغزاة وأصبحت كانو تابعة لهم .

وكانت كاتسينا — عدوة كانو الرئيسية — قد خضعت هى الأخرى لصنغاى ولكنها قاومت الكاورارافا ، وفى القرن الثامن عشر لم تكن كاتسينا أقوى من كانو بكثير فحسب ولكنها كانت أحد الأسواق الهامة فى السودان الغربى ، وتتمتع ببعض السمعة كمركز للعلم وانتعشت على حساب تجارة الصحراء فأصبحت بصفتها الباب الشمالى للهوسا مركز تسويق هام . وأسماء ساحات المدينة — ومعظمها يرجع إلى هذا العهد — تظهر أن تجارتها الخارجية امتدت حتى الصحراء الشمالية وغربا حتى السنغال ، فهناك

تودون مالى Tudun Mali وتواتنكى Tawatinke أى ربع أهـل توات . وربع وانجـاراوا وسارارين تساكو Sararin Tsako أو معسكر طوارق كل أوى . وفى منتصف القرن تحرك الجوبروا الذين طردوا من مواطنهم السابقة فى ابرى أو أشين Ashen جنوباً إلى زامفارا مما دفعهم إلى الصراع مع الـكاوتسيناوا . فتلا ذلك حروب طويلة لم تسفر عن شيء والتاريخ القديم لزازاو أو زجزج غامض ولكنها اكتسبت بعض الأهمية فى القرن الخامس عشر تحت حكم الملكة القوية أمينة التى وجدت نفسها فى حالة سلام مع جيرانها ، فطافت بأنحاء مملكتها تبحث لها عن عشيق أينما استقرت ، مثل ما فعلت دواجر Dwaker أمـيرة الصين المشهورة وكانت تقتله قبل رحيلها ، وربما تكون زاريا عاصمة زازاو Zazaw قد بقيت فى القرن السادس عشر بواسطة باكوا Bakwa الذى ذكر أنه الحاكم الذى حرر شعبه من إرهاب غزوات الكاورارافا .

وبالرغم من أن الزراعة كانت دائماً الحرفة الرئيسية للشعوب المتكلمة بالهوسا ، فقد اشتهروا دائما وبحق أنهم صناع مهرة وتجار نشطين ، واشتهرت منتجاتهم الجميلة لحداديهم ونساجيهم وصباغيهم ودباغيهم وصناع الجلود ، فجذبت تجاراً من الغرب وأعطت كثيراً من مدنهم أهمية كبيرة ، ونشطت تجارتهم الخارجية أيضاً عن طريق كثير من تجارهم المحليين ، الذين حملوا مصنوعات بلادهم إلى كل البلاد المجاورة ، وجعلوا لغتهم سائدة lingua Franca لجزء كبير من السودان الغربى ، ومعروفة فى جميع الأسواق من أم درمان حتى تمبكتو ومن طرابلس إلى خليج غانه .

وأهم ما ميز مدنهم ، الحائط الذى تعود الاهالى أن يسوروا به مـدنهم وقراهم ، وغالبا ما كان هذا السور مكونا من أجزاء قد ضمت إلى بعضها

وسور كانو — على سبيل المثال — كان قطره لا يقل عن ثلاثة عشر ميلا .

وبسبب تعود هذه المدن الخضوع لمدد طويلة للسيادة الأجنبية ، فإن الرجل من الهوسا لم يعن إلا قليلا بمن يحكمه ، مادام يسمح له بأن يزرع حقله بسلام، أو يقوم بصنع مواد التجارة أو يقبض على سوقه ، فبالرغم من أنه يخضع بصفة مستمرة لحكام من الأجانب فإن شعب الهوسا ظل يدير بنفسه شؤونه المحلية ، الأمر الذى مكنه من تطوير نظامه الإجتماعى ، متأثراً إلى حد بعيد بالثقافة الإسلامية كما حسن إلى حد كبير نظام حكومته عن طريق توارث الموظفين الذين ما زالوا يحتفظون بألقابهم حتى اليوم .

وفى خلال القرن الثامن عشر استعادت كانو تدريجيا سيادتها التجارية التى سلبتها إياها إلى حين إمارة كاتسينا ، التى جعلت اسمها معروفا فى أسواق البحر المتوسط لقرون مضت . ففى أيام ليو كان سكانها أكثر ثروة وحضارة من غيرهم ، وعلى مثال تمبكتو وجاو كستها شهرتها فى المغرب جلالا لم يكن يضاهى ، إلى حد أن كلابرتون الذى كان أول أوروبى يسجل زيارته لكانو ، اعتقد أن دخول مدينة مشهورة كهذه مناسبة جديرة بالتخليد ، فقد كتب يقول (لبست حلة بحرية وجعلت نفسى رشيقاً بقدر ما سمحت الظروف . وفى الساعة الحادية عشر دخلنا كانو العاصمة العظيمة لمملكة الهوسا ، ولكنى لم أكد أجتاز الأبواب حتى شعرت بالخيبة المرة . فمن الوصف العظيم الذى وصفها به العرب توقعت أن أرى مدينة ذات عظمة مدهشة ولكنى وجدت على العكس أن المدينة تبعد قرابة ربع الميل عن الأسوار ، وتفرقت مساكنها إلى مجموعات متباعدة فى مجموعات كثيرة بينها برك عفنه من الماء ، وضاعت حتى جميع المشاق التى تحملتها فى عمل زينتى لأنى

لم أجد فرداً واحداً يدير عينه لينظر إلى ، بل كان كل واحد يهتم بعمله الخاص ، مما سمح لى أن أمر بجانبه دون ملاحظة أو إشارة .

وكانت زيارة كلابرتون لكانو قد حدثت فى فترة الإنتعاش التى أعقبت حوادث الهوسا المثيرة . فنى بداية القرن التاسع عشر كان الجوبروا فى أقصى قوتهم فى الشمال الشرقى . وكانت برنو السيد غير المنازع فى الشمال الشرقى . تتسود كلا من كانو ومملكة جوكون التى يسكنها الكاورارافا والتى غرقت فى الظلام ، وفى الجنوب كانت نوب لاتزال مستقلة ، ولكن الحروب الأهلية قد أضعفتها ، وزاريا وكاتسينا كانتا مستقلتين إسمياً ولكن تحت نفوذ إن لم يكن تحت وصاية بورنو . وهكذا كان الموقف السياسى لولايات الهوسا حين هب الجهاد الفولانى عليها .

وصل الفولانى أو الفولبى كما يسمون أنفسهم إلى الهوسا من الغرب فى القرن الثالث عشر ، وكانوا مقسمين إلى البورورروجى Bororreje أو فولانى البقرة Cow fulaw وفولانى الجـــدا fulanin Gidda أى فولانى المدينة، وكان الأولون رعاة وكان قبولهم للوثنية وعزوفهم عن الحياة المستقرة قدمكناهم من أن يحتفظوا بدرجة عالية من الثقافة العنصرية ، بينما كان الآخرون مسلمين يحبون الحياة فى المدينة والقرية ، مما أدى بهم إلى التصاهر مع شعوب مختلفة سكنوا هم بينهم ، ففقدوا سحنتهم الشاحبة والمميزات التى تميز بها جنسهم البورورروجى . والفولانى كاليهود والغجر شعب لا وطن له لم يتفرقوا — كالغجر — إلى مجموعات قبليـــة بالرغم من قرون التجول .

ولم يزعج تسرب الفولانى إلى الهوسا أحداً ، إذ حافظ البورورجى على عزوفهم التقليدى ولكن فولانى الجدا إستقروا فى المدن والقرى وتصاهروا

إلى أهلها كعادتهم، وتكاثر عددهم بمن قدم إليهم من الغرب لمدة طويلة، حتى إذا كانت نهاية القرن الثامن عشر كونوا عنصراً ماسباً فى السكان — وبسبب تفوقهم الثقافى شغلوا كل المراكز العالية ذات النفوذ، وبالرغم من هذا فقد احتفظوا باحتقارهم التقليدى الذى يكنه الزراع للبدو والبعض للزنوج وقبل فولانى الجدا كنوع من الأرستقراطية وقدر زراع الهوسا البوروروجى من أحل زيدهم ووفرة قطعانهم .

وكانت أحد عشائر الفولانى الجدا ذات الأثر الكبير هم زنوج التوروكى Torkoe أو تورنوكاوا وهم أهل تورو فى حوض السنغال التى هى أول مواطنهم المعروفة، حيث اكتسبوا بشرتهم السوداء عن طريق الزواج من الزنوج المحليين . ومن تورو هاجروا تدريجياً نحو الشرق، تاركين خلفهم مواطنهم عند أعالى النيجر وأواسطه حتى وصلوا جوبر حيث اتخذوها موطناً لهم وتحركت إحدى عشائرهم إلى اداماوا فى حوض بنوى .

وينتمى عثمان بن فوديو بطل فولانى الهوسا الوطنى إلى تورونك جوبر . ولد فى سنة ١٧٥٤ ونشأ مسلماً متمسكا بعقيدته على المذهب المالكى، وأراد أن يرضى عاطفته بالدين الملتهب، باتخاذه حياة الدعوة وكانت طيبته وجاذبيته الشخصية سبباً فى أن يكسب تلاميذاً وخاصة فى جوبر، حيث تشدد فى مهاجمة ارتداد الجوبريين عن الإسلام إلى وثنيـة أسلافهم هابى، فأثار سخط تافاتا ملك جوبر الذى كان نصيراً للوثنية، فأصدر تافاتا قراراً بأن من يولد مسلماً ليس له الحق فى ممارسة الديانة الإسلامية، ومنع لبس الرجال للعمائم والنساء للحجاب، ولكن لم يكن هناك عداء صريح أو صراع بالذراع حتى خلف يونفا Yunfa أباه نافاتا، وكان هذا تلميذا لعثمان أو كما يسمى الآن شيخا، ورأى نفوذ معلمه القديم فى ازدياد مهدداً عرشه : فتآمر على قتله . ولكن فشل المؤامرة أكسبت الأستاذ مزيداً من العطف

حتى لقد أصبح بطلا شعبيا ، وإزاء ازدياد مد السخط عليه سار يونفا إلى مدينة دجل حيث عاش الشيخ ، واضطره إلى الهرب . ويحدد ٢١ فبراير سنة ١٨٠٤ تاريخ هجرته أو هرب الشيخ من دجل Degel إلى جودو Judu ، حيث التف حوله تلاميذه الكثيرون ، حتى لقد وجد نفسه على رأس فرقة كبيرة من المحاربين ، كلهم يشتعل بالحماس الديني لسيده ومستعد لأن يبذل حياته من أجل قضيته .

وفى يونيو من السنة التالية هزم المسلمون يونفا وجيشه على شواطىء تابكن كووتو Sabkin Kwotto ، وأقسموا وهم لا يزالون فى أرض المعركة يمين الجهاد ضد الكفرة ، وأعلنوا قائدهم أميراً للمؤمنين أو ملكا للمسلمين وهو اللقب الذى حمله أسلافه السلاطين الحاكمون لسكوتو . وصرح الشيخ (لا تدعوا أحداً يظن إنى قبلت هذا المنصب كى أكون أكبر من أى فرد أو لكى يتسود عبدى الآخرين) .

وتسببت هزيمة الجوبريين فى انتشار الخطر . وتنبه ملوك كاتسينا وكانو وزازاو وداورا وأدار إلى خطرهم ، فانقض كل منهم على أنصار الشيخ فى بلده ، وقام الفولانى ضد ملوكهم ، واشتعلت الحرب الأهلية فى البلاد ولكن لم يكن كل الفولانى فى صف الشيخ . بل انضم بعضهم إلى جوبر بينما وقف كثير من الهوسا بين صفوف جيش الشيخ .

وباستئناف الجهاد أعطى الشيخ لكل من يثق به من أنصاره علما باركه ، وأمرهم أن يخلصوا العالم من الكفرة . فسرعان ما كسبوا لأنفسهم إمارات كاتسينا وكانو وزاريا وبرنو وهديجا وأداماوا وجومبى وكاتاجوم ونوب وايلورين ودورا وكازورا وبوشى ومساو والآن يكاد يكون كل حاكم لأحد هذه الإمارات سليلا لحامل العلم .

وبالرغم من هذا النصر على الجوبريين فشل الشيخ فى الإستيلاء على العاصمة الكالاوا Al kalawa ، ثم هزم بعد ذلك هزيمة منكرة عند تسنتسوا Tsuntsuas ، وبالرغم من ذلك مازال سيل الأنصار ينصب عليه من أجزاء بعيدة عن الهوسا ، وقبل مرور وقت طويل أصبح له جيش أكبر من كل من تجمع حوله من قبل، فسقطت له زاريا فى سنة ١٨٠٤ كما استولى على كاتسينا فى سنة ١٨٠٥ بعد حصار طويل . وفى نهاية العام هزمت قوات الفولانى ملك كانو فى معركة ووضع فى القيد كثير من جيش كانو الذى بلغ عشرة آلاف من حملة الحراب ، ولم يعد حملة الدروع أكثر من بقايا غير نظاميين تحت ضغط حملة الأقواس من الفولانى واحتلت مدينة كانو دون معارضة . وفى نفس العام هزمت قوات الشيخ هزيمة نكراء فى ألواسا Alwassa بالقرب من جواندو gwandu . وتغلب عليهم خليط من الجوبريين الكباوا Kebbawa يسندهم الطوارق واشتد المنتصرون فى ضغطهم حتى لقد أصبح مركز الفولانى دقيقا .

وفى سنة ١٨٠٦ حاول الفولانى من جديد محاولة ناجحة ليكسروا قوة الجوبريين بالإستيلاء على عاصمتهم ، ولكن فى سنة ١٨٠٨ بعد تجهيزات قوية استولى بلو بن الشيخ على المدينة وذبح يونفا ، وبسقوط الكالاوا التى لم تفق منها جوبر مطلقا لم يكن هناك ما يهدد سلطة الشيخ الذى أصبح مقامه أكثر ارتفاعا بوصول ابر ملك أغادس وهو طارقى سليما من كل أذى، وكان قد قدم جنوبا خصيصا ليقدم خضوعه له . ويعد الطوارق هذا علامة تقدير لفاتح الدولة التى ظلوا يمارسون فيها حق الرعى الذى هو أساس اقتصادهم ، فأظهر ذلك للهوسا أن أى معارضة جديدة لن تجدى .

ولكن الشيخ لم يعد يشعر بالأمان طويلا ما دامت قوة برنو التى تقع على حدوده الشرقية لم تحطم . وخاصة أن بعض زعماء الهوسا كانوا لا يزالون

يتطلعون إلى المساعدة . فلم يضيع وقتاً فى السير ضد أهل برنو فهزم جيشهم ولكنهم — كالهوسا — اتجهو إلى الشرق طلباً للمساعدة من كانم التى كان يحكمها رجل ذو مقدرة كبيرة . وهو محمد الأمين أو الشيخ لامينو وهو المعروف فى التاريخ باسم الكانمى،وكان مسلماً متعصباً ولكنه يدرك أن إيحاءات الفولانى لن تقنع بفتح بورنو،فسار جنوباً وأعاد الفولانى إلى الهوسا. وعندما جددوا هجماتهم استطاع أن يخلص الدولة منهم ، وبالرغم من أن الفولانى استمروا يغيرون على برنو واحتلوا منطقة كبيرة على حدودها الغربية بنجاح عظيم إلا أنهم لم يهزموا الدولة .

ومنذ الأيام الأولى للجهاد كان الشيخ يتخذ من سكوتو مركزاً لقيادته ، ورغم أن الانتعاش قد أسبغ على سكوتو جواً محترماً من القدم بدليل إشارة زوجدى Zogde صاحب خريطة كاتالان فى سنة ١٣٧٥ وساجوتو فإنها لم تكن أكثر من معسكر للصيادين عند أقدام شجرة التمر هندى التى ظلت حتى سنة ١٩٥٠ ترى فى رحاب المسجد وظلت مجرد معسكر حتى سنة ١٨٠٩ حين بنى بلو المدينة الحالية التى ظلت مركز ملك المسلمين[١] .

وكانت سكوتو أقرب ما تكون إلى الحدود القريبة لأملاك الشيخ الجديدة فلم يكن من المدهش أن تكون السنة التى بنيت فيها المدينة شهدت أيضاً فتح دندى Dendi ، بواسطة الشيخ ووزيره المدعو عبد الله الذى طارد الأعداء الهاربين عبر النيجر . وكتب عن ذلك بلو يقول (وعندما وصلنا النهر

---

(١) وقد تكون سكوتو اسما لمنطقة وفى يونيو سنة ١٦٩٤سمع عمن تدعى عايشة Ayesha زعيمة قبيلة من الفولانى حملت اسم سكوتوما ومعناها حاكمة سوكوتو (بالمر برنو الصحراء والسودان . ص ٣٩) .

خضع النهر لنا حتى اجتزناه. وعبرناه مرة أخرى، وفى ذهابنا وعودتنا لم تصل المياه إلى أعقابنا .

وبالرغم من هذه الحادثة (حين نتذكر أمثال هذه الحادثة فى التاريخ وخاصة عبور الإسرائيليين للبحر الأحمر والاسكندر لبحر بانفليا) قد أصبحت تسمى العبور العجيب للنيجر، فهى ليست عجيبة كما تبدو، فبارت قد ذكر أن النيجر يمكن عبوره فى بضعة أماكن بين توساى Tosaye وجاو، كما وجد الكابتن هل أحد أعضاء حملة حقل الزيت أنه عند نقطة التقاء النيجر بالبنوى يمكن عبور النيجر سيراً على الأقدام.

وإلى الغرب من النيجر كان هناك كثيرون من الفولانى بينهم عشيرة فورونكى حيث كسب الشيخ كثيراً من الأنصار، ولكن تأثيره فى منطقة حنية النيجر لم يكن كبيراً بالرغم من أنه مارس سيادة إسمية على منطقة لبتاكو Liptako، حيث كانت دورى Dori تلعب دور المدينة الرئيسية، وبين أتباع الشيخ المبكرين كان هناك من يدعى أحمدو لوبو Ahmadu Lola وهو عالم من الفولانى أو ماسينا وقد عرف فيما بعد بالشيخ أحمدو ولما عاد من جوبر يشتعل من حماس شيخه للإصلاح اضطهده هو ومن تجمع حوله من تلاميذه أردو Orde ملك ماسينا الفولانى، وأرما ملك جنى Arma of Jenne فاكسبه هذا الاضطهاد عطف كثيرين من السكان فأزعج أردو إلى حد أنه طلب المساعدة من سيدة ملك سيجو البامبارى . كى يكبح جماح مد الاضطراب الزاحف أعلن الشيخ الجهاد، وهزم جيشهم وبالرغم من تفوق أعدائه عليه فى العدد — وحرر مسينا للمرة الأولى منذ القرن السابع عشر من وصاية سيجو البامبارى . وأرسل الشيخ — بعد أن أصبحت حياته صورة طبق الأصل من حياة سيده اثنين من أخواته يسألان بركة الشيخ عثمان، فمنحهما إياها ، بعد ذلك تيقظ الاعتقاد الراسخ فى أن الشيخ أحمدو كان أحد حملة إعلام الشيخ

فضم ذلك إلى صفة هؤلاء الذين ظلوا مخلصين لأردو فأسلموهم أسرى . فأصبح الشيخ الآن سيداً غير منازع لسبينا، فحمل كسيده لقب أمير المؤمنين وجعل مركز قيادته فى قرية تدعى حمد الله . وسار فى حياة الفتح،الأمر الذى جعله سيدا لأملاك متسعة امتدت من تمبكتو حتى الفولتا الأسود .

وفى سنة ١٨١٠ اكتمل جهاد الشيخ عثمان . وككل غزاة السودان وجد الفولانى أنفسهم غير قادرين على اختراق غابات الجنوب . وكان هذا الحاجز الطبيعى فى مثل هذه الحالة قد أصبح أكثر قوة بواسطة قوة اليوروبا الحربية المناسبة،وعلى طول مجرى البنوى بواسطة القبائل القوية الوثنية ساكنة التلال مثل السورا Sura والتنجالى Tongale . فى الشرق وصل الفولانى إلى بولا واحتلوها ، وفى الشمال الشرقى وبالرغم من اختراقهم لطرق بورنو فإنهم لم يتسودوها . وفى الغرب استمروا يهزمون الكيبارا الذين ما زالت روح الكانتا حية فيهم بالرغم من قربهم إلى مواقع الفولانى الرئيسية الخصبية . إذ سقطت مدينتهم الهامة برنين كبى Bernin Kebli فى يد الفولانى من أيام الجهاد الأولى ، ولكن بالرغم من خضوع كثير من الكيباوا فقد كان هناك جماعة من الخارجين الذين احتفظوا باستقلالهم — فى أرجنجو Orgungu يقودهم أفراد طائفة الإسماعيلية إلى وقت مجىء البريطانيين أى بعد ذلك بقرن بالرغم من وقوعهم بين عاصمتى الفولانى التوأمتين سكوتو وجواندو .

أما وقد رضى الشيخ بما وصل إليه،التفت إلى تنظيم وإدارة إمبراطوريته فقسمها إلى قسمين ، شرقى عهد به إلى ابنه بلو،وغربى وضعه تحت يد أخيه وزيرى عبد الله . وجعل الأول سكوتو مركز قيادته بينما اختار الثانى جواندو فى إقليم كبى ، وبين الاثنين تقع كيباوا الحصينة فى أرجنجو ، ولقرن تال حكمت إمبراطورية الفولانى من هاتين العاصمتين التوأمتين واستمدت الحكومة قدسيتها من الشريعة الإسلامية . وظلت كذلك فى الهوسا. وكانت

الضريبة ومعظمها من الرقيق تدفع سنويا إلى سكوتو وجواندو ، وكان على الأمراء تزويدها بالجيوش المطلوبة وطالما أديت هذه الخدمات بانتظام حرصت الحكومة المركزية على التدخل بقدر يسير فى شؤون الإدارات .

وإذا ما تم تنظيم هذه الإمبراطورية ، شعر الشيخ أن واجبه الدنيوى قد انتهى ، فأمضى ما بقى له من العمر فى خلوة يجد خطتها وإدارتها فى الدرس والتجهد الرضى لروحه غير الدنيوية أكثر من الحوادث المثيرة التى سبق أن خططها، وسيظل اسمه مقروناً بالشرف فى الأرض التى تسودها من أجل تحقيق مثله العليا . وكان تأثيره واضحاً خلال حياته كما كان اسمه موضع الإكرام فى الجزء الأكبر من السودان الغربى ولكنه الآن يكاد ينسى ولم يخلد ذكراه وأعماله أفضل من مذكرات المستر دانيل الذى كانت تجاربه الطويلة كإدارى فى إمارات الفولانى تعطى وزناً لكلماته . فقد كتب يقول : (عاش الشيخ ليرى خاتمة أعمال حياته . وجد الإسلام تحت النير، فارتفع به إلى عليين وبعد أن كان الفولانى قطيعاً من البدو، أصبحوا الطبقة الحاكمة فى إمارات الهوسا . وكان رجلا مخلص العقيدة ذا إيمان دينى عميق ، وثقته فى الدعوة الإلهية لا حد لها ، وشخصيته تبعث الحياة فى أنصاره فى ثقة شبيهة بثقته فى نفسه . وعاداته البسيطة وحياته الزاهرة خلقت تضارباً عميقاً مع الفخامة البربرية التى تأثر بها الحكام الوثنيون . وهو وإن لم يكن جندياً فهو يعزو نجاحه إلى الله . وبعد تقسيم إمبراطوريته انسحب من القيادة العاملة وكرس نفسه لحياة الدرس أولا فى سيفاوا Sifawa ثم فى سكوتو . وهناك مات فى سنة ١٨١٧ ودفن بين أسوار المدينة حيث قبره لا يزال يحج إليه) .

وقد اتهم الفولانى أعداؤهم ودون تحرز باستغلال الدين للوصول إلى القوة السياسية، ومن بين هؤلاء الكانمى وهو مسلم مخلص . ولكنه أعلن تهم الفولانين ضد متهميهم ، ولكن أنكر أنهم كانوا خطراً يجيز الجهاد، فالكتاب

الذى ألفه بلو (اتفاق الميسور) يعلن الإخلاص المطلق للشيخ ، ويضع الأصل الدينى الحقيقى للجهاد فوق الشك ، وكان أثر الحركة أن جمع الفولانى المتفرقين وربطهم فى رباط واحد ضد الهوسا . مما أعطى الجهاد ميزته القومية . ولكن لم يكن هذا ولا المساوىء التى اتهم بها الفولانى بكافية لأن تبدد الظلام حول الهدف الكبير التى رسمه .

وخلف الشيخ أبنه بلو الذى قضى العشرين سنة التى حكمها فى سحق الثورات التى قامت فى وجه الحكام الجدد ، وكان إداريا قديراً بل كان أكبر سلاطين سكوتو بلاجدال ، وكانت رعايته للفنون هى التى جذبت إلى قصره الدارسين من جميع الأقطار ، ومن بين من قدم تحت تأثيره الحاج عمر المجاهد التوكولورى الذى كسب لنفسه مملكة كبيرة فى أعالى النيجر فى منتصف القرن،وكان قد قضى شبابه فى سكوتو تزوج إحدى قريبات بلو حين عاد من مكة .

وحين مات الحامل الأول للعلم بدأ الفولانى يفقدون حماسهم الدينى،وحملت ثمرة انتصارهم كما هو الحال غالبا فى التاريخ بين ثناياها ضعفا فى كل الصفات التى دانوا ببعضها لانتصارهم على ولايات الهوسا .

وكما ذكر أحد العرب الطرابلسيين لكلابرتون،أن زعماء الفولانى قادوا شعبهم خلال المعارك حين كانوا فقراء ، ولكنهم منذ أن أثروا فضلوا أن يظلوا خلفه ودفعوه هو إلى الأمام، حين أصبح هؤلاء يملكون الإقطاعات محاطين بالرقيق والخصيان والخليلات يزرعون المزارع الواسعة التى أقاموا عليها أقرباءهم يباشرونها . وظل الجهاد ضد أعدائهم مستمراً ولكنه هبط إلى أن أصبح مجرد تجارة فى الرقيق وما أن انتهى الحماس الدينى حتى أصبح الفولانى ضحايا ثورات متعاقبة من الذين أخضعوهم وعندما ازداد عجزهم حتى عن أن يغيروا على جيرانهم،انحطوا إلى استرقاق فلاحيهم . ومن الجهاد والحكم

البريطانى استمر استجلاب الأمراء للرقيق من أجل أن يرضوا رغباتهم المحلية ولكى يحولوه إلى سلعة تجارية فى أسواق الرقيق ، مما أدى إلى هبوط عدد السكان وإلى خراب المساحات الواسعة التى فى أيديهم وخارجها ، وبالتدريج فقدت الحكومة المركزية كلا من الرغبة والقوة فى تسود الأمراء وسحق قوتهم . وعندما قدم الحكم البريطانى فى بداية القرن العشرين وجد كثيرين من الأمراء يهددون الملوك المسلمين .

وبالرغم من إنتشار التدهور والفوضى، كان هناك لحسن الحظ قليل من القادة من الفولانى الجدا الذين استمروا متمسكين بالتقاليد النبيلة للشيخ، والذى زودوا الأجيال التالية بالايحاء . وانعكس هذا فى التميز الذى ظهر فى شغل كثير من الفولانى لمراكز ذات مسؤولية كبيرة، تحتاج إلى كفاءة إدارية ، واستمر اليوروحى الذين لم يكونوا قد لعبوا أى دور فى هذا الارتفاع السياسى الذى جلب القوة والثروة لأقربائهم ، يرعون قطعانهم بين الأشجار ومازلنا نجدهم يعيشون نفس المعيشة البسيطة التى عاشها أسلافهم ويحتفظون بنقاوة عنصرهم التى فقدها الفولانى وإن لم تكن ضرورية لفنائهم .

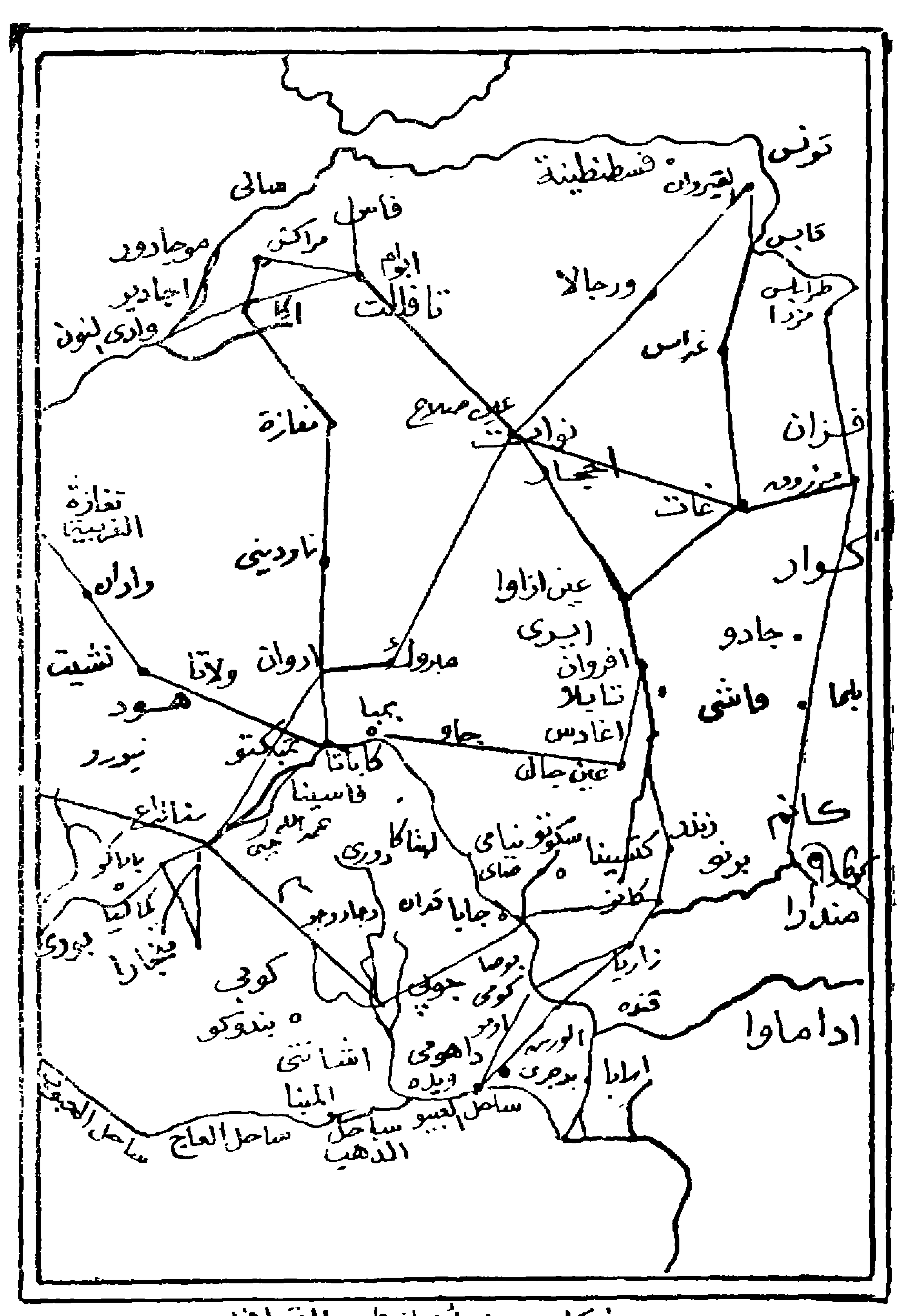


(٢٢)

آخر القـــوافل

تحالفت رغبة العالم الغربى فى الحصول على منتجات إفريقيا مع الغريزة التجارية لشعوبها، سواء من يقطن منهم شمال الصحراء أو جنوبها ليجعلا من التجارة الخارجية عاملا مسيطراً فى تاريخ الركن الشمالى الغربى من القارة، فقد وصلت التجارة بين طرفى الصحراء، التى هى أكبر الحواجز للانتقال البشرى وربطت المغرب بالسودان من أجل إثراء كليهما . فكانت تجارة الصحراء بمثابة مغناطيس جذب إلى المغرب تجار أوروبا ، وملأ الموانى كما ملأ طرق الساحل المغربى من طرابلس حتى أغادير بسفن المسيحيين ، وقد حملت إلى السودانيين مع منتجات البحر المتوسط ثقافة مسلمى الشمال ، وهى التى تحكمت أكثر من أى شىء آخر فى تطورهم الاجتماعى والسياسى ، وأوحت التجارة أيضاً بالتقدم الذى به رفع الحجاب عن الداخل أمام العقول الغربية المنقبة بعد قرون من الجمود والتأخر . وعلى أثر المستكشفين المنتصرين أتى مواطنوهم فى قوة مسلحة ليغزوا ويحتلوا وليغيروا تدريجيا طابع الحياة الإفريقية . ولم يكن هناك من حقل للنشاط البشرى تأثر بمجىء الأوروبيين أكثر من تجارة الداخل، التى كانت حتى هذا الوقت مستبعدة تماما ، فطرقه وقواربه وسككه الحديدية فتحت المخارج إلى ساحل غانة وصرفت التجارة عن طريق السودان وخربت طرق القوافل، وهى الوسيلة القديمة لانتقال التجارة والثقافة ومن الأفضل إذن أن تلقى نظرة أخيرة على تجارة الداخل كما وجدها المستكشفون عندما كانت مظاهرها العامة مازالت كما كانت منذ قرون .

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كان الجزء الأكبر من حركة



شكل ٧ أهداف طرق القوافل
في القرن التاسع عشر

القوافل بين الساحل المغربى والسودان مركزاً على ثلاث طرق لا بد أنها تعد من أقدم الطرق فى العالم . طريق تغازة تمبكتو فى الغرب وغدامس وايرى إلى الهوسا فى الوسط وطريق فزان كوار إلى برنو فى الشرق . وهو طريق جارامانتس القديم ، وعلى طول كل واحد من هذه الطرق كانت هناك مراحل خالية من الماء لابد أن القوافل كانت تجتازها وهى معرضة للخطر ، وبالرغم من هذا فإن تجربة الزمن أثبتت أنها آمنة بقدر الطرق القصيرة للتجار . وكل طريق كان يستغرق شهرين لقافلة الجمال ، ومن وقت لآخر استعملت طرق أقصر ولكن لتهجر بسبب قلة المرعى أوالآبار أو بسبب اختلافات سياسة الصحراء، فى هذه الطرق الثلاث القديمة كانت هناك الثقة من العثور على الماء والمرعى، حيث كانت يتوقع، وفى وجه هذه الظروف الاضطرارية لم تكن الحروب أو السرقة لترغم قوافل التجار المسافرين بصفة دائمة على التوقف فقد تحملت كل هذا خلال العصور .

وكان أهم هذه الطرق هو الطريق، الممتد من تغازة إلى تمبكتو هو الشهير بتجارة الذهب، وما زال أهم الطرق من ناحية الثقافة وكان خراب سجلماسة فى السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر — وهى التى كانت تعانى التدهور منذ أيام ليو — قد منع هذا الطريق من نهايته التاريخية الشمالية ، إذا احتلت مكانها إلى حدما مدينة إبوام المجاورة، ولكن ترك أغلب التجارة تافيللت واتجه بعضها إلى عين صلاح عاصمة توات التى كانت سهلة الوصول إليها من مراكش على طول وادى سورة ، واتجه بعضها الآخر غربا إلى لكتاوا Lektawa فى وادى درعة وإلى وادى نن Nun وهو مركز جديد يقع بالقرب من الساحل على بعد بضعة أميال من رأس نن الذى أسسه بعض اللاجئين فراراً من ظلم الاضطهادات التى أوقعها بهم سلطان منهم .

وقد سافر التجار المشتغلون بالتجارة من وادى نن وابوام مع السودان

عبر عكه Akka التى ورثت أعمال سجلماسة،فى تهيئة وتجهيز قوافل الصحراء . منذ هذا الوقت على طول الطريق القديم عبر تغازة وتاوديني إلى تمبكتو . فبدلا من الإتجاه غربا إلى تاوديني ثم ولاتا (مثل وادان التى اضمحلت الآن وإن كانت لا تزال تذكر من أجل صياغها) تبع الطريق المنهج المباشر عبر وادان ، وهنا التقى به طريقان آخران أحدهما يشق ثوات ومبروك إلى تمبكتو والاخر يأتى من سنسادنج Sansadnig على النيجر الأعلى ولم تقلل الحركة خلال القرون من أخطار طريق تغازة — تمبكتو . ففى سنة ١٨٠٥ هلكت عطشا قافلة مكونة من ألفى رجل و ١٨٠٠ جملا كانت عائدة من تمبكتو على هذا الطريق ولم ينج منها إنسان أو حيوان .

ويدين هذا الطريق الذى يسوده عرب البرايش باستمرار انتعاشه إلى الذهب والملح غير المجروش الذى فى الداخل،وقد قيل كثير عن تجارة الذهب وأيضا عن حركة الانجار فى الملح . ولكن انتشرت أكثر ما يكون عن تجارة الذهب ، وكان الملح للافريقيين أكثر أهمية بكثير، حتى لم يعد هناك من الأقوال أكثر من أن الذهب كان يقدر بواسطة السودانيين كقوة شرائية للملح. وبشدة طلبهم له الأمر الذى لم يكونوا بقادرين على سده. فكان أساس تجارتهم الداخلية والخارجية،ولم تكن أحد منهما تتم تماما دون الأخرى مما ينم عن شدة احتياجهم لهذه المادة الضرورية لحياة الإنسان .

وعبارة البكرى أن الفراويين Ferawi اعتادوا أن يبادلوا بالذهب ما يوازى وزنه ملحا،لم تكن مبالغة كبيرة فهناك عبارة مشابهة عن مالى عن بعض خرائط يهودية تمت الى السنين الأولى من القرن السادس عشر ، سواء كانت أو لم تكن ترديداً لعبارة البكرى . ومنذ قرن واحد فقط وجد أحد المسافرين الأوروبيين وهو الفرنسى رافينل Raffenel نفسه يعانى قلة الملح فكان مستعداً تماما لأن يعقد نفس الصفقة،وهؤلاء الذين عاينوها يستطيعون

أن يتبينوا شدة الاحتياج للملح لهؤلاء الذين حرموا من الحصول على كمية مناسبة . ففي السودان الغربى كان الملح من الأشـياء الـكمالية التى لم يحصل عليها إلا الأغنياء

ولم تكن موارد الملح الوحيدة الطبيعية فى كل غرب السودان فقيرة، ولكنها مركزة فى منطقة صغيرة فى وسط الإقليم تماما،إذ أنها كانت حقول الملح فى دلول فوغا Dallul Fogha فى دندى وجارتها فاداما Fadama أو مستنقع برنين كبي Bernin Kebbi وكانت ذا التربة المزوجة بكميات وافرة من الملح إلى حد أن يصبح الحصول على الملح سهلا بطريق التبخير ، ولكن هذه كانت موارد فقيرة وكافية فقط للحاجات المحلية ، وفى مكان آخر كان يمكن الحصول عليه عن طريق التجارة ، أما اذا استحال كما كان يحدث كثيراً مع القبائل الضعيفة المعزولة . فكان يمكن الحصول عليه فى كميات صغيرة من بين هشـيم الحشائش والذرة وبعض الشـجيرات ومن مخلفات الماشية .

ويجب أن نتذكر أنه حين أخرج المغاربة صنغاى من تغازة فى القرن السادس عشر فإنهم فتحوا مناجم شهيرة فى تاوديني . وأصبحت إلى حد ما [1] المورد الرئيسى لتموين ممالك السودان الأوسط،وكانت تحمل نهراً إلى باماكو التى وجد بارك أنها كانت تمون من تاوديني ، وبملح البحر من ريوجراندى . وكان يحصل على الملح أيضاً من سبكة عجيل فى الصحراء إلى الشمال الغربى، ولكن الصحراء كانت مورداً لا ينضب يعتمد عليه كحاجة ضرورية للحياة، وكانت المناجم عرضة للهجوم عليها من المغيرين ، وكمياتها تحت رحمة سياسة الصحراء كما كان المشتغلون بها عرضة للموت إذا لم تصلهم المؤونة فى الوقت المناسب كما حدث فى بعض الأوقات فى تاوديني . وفى بداية القرن التاسع عشر

(١) مازال أهل تمبكتو يحصلون على كفايتهم من الملح من تاوديني .

أدت هذه المخاطر إلى تصدير الملح من مراكش إلى السودان حيث بادله المغاربة بمعدل رطل من الملح مقابل أوقية من الذهب .

وتدين تمبكتو بانتعاشها إلى الذهب والملح كما فعلت الطرق القديمة التى كانت تمبكتو فى نهايتها . فلا النمو ولا الصناعة بل اعتمدت على ما يرد إليها من الطعام وعلى تجارة المرور فكانها كانت إذن مخزنا يستمد أهميته من موقعه فى نقطة تسهل الوصول إلى النيجر من المغرب ، وإلى مركزها الصحراوى فى واحة توات . بينما جلب إليها طريق تغازة الملح وتجارة الذهب من البحر المتوسط الأرز من النيجر والذرة والذهب والرقيق والعاج وحبوب الكولا من سانسا تدنج وجنى ، وربطها بمصر طريق الشرق وسار هذا الطريق عبر ايرى وغات إلى غدامس وسيدامس الرومانية ، وما زال للتجار سيطرة وثيقة على التجارة فى الداخل ، وفى أيام بارث كانت تمبكتو تستورد حبوب الكولا من تنجريلا Taugrela وهى بعيدة فى ظهير ساحل العاج والقطنيات الإنجليزية والأدوات الحادة من موجادور ، وكانت تتاجر أيضا مع الوكالات الأوربية فى السنغال ، وأنهار غمبيا عبر سنسا ندنج وباماكو كانت المدى الجغرافى واتساع تجارتها الخارجية ملفتا لأهميتها .

يحتمل أن يكون طريق غدامس ايرى أقل قدما من طريق تغازه حيث يمر فوق طرق صخرية تبرهن مساراتها الممزقة على قدمه وعلى ثقل الحركة التى دارت فوقه ، ويبدو أن طريقها لم يختلف فبين غدامس وغات سيطر طوارق ازجى المتوحشون Azgei Tuareg — فى النصف الأول من القرن الماضى — وفيما بين غات وايرى حيث تمر أسوأ طرق الصحراء فى العالم تقع منطقة كل أوى فى منتصف الطريق . وفى أزاوا أو اسيو Asiw يتصل بها طريق توات ايرى الذى اخترق رصيف أحجار وتحكم فيها طوارق الأحجار. ويدحل الطريق الرئيسى إلى ايرى فى ايفروان

وكانت نقطة اتصال هامة ، لأن الطريق هنا متصل بطريق الحج Iefruan القديم القادم من تمبكتو الذى يدخل ايرى من عين جال In gal ماراً بأزاوا Azawa وغات ومرزوق وعجيله وسيوه ثم القاهرة ، ولما كانت المنطقة حول أغادس غير مناسبة للجمال الثقيلة الحمل ، فإن الطريق دار حول العاصمة التى تقع إلى الغرب منها ببضعة أميـال . وكانت نهاية الطريق الجنوبية هى كاتسينا، ولكن حلت كانو محلها فى الفترة التى تلت جهاد الفولانى وكسوق رئيسية للهوسا ، وامتـد الطريق إلى الأولى . ولكن عن طريق زندر Zunderوبالمرور على كاتسينا وكان يتحكم فيه بين كانو وايرى طوارق كل جرس Kel geres .

وفى أيام امبراطورية صنغاى انتعشت أغادس كمخزن رئيسى لتجارة ذهب جاو، التى جرت مع طرابلس ومصر،وقضت فتوح المغرب على هذه التجارة وأقفرت أغادس ، ولكن تركت لها أهميتها السياسية دون أن تتأثر، وما بقى لأغادس من الإنتعاش فى القرن التاسع عشر فإنه جاء أساسا من تجارة الملح من كوار الهوسا . ويدين شعب أغادس لسيطرتهم على هذه التجارة المحلية المربحة إلى أساسهم الرعوى فى أرض المراعى التى أمدت بالغذاء القطعان الكبيرة من الجمـال التى لم تكن تجارة الذهب لتسير إلا بها ففى كل خريف تخرج قافلة كبيرة تعرف بعزلاى Azlai أو تغالام Taghalam من ايرى بحثا عن الملح من بلما Bilma عاصمة كوار لأسواق الهوسا . ولا يحتمل أن يكون لمكان آخر فى العالم فرص تجارية تقارن بتلك التى مع العزلاى إذ لم تكن تقل عن عشرين ألف جمل والتى استمرت حتى سنة ١٩٠٨ حين أخذت فى التدهور .

وكان يسبق قيام العزلاى تجهيزات كبيرة،فاجتماع عدد كبير من الجمـال وأغلبها من كل جرس وقبائل ايتسان Itsan استلزم وقتا طويلا إذ كانت

تجتمع فى تابلو Tabello فى وسط ايرى حيث كانت هناك مراعى كافية لهذه الرحلة الشاقة ، بالرغم من أن الرحلة الدائرية إلى كوار والعودة إلى ايرى كانت تستغرق ثلاثة أسابيع كما كانت تتطلب طاقة كبيرة وطريق عزلاى كانت تدل عليه أكوام كثيرة من هياكل عظام الجمال .

ومن الطبيعى أن القوافل الكبيرة كانت عرضة لأن يصيبها الكثير ، فهى عرضة لأن ينقض عليها الطوارق ، وهم وان لم يكونوا مهتمين بالإغارة نفسها إلا أنهم يستفيدون فائدة كبيرة على حساب تجار الملح .

وخرج العزلاى فى اكتوبر يقودهم الملك توراوا Twrarwa ملك أغادس ووزير أمينو كال Aminoka: أى السلطـان . وحملت من القمح والأقمشة من الهوسا ليعادلوا بها الملح وكميات كبيرة من العلف إذ لم يكن هناك مرعى فى كور Kauar حيث كانت الجمال القليلة تتغذى على البلح ، ووصلت فاشى Fachi وهو مركز خارجى من كور بعد خمسة أيام ، وهناك انضمت إلى العزلاى قافلة أخرى من داماجارام Damagaram ودخلت بلما بعد ثلاثة أيام . وفجأة ظهر شيء عجيب غير عادى . فالحداء الذى تعود المجاورون أن يستعمله لتحذير أهالى بلما قبل وصول القافلة ليومين : أعلن عن وصول العزلاى كما اعتاد أن يعمل عند وصول قافلة كبيرة غير عادية من الغرب[1] وتتبع القافلة عند عودتها الى ايرى نفس الطريق . وبعـد أن استراحت فى أغادس وعلى رأسها جزء كبير من العزلاى ومعهم ملك توراوا اتجهت جنوبا الى سكونو ثم إلى كانوا حيث

---

(١) كانت هذه الظاهرة غير العادية تبدو أنها تنتمى إلى نفس النهاية مثل الرمال الحادبة . وهى إلى حد ما تقارن بتلك فى روس شاير Ross Seire يصرح كل إلى الآخر واستناداً إلى الدكتور فريزر رالج (حينما حول الثلج تهب رياح من الشرق بشدة ويتغير الجو وتخاف القدم) .

كان الملح يباع لتوزيعه على كل جهات الهوسا وما يجاورها وعادت الجمال إلى ايرى بالأقمشة والقمح[١] .

وفى القرن التاسع عشر كانت كانو المدينة التجارية الرئيسية فى السودان الغربى وأكثر أهمية من تمبكتو . وقد قدر بارت سكانها — سواء من الهوسا المقيمين أو العناصر الأجنبية التى كونت جالية كبيرة من العرب الطرابلسيين الأثرياء بثلاثين ألفاً . وعند قدوم الفصل الجاف وافتتاح الطرق التجارية يتضاعف العدد بمن يقدم إليها من التجار، وكانو مركز منطقة زراعية غنية تنتج من الطعام ما يكفى كل سكانها، بل تنتج أيضا فائضاً للتصدير، ولكنها تدين بانتعاشها إلى الصناعة والمهارة غير العادية لصناعها من الهوسا وخاصة النساجين والصباغين[٢] الذين أشتد الطلب على بضائعهم فى كل شمال وغرب أفريقيا . إذ كتب بارت يقول (وميزة كانو الكبرى هى أن التجارة والمصنوعات تذهب يدا بيد وغالباً ما تكون كل عائلة لها نصيب فيها . حقيقة أنه يوجد شيء عظيم فى هذا النوع من الصناعة التى تنتشر شمالا حتى مرزوق وغات بل حتى طرابلس، وغرباً ليس فقط إلى تمبكتو بل إلى حدما حتى سواحل الأطلنطى، وسكان أرجوين يلبسون الأقمشه المنسوجة والمصبوغة فى كانو أما فى الشرق فحتى بورنو بالرغم من أنهــا تنافس الصناعة المحلية للدولة ، أما فى الجنوب فلا نجد إلا الوثنيين العراة الذين لا يلبسون شيئاً) .

ومعظم مايرد إلى كانو من الشمال يأتى عن طريق أيرى والباقى عن كور

(١) لأجل قصه تجارة الملح فى الوقت الحاضر فى كور (أنظر مقالا للــكابتن جراندن مجلة إيفان الجزء ٣) ص ٤٨٨ — ٥٤٤ — ١٩٥١ .

(٢) كانت مهارة الصباغين موضع التقدير إلى حد أن الأقمشة التى كانت ترسل من غدامس إلى كانو تصبغها من أجل أسواق طرابلس . فجلود كانو ذات الألوان البراقة كانت تجد رواجاً واسعاً عند مساحل البحر المتوسط .

وبرنو وعدا الملح هناك خيط رفيع من حرير طرابلس وقدر كبير من البضائع الأوروبية وتتضمن الأخيرة قطنيات منشستر والحرير الفرنسى والخرز الزجاجى القادم من البندقيه وتريستا ، والورق والمرايا والابر من النمسا إلى جانب كميات من البهار والسكر والشاى . وكانت كانو سوقا هامة للنطرون القادم من تشاد وحبوب الكولا .

وكان سكان كانوا يتحكمون فى تجارة حبوب الكولا الثمينة التى يأتى معظمها من جوانجا Gwanga فى ظهير ساحل الذهب . وكانت هذه الحبوب التى تسميها الأهالى والتجار العرب الأوائل بالجورو تستعمل فى السودان الغربى منذ وقت مبكر . فالحبوب التوأم التى فى الداخل كانت تعتبر شعاراً للصداقة . ولم يكن يتم مجلس دون وجود الكولا . ولذا اكتسبت الحبوب أهمية فى الاحتفالات وأصبح الناس يقسمون اليمين على الكولا ، فالأفريقيون يعجبون بدقيقها المر ، فهى ولا شك تتحمل طول الرحلة ولذا فهى تعتبر — فى منطقة واسعة — علاجا للضعف . فبالرغم من مصاريف نقلها الكثيرة ، احتفظت بثمنها المرتفع وظلت لمدة طويلة مادة كمالية لا يستطيع الحصول عليها غير الأثرياء ، كما أصبحت — بل ما زالت — ضرورية لعدد كبير من السكان .

وكانت حبوب الكولا أحد ثلاث سلع تجارية اعتادت أن تخترق الجزء الشمالى الغربى من أفريقيا من غابة إلى شاطىء البحر المتوسط ، وكانت المواد الأخرى هى الخرز الزجاجى البندقى، والحرير الخام الطرابلسى الذى وجد طريقة إلى جوانجا لمبادلته بالكولا وإلى باداجرى على ساحل العبيد وقد أصبحت هذه الأخيرة المركز الرئيسى لتجارة الرقيق للأوروبيين .

وبين كانو وباداجرى لا يوجد طريق محدد تماما للتجارة . فالمدينتان منفصلتان بحزام من الأشجار والغابات المطرية تسكنه اليوروبا وبضع قبائل

أخرى أصغر شأنا وهم فى حرب دائمة مع بعضهم . وكان اجتياز هـذا الحزام يعتبر مخاطرة،ولذا تسربت التجارة فى خفة وسرية على طول الطرق غير المحددة . فمن المدهش ولو إلى قدر يسير أن نجد منطقة اعتبرها السودانيون صعبة الاجتياز قد اثبتت لعدة قرون أنها صعبة الاختراق أمام الأوروبيين المشتغلين بالتجارة على ساحل غانة ، وكان النيجر يعبر عند بعض المعابر للتى كان أهمها عند رباح بالقرب من جيا الحالية Jebba وكومى Komie (ونبجرك Wongerque) جنوب بوسا تماما . وكان هناك معبر آخر أقل أهمية بعيد نحو أعالى النهر عند إيلو Illo ، ومن كومى اتخذ طريقه إلى الشمال الشرقى عبر برنين جوارى وزاريا إلى كانو،بينما تتبع طريق آخر الضفة اليسرى للنهر عبر يورى إلى شمال غرب الهوسا ، حيث يلتقى بطريق الكولا الرئيسى القادم من جوانجا إلى كانو . وكان هذان الطريقان معا ومعهما ثالث قادم من واجادو وفادان جورما تكون أهم الطرق التجارية التى تقود إلى الهوسا من الغرب والتقت كلها بالقرب من جيجا أو عندها Jega .

وجيجا اليوم مدينة صغيرة جداً،ولكنها كانت — استناداً إلى بارت الذى كتب فى منتصف القرن الماضى — مكانا هاما ، وبسبب أهمية تجارتها جذبت أنظار أوروبا لسنين طويلة طيبة ، وقد فشل دلجان Diligent فى بحثه من أجل محاولة كشف كيف ومتى وصلت جيجا إلى أن تجذب الأنظار فى أوروبا فى عصر كان مايعرف عن هذا الجزء من أفريقيا قليلا،إذ لم يشر إليها كلابرتون أولاندر ولكن لا شك انها كانت هامة .

وشغلت جيجا فى الهوسا والأقاليم التى تجاورها مركزاً تجاريا يلى كانو مباشرة ، وهى بالاشتراك مع باماكو وواجادوجو وفادان جورما وجايا تقع على الخط الثانى عشر شمالا من خطوط العرض . وليس من المدهش أن تقع هذه الاسواق الخمسة الرئيسية كلها على نفس خط العرض أو قريبة جداً منه

ويخترق هذا الخط منطقة أحراش تفصل السافانا عن الغاباب . وهى تقسم هيفاين Hyphaene ومنطقة البلح فى الشمال عن منطقة نخيل الزيت فى الجنوب ،والحيوانات ذات السنم عن الحيوانات التى بدونه،وهى تحدد على وجه التقريب الحد الجنوبى لمنطقة النقل بالجمل والحدالشمالى لمنطقة ذباب تسى تسى[1] وأغلب من يسكن شمال هذا الخط مسلمون وإلى جنوبه وثنيون .

ومنطقة الأحراش الوسطى تسكنها قبائل ذات أصل مختلف ، يحبط بهم من الخارج مسلمون، ولكن من يسكن الوسط لهم ميـل كبير نحو الوثنية وعرض ومرونة نظراتهم الوثنية خلقت فى مدنهم جواً ملائماً للتجارة بين المسلمين المشتغلين بتجارة الرقيق والوثنين الذين هم مادة هذه التجارة ،وضرورة التجارة بين الاثنين التى تغلبت على كل اعتبارات الجنس والعقيدة والسياسة لا بد أن تملأ ،وميزة خط العرض الثانى عشر التى هيأت لنمو الأسـواق الضرورية كانت مناسبة إلى درجة غير عادية . فهنا كانت الكولا وتبر الذهب والرقيق تتبادل بالملح والنطرون والبضائع الأوروبية القادمـة من مناطق نائية فى الشمال[2] .

---

(١) الغابا أو المالى تقع إلى الشمال من واحادوجو بثلاثة أميال ويطلب من الواحد منهم بحكم العادة أن يحتفظ بحمل واحد على الأقل . ثم يستبدل به آخر .

(٢) ميزة الخط الثانى عشر التى يبدو أنها غابت عن المؤرخين ليست خاصة بالسودان الغربى . بل — استنادا إلى هارولد ما كمايكل — امتدت إلى وادى النيل ، حيث الأحوال — على حافتى الخط — أصبحت دون المدارية ، مع زيادة كمية المطر فى الجنوب فأصبحت لذلك الغابات أكثر كثافة والأرض أكثر انكساراً . وحلت التربة مكان الرمل . كما حلت الماشية مكان الجمل . والخروف .

Anglo Egptian Sadan, p. 13.

وأكثر من ذلك . يعتبر خط ١٢ فى قانون المعاشات خطاً فاصلا لحصول من يخدم جنوبه على معاش إضافى .

وبالرغم من أن كانو تقع هى الأخرى على الخط الثانى عشر فهى لاتقارن بالأسواق الكبيرة الأخرى التى تقع على نفس الخط ، وبسبب ارتفاعها فهى تنتمى جغرافيا إلى منطقة السفانا أكثر من انتمائها إلى منطقة الشجيرات . وكما رأينا فهى تدين بانتعاشها إلى مهارة صناعها وإلى ثروتها الزراعية وليس إلى موقعها الجغرافى كما هو الحال فى جيجا .

ولكن جيجا لها ميزة خاصة بها، إذ أن خلوها من اتسى تسى جعل الوصول إليها سهلا بحيوانات النقل من الشمال . كما أن موقعها على رأس طريق ملاحى على جولبين جندى Golbin Gindi وهو فرع من النيجر يمكن الوصول إليها من غابات الجنوب . وهى إلى حدما قريبة من مناجم الملح فى دلول وموقعها جيد لاصطياد تجارة جوانجا وباداجرى، وقدجذب جوها الهادىء كل التجارة التى يمكن أن تذهب — بسبب التعصب والقتال — إلى سكوتو وجواندو عاصمتى الفولانى المجاورتين . وسكانها من الجمباناوا Cimbanawa تنقصهم روح الجدل الدينى ولهذا أصبحتا شعب أسواق الحدود .

ولأنهم نصف مسلمين ونصف وثنيين يميلون إلى الكسل غير ميالين إلى التقدم قنعوا بأن يتركوا تجارة بلدهم إلى تجار أجانب، وبالرغم من هذا فإن جيجا لم تجن الفائدة الكاملة من مزاياها الكثيرة حتى إلى وقت أن اجتاح الفولانى برنين كيبى فى سنة ١٨٠٥ واقفلت ميناء الأخيرة منذ أيام الرومان ، ولم يذكر الطريق بين فزان وكور القديم كثيرا فى الوثائق التاريخية .ولكن لاشك أنه كان يستعمل بصفة مستمرة لأنه أسهل طرق قوافل الصحراء إجتيازا . وفى بداية القرن التاسع عشر استعاد كثيراً من أهميته الأولى بسبب العلاقات الحسنة التى أقامها أتراك طرابلس مع سلطان برنو . ولا يشك أحد فى طلب الأولين المستمر للرقيق وتحكم فى هذا الطريق إسمياً التيبو زنوج تبستى أصحاب العداوة المرة الموروثة لطوارق ايرى . فالغارات المتبادلة

ملأت الطريق ذهابا وإيابا ، وعوض المغيرون الفاشلون خيبتهم بنهب القوافل المارة ، وبالرغم من هذا فبقدر ما استمرت الصداقة بين الأتراك وأهل برنو ظل هذا الطريق المباشر المتجه من غدامس إلى إيرى . ولكن انتهى كل هذا فى منتصف القرن بانتهاء العلاقة بين طرابلس وبرنو التى هددت بأن تقود غارة تركية على الأخيرة ، وبعد هذا تحولت معظم الحركة جنوب مرزوق إلى طريق غدامس ايرى .

وبالرغم من أن طريق فزان — كور حمل كمية هائلة من الملح المتجه جنوبا من بلما فهو ولا شك كان طريقاً للرقيق . فكل أوروبى سافر على هذا الطريق الملطخ بالدم سجل فزعه من آلاف الهياكل البشرية التى انتثرت على جانبية . وكان معظمها لنساء وفتيات صغيرات ، وكانت تكثر بصفة خاصة حول الآبار مما يدل على أن الجهد الأخير الذى بذل من أجل الوصول إلى المـاء أدى بهن إلى الموت نتيجة الإجهاد .

وقد اشتد طلب الساحل الشمالى لإفريقيا على الرقيق الزنجى من أجل الاستعمال المحلى، ولكن أكثر من ذلك لأجل التصدير إلى مصر وتركيا، فلا أدعى إلى الدهشة إذن لكل من تجول فى منطقة الهوسا أن يجد أن ثمن رقيق الهوسا كان أعلى من أى رقيق آخر . وقد فضل الرجال لمهارتهم وذكائهم ، والنساء لجمالهن ومرحهن ونظافتهن . وقد امتد هذا التفضيل إلى مراكش، حيث سجل كل من جاكسون فى بداية القرن التاسع عشر وهاريس فى نهايته، الأثمان العالية التى تدفع للهوسا فى أسواق الرقيق المحليـة ، وكانت حركة الرقيق عبر الصحراء مخصصة لطريق فزان — كور ولـكن هذا الطريق حمل الجزء الأكبر منها بسبب الاستبعاد العملى لمنتجات السودان الأخرى . ففى أيام دنهام رفض تجار الشمال المشتغلون بالتجارة مع برنو أن يدفعوا أثمان تجارتهم إلا بالرقيق الذى أصبح — تبعاً لذلك — أهم عمله فى الدولة .

ولأجل مصلحتهم رأى التجار أن يكون رقيقهم فى حالة جيدة قبل أن يبدأوا عبور الصحراء، فقيدوا الرجال — الذين كانوا غالباً من الشباب — بقيود من حديد وبسلاسل فى رقابهم بينما سمح للنساء والبنات بالسير فى حرية. وتحمل الأقوياء السير فى الصحراء حتى إذا وصلوا إلى فزان لم يكونوا أكثر من هيا كل حية، وهناك يستريحون ويسمنون ليباعوا بربح يصل إلى ٥٠٠٪

وفرع هام آخر من هذه التجارة هو تجارة الخصيان. الذين يطلبون فى الحاح من أجل حراسة الحريم. إذ كانت العادة فى السودان أن يخصوا أشد الأولاد والشبان سوادا من بين من يقبض عليهم فى الغارات، وبعض القبائل — وخاصة الموسى جعلت الخصى عقاب بعض الجرائم. ولا شك أن الغرض من ذلك كان بعث النشاط فى هذا النوع من التجارة. ولم ينج من الموت نتيجة لهذه العملية غير ١٠٪ لما كانت تجرى عليه من طرق قاسية[1]. وكان الموسى يتميزون بمهارتهم إلى درجة غير عادية فى هذه العملية، وقد احتفظوا بطريقتهم سراً[2] وقد تمتعوا ومعهم أهل برنو بسمعة عالمية فى هذه التجارة التى كان معظم زبائنها أتراكا ومصريين ومغاربة، ويروى ليو الإفريقى كيف أنه اشترى مرة خصياً من بعض القبائل المتوحشة على ساحل طرابلس. ولكن التجارة كانت أقدم من ذلك بكثير. فى القرن التاسع مثلا ذبح إبراهيم بن أحمد الصقلى فى يوم واحد ثلاثمائة من خصيانه السود، وكان ينافس المشترين الأجانب طلب قوى محلى، لأن الخصيان كانوا

(١) أكد أحد أهالى كانو للمؤلف فى سنة ١٩١٩ أنه خلال خصى مائة من وثنيى ننجى Nengi لم ينج إلا عشرة. وكانت العملية قد جرت — كما قال — كأحسن ما يكون، وذكر بارت من ناحية أخرى أنه لا ينجو فى العادة إلا أقل من عشرة.

(٢) يذكر جوتييه Gautlier دهشه السفير الفرنسى فى القسطنطينية فى سنة ١٩٠٠ من وصول خصيان من الموسى من السودان الفرنسى. (مجلة « أفريقيا الزنجية الغربية » باريس سنة ١٩٣٥ ص ١٣٩).

كثيرى الاستعمال فى السودان، كما فى أى قطر إسلامى آخر . وإستناداً إلى ناختيجال، كان لدى سلطان برنو مائتان من الخصيان ، وكان التجار الأتراك يدفعون عن الواحد مبلغاً يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ دولاراً ، وقبل أن نتهم السودانيين بمثل هذه التجارة المشينة يجب أن نتذكر أنها كانت تمارس فى أوروبا المسيحية خلال العصور الوسطى ، وكانت هناك مؤسسات كبيرة غالبا ما كانت تحت إدارة اليهود فى فرنسا وخاصة فى فردان تمد مسلمى أسبانيا بالخصيان .

وفرقة الألحان فى كنيسة سستين Sistine وهم فخر الموسيقى والعار الأدبى للخورس البابوى بقى حتى نهاية القرن التاسع عشر ولكن خصى الأولاد استمر فى إيطاليا لمدة طويلة بعد ذلك .

وبالإضافة إلى شدة الطلب على الرقيق من أجل تصديره إلى الشمال الإسلامى والجنوب المسيحى فقد كانت هناك حاجة محلية ملحة له فى السودان ، حيث ملك كثير من الزعماء آلافاً من الرقيق، وعلى ذلك أصبحت الغارات على القبائل الوثنية فى التلال والغابات الشغل الشاغل للمسلمين فى كل السودان الغربى، وكانت الغارات تنفذ سراً وفق خطة دقيقة حين تحاصر القرية فى ظلام الليل بقوة كبيرة وفى حالة نجاح الخطة لا تنجو ضحية واحدة حين ينقض الغزاة على ضحاياهم انقضاضاً مفاجئاً عند الفجر [١] . ولا يؤخذ غير الشبان والنساء، أما كبار السن فكانوا يذبحون لقلة ثمنهم وكونهم غير قابلين للبيع . وشهد بارت فى بورنو منظراً مثيراً لمائة وسبعين رجلا فى مقتبل العمر تركوا والدم ينزف منهم حتى الموت بعد غارة من هذه الغارات، وبالقرب من الساحل حيث كان الأوروبيون متشوقين للشراء لكل زنجى قادر لم يكن يحدث هذا وكل

(١) كان من العادة أن يركب الخيالة مهورا فى هذه الغارات، لأن استعداد الخيل لأن تصهل يجعلها تنذر القرى باقترابهم .

هذه الوحشية القاسية كانت تنفذ باسم الدين . وكما قال اللورد لوجارد أنها أبشع تهمة ضد المسلمين فى إفريقيا إلى حـــد أنها شجعت الرق وأعطت له مبرراً دينياً .

وكان قضاء الأوروبيين على تجارة الرقيق عاملا فى سرعة إنهيار طرق القوافل الصحراوية ، وذلك بسبب اعتمادها المستمر على الواحات التى انتعشت منذ زمن بفضل عمل الرقيق ، إذ لم يكن العرب أو الطوارق هم الذين زرعوا هذه الواحات بل رقيقهم الزنجى من البوزو والهاراتين Buzu aud Haratin، ولما لم يعد البدو يقادرين على شراء الرقيق أو القبض عليه بدأت الواحات تختفى وطرق القوافل تموت .

والسبب الرئيسى لتدهور طرق القوافل كان بلا شك منافسه الطرق البحرية فى البحر المتوسط ، ما دامت الطرق التجارية من الساحل الغربى إلى السودان قد فتحت وحمل إلى الأسواق الشمالية الذهب والعاج وريش النعام وهى كل ما بقى من تجارة الصحراء عن طريق جبل طارق الطويل . ولكنه أرخص وأكثر أمنا ، وامتلاء أسواق السودان بالملح الأوروبى قضى على كثير من الطرق الصحراوية المحلية ولكن لم يحطمها كلية . كما رأينا ، واختفت الحركة عبر الصحراء وكان الأثر السياسى لهذا الإختفاء النهائى للطريق التقليدى للتجارة عميقاً . فمنتجات الواحات الزراعية المتواضعة التى كان يحصل عليها بأسعار عالية لا تتفق مع العائد الضعيف أصبحت هامة بالنسبة لاقتصاد الطوارق الفقير ، واستمرار استقلالهم كان لا يزال أكثر ضرورة لهم بسبب فائدته من ناحية وتقدمه من ناحية أخرى لحركة القوافل . فعملهم — كنقله التجارة وحامليها ومنظميها وناهبيها والمغيرين عليها — كانت جزءاً ضرورياً لحياتهم . فإذا ذابت هذه الموارد وأخذت الواحات تنكمش ولم تعد إلا قلة من القوافل لتزود بالجمال والبضائع

تسرق وتنهب، فانهار فى سرعة الحاجز الضيق الذى كان يفصل فى الصحراء بين الموت جوعاً والثروة ، واضطرت الحاجة الملحة شعوب الصحراء إلى الإغارة على بعضهم ، والفوضى التى لم يعرفها البدو خلال تاريخهم الطويل أصبحت عامة . وأصبحت الصحراء تغلى كما كانت حين حاول الرومان أن ينكروا على البدو مراعيهم التقليدية . ولكن على نطاق أوسع والغارات على الزراع المستقرين وصلت حداً بحيث لم يعد يستطاع وقفها فى حدود الصحراء، واستمرت الواحات تنكمش والآبار تنضب وينابيع الماء تجف. وبسبب إهمال الناس لها أصبحت الصحراء أكثر فقراً من أى وقت آخر . والعلاقات التى ربطت بين الساحل البربرى والسودان لقرون لا تحصى تحطمت إلى الأبد .



شكل ٨ غرب أفريقيا

الفهرست


مكتبة الأنجلو المصرية


Bibliotheca Alexadrina
0236043


ص
٧٥